من الأدب النمساوي المعاصر

توازي الظلال في الشمس

باربرا فريشموت



نقلها إلى العربية وقدم لها

د. محمد أبو حطب خالد

اهداءات ٢٠٠١

المرحوم أ.د. زكى على

القاهرة

من الأدب النمساوي المعاصر

تواري الظلال في الشمس

باربرا فريشموت

نقلها إلى العربية وقدم لها
د. محمد أبو حطب خالد

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية

رقم الايداع ٥٦٦٤/٨٢
الرقم الدولى : ٩ ـ ٧٣ ٠٠ ـ ٠٥ ـ ٩٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

توارى الظلال فى الشمس

قصة الكاتبة النمساوية المعاصرة

باربرا فريشـــموت

مدخل الى العمـــل الأدبى ومؤلفته

تقـــــديم

د٠ محمد أبو حطب خالد

١ ـ تمهيــــد :

قد يقدم المرء على شىء ما ويصرف فيه من العمر بضع سنوات ، دون أن يهتدى الى الحكمة ، أو الدافع من وراء انجاز هذا العمل ٠

لقد حدث هذا التساؤل بالنسبة للعمل الذى نحن الآن بصـــدده فهو غريب فى جوانب عدة : فى موضوعه ، فى هيكله ، فى اللغة الفريدة التى اختارتها الكاتبة عند صياغتها لهذا العمل ٠

قد يبدو للقارىء أن العمل يمثل نوعا من المحاكاة لبعض الأعمال الأدبية الشرقية ٠ وقد يبدو أن الكاتبة تريد أن تلقى الضوء لدائرة قرائهـــا على التصوف الاسلامى بعامة ، وتصوف البكتاشيين وسيرتهم بخاصة ٠ ولكن والأمر كذلك ـ فلماذا اذن نهجت الكاتبة هذا النهج القصصى اذا كانت تريد أن تكتب قصة ! وأين « التكنيك » القصصى الذى كان عليها أن تنهجه ٠

من المعروف أن العمل الروائى ـ ككل عمل أدبى آخر ـ انما يصنعه الكاتب ؛ ليناقش فكرة رئيسية عامة تكون بمثابة المحور الذى يدور حوله هذا العمل الأدبى ، كثرت صفحاته أو قلت ٠

ان العمل الأدبى انما يمثل التجربة التى خاضها الكاتب سواء عايشها فى واقعه ، أم رسمها له خياله ، حيث يفرز فيها عصارة ذهنه ، مصاغة فى قالب لغوى معين ، ويبرز فيها فلسفته الذاتية ٠

والسؤال الذى يطرحه القارىء ، عن هذا العمل ، وخاصة بعد اتمام قراءته ، سواء عن النص الأصلى ، أو عن طريق الترجمة الى اللغة الأم ، هل هو بحثه عن الفلسفة الذاتية التى هدفت بها الكاتبة من وراء هذا العمل ؟ وأين هى ؟ هل الأمر يتعلق بسيرة البكتاشيين ؟ أم بالواقع السياسى لتركيا المعاصرة ؟ حيث عاشت المؤلفة هذه التجربة هناك ـ أم أن الهدف يكمن فى سرد الأحداث اليومية العادية التى عاشتها بطلة الرواية مع « سيفيم » و « آيتين » و « تورجوت » و « أكسو » و « انجن بك » وزوجته ··· الخ ·

هذه أسئلة لا تزال الاجابة عليها مفتوحة ومتروكة للقارىء ··· فالحكم له أولا وأخيرا · وقبل أن نلج الى نص هذا العمل الأدبى الكبير ، نود فى سطور موجزة أن نعرف به وبصاحبته ·

٢ ـ حياة الكاتبة وأهم أعمالها الأدبية :

تعد باربرا فريشموت من مواليد عام ١٩٤١ م ، وعاشت طفولتها فى مسقط رأسها « ألتاوسى » (Altausce) ، وهى مدينة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها ثمانية آلاف نسمة ، وتتبع محافظة « شتايرمارك (Steiermark) احدى محافظات جمهورية النمسا الاتحادية التى تتميز بموقعها الجغرافى الهام · اذ أنها من المحافظات التى تقع فى وسط البلاد ·

تخصصت الكاتبة فى دراسة اللغات الشرقية ، وعلى وجه الخصوص اللغة التركية والمجرية ، وأنهت دراستها الجامعية هذه « بمعهد الترجمة » التابع لجامعة جراتز ، ثم أكملت دراستها العليا بجامعة فيينا ، وذلك فى الفترة من ١٩٦٤ الى ١٩٦٧ م ·

منذ عام ١٩٧٠ ـ تفرغت باربرا فريشموت للكتابة الأدبية ، وانضمت الى عضوية الجماعة الأدبية المعروفة تحت اسم « مجموعة جراتز » (Grazer Gruppe) ، وقد كونت هذه الجماعة منتديا أدبيا أسموه « فورمز شتادت ـ بارك » · (Forums—Stadtpark) ، والذى ساعد فى دعم العديد من براعم أدباء النمسا المعاصرين ·

منذ عام ١٩٦٠ ـ بدأت هذه الجماعة الأدبية تصدر مجلة « مخطوطات »

(Manuskripte) وكان رئيس تحـــريرها آنذاك الكاتب « ألفريد كوليريتش » (Aifred Kolleritsch) • وهى مجلة دورية ، تصدر أربع مرات فى السنة ، ولا تزال تصدر حتى الآن • وقد ساهم بالكتابة فيها عدد كبير من أدباء النمسا المعاصرين ، وعلى رأسهم « هاندكى (Handke) و « ارتمان » (Artmann) ، و « باور » (Bauer) و « يونكى » (Jonke) و « روث » (Roth) وغيرهم (١) •

ولما كانت الكاتبة التى نحن بصدد الحديث عنها تعيش أخصب سنى عمرها فى مجال الكتابة ؛ فانه من العسير علينا وعلى غيرنا أن نقول الكلمة أو الحكم الأخير على اسهامها الأدبى، الا أننا ندعو الله لها بمديد العمر وزخرة الانتاج فى حياتها المستقبلة •

ومن هذا المنطلق فاننا سنعرض للقارىء العربى وفى ايجاز شديد لأهم أعمال الكاتبة مرتبة تاريخيا حسب خروجها من دور النشر ، وحتى آخر انتاج لها وصل الى أيدينا •

أما فيما يختص بالعمل الذى نقدم ترجمته العربية للقارىء والدارس العربى ، وهو قصة « توارى الظلال فى الشمس » فسنحاول التعريف به فى شىء من التفصيل فى موضعه •

وأهم هذه الأعمال هى :

١ ـ « مدرسة الدير » ، سالزبورج ١٩٦٨ م

Die Klosterschule, Salzburg 1968

وهو أول انتاج قصصى للكاتبة من الحجم المتوسط ؛ وفيه ترسم الكاتبة ترجمة ذاتية عن طفولتها وتربيتها داخل مدرسة تابعة لأحد الأديرة الكاثوليكية القريبة من فيينا • وتصور الكاتبة هنا العديد من المفارقات والمجابهات التى تتعرض لها البطلة من قريناتها بالمدرسة الداخلية أو من مربياتهـــا من

1. Spiel, Hilde, (Hrg.) : Die zeitgenössische Literatur Oesterreichs Zürich-München 1976, S. 264.

الراهبات · كما تعرض لما علق فى ذاكرتها من سلوك أولئك جميعا ، ومدى علاقته بالتربية المسيحية الصادقة التى عاشتها فى الدير ، وربط ذلك بالحرية الفردية التى اكتسبتها المرأة فى المجتمع الأوروبى ·

٢ ـ « شخشيخات أطفال غير خلقية » فرانكفورت / ماين ١٩٦٩ م
Amoralische Kinderklapper, Frankfurt/M. 1969

هو أول انتاج للكاتبة عن « أدب الأطفال » ، ويشـــمل تســـع عشرة أقصوصة بالرسوم · أعدت فى أسلوب سهل وصياغة بسيطة عن أحداث تملأ حياة وخيال الأطفال اليومية ، وجعلت الكاتبة من عنوان كتابها هذا معارضة للكتاب الذى سبق أن ألفه كارل أوجست موزيس عام ١٧٩٤ م بعنوان : « شخشيخات خلقية » ·
Moralische Kinderklapper, von : Karl August Musäus,Gotha,1794
وهى قصص تهذيبية هادفة على غير ما يوحى به عنوان الكتاب ·

٣ ـ « حكايات لأجل شتانيك / برلين عام ١٩٦٩ م :
Geschichten Für Stanek, Berlin 1969

وهو كتيب للأطفال يحتوى على أربع حكايات :
الراهبة والفرس ، والرهان ، حكاية دب ، وماذا يقول شتانيك تجاه كل حكاية ·

٤ ـ « أيام وسنون » ، سالزبورج ١٩٧١ :
Tage und Jahre, Salzburg 1971

وفيه تعرض الكاتبة أحداث ومظاهر الحياة اليومية ، حيث تتوفر فيه عنصر الدقة فى وصفها لهذه الأشياء : كالذهاب للشراء ، والتنزه على غير هدى ، أو وصف أحوال الجو ، التليفزيون ، ذكريات وخواطر · كل ذلك فى أسلوب بسيط وتعبيرات هادئة متعقلة ·

٥ ـ « أيدا وأوب »، فيينا وميونخ ١٩٧٢ :
Ida und Ob,Wien. München 1972

قصة من الحجم المتوسط (١٤٤ صفحة) للأطفال والشباب ، وتدور

أحداثها بين فتاة المدينة الكبيرة « ايدا » التى تسافر لقضاء العطلة الدراسية عند عمها ، الذى يعيش فى قرية « أب » (OB) وهى اختصار للاســـم « أوبر كفيتشتبروننجن » Oberquetschenbrunningen وهناك تحيا « ايدا » حياة القرية ، وركوب الخيل ، وتعيش مع الفلاحين وحيواناتهم حياة السراء والضراء ٠

٦ ـ « عود الى المخرج المؤقت ، سالزبورج عام ١٩٧٣ :

Rückkehr zum vorläufigen Ausgangspunkt,Salzburg 1973

مجموعة قصص قصيرة بلغ عددها تسع عشرة قصة ، سجلت فيها الكاتبة انطباعاتها المتنوعة للأماكن التى حظيـــــت بزيارتها (كاستانبول والتاوسى) وغيرها من قرى الريف النمساوى ٠

٧ ـ « توارى الظلال فى الشمس » ، فرانكفورت / ماين ١٩٧٣ :

Das Verschwinden des Schattens in der Sonne,Frankfurt/M.1973

وهو العمل الأدبى الكبير الذى نقدمه الآن للقارىء العربى ٠

٨ ـ « صيد فى مهب الريح » ، سالزبورج ١٩٧٤ :

Haschen nach Wind,Salzburg 1974

أربع قصص قصيرة هى « لأبقى » ، « شجرة الكلب المنسى » ، و « صيد فى مهب الريح » ولما يحن الوقت ، (١٤٨ صفحة) ، وكلها تعالج مشكلات نساء يبغين التحرر حيث يصادفن فى حياتهن ظروفا اجتماعيـــة قاسية خالية من الحب والعطف ، سواء فى حياتهن الخاصة أو فى وظائفهن العامة بالمجتمع ٠

٩ ـ « ثلاثية باربرا فريشموت عن قضايا تحرر المرأة الأوروبية :

فى ثلاث مجلدات على النحو التالى :

(١) « الخبايا المريبة للسيدة صوفى زلبر / سالزبورج ١٩٧٦

Die Mystifikationen der Sophie Silber,Salzburg 1976

قصة طويلة من الحجم الكبير (٣٢٤ صفحة) وتعيش بطلتها « صوفى

زلبر » التى تعمل كممثلة مسرح فى فرقة متجولة حياة عريضـــة بهيجة ، وسرعان ما تختلط أحداث دنيا الواقع مع عالم الخيال والأساطير بجنياته وملائكته . وقد تأثرت الكاتبة فى هذا العمل على حد قولها بالأساطير الكلتيه القديمة » وبالروائى الانجليزى (George Mc-Donald) فى روايتــه « على ظهر ريح الشمال » (١) "At the Back of the north Wind"

وتنتهى حياة « صوفى » بصراع مرير بين بناء مستقبلها كممثلة كبيرة بأحد مسارح فيينا ، ورعاية ابنها غير الشرعى « كليمنز » ، ومنحه مزيدا من الحب والحنان .

وقد حاولت الكاتبة فى هذا العمل أن تسير على الطابع التقليدى لأدب الأساطير الألمانى والنمساوى ابتداء من « لودفيج تيك » (Ludwig Tieck) و « اى . تى . آ . هوفمان » E.T.A. Hoffmann ، الى « فردينانه رايمـــــوند » (Ferdinand Raimund) ، و « هوجو فون هوفمانزتال » (Hugo von Hoffmansthal)

(٢) « أمى أو التحول » ، / سالزبورج ١٩٧٨ م
Amy oder die Methamorphose, Salzburg 1978

وهى تمثل الجزء الثانى من الثلاثية : حيث تبدأ حياة « أماريليس » : الملاك الحارس الأسطورى .

فى الجزء الأول تعيش حياة الانسان الحقيقى مشاركة لأحداث دنيا الواقع ، مكملة للمشوار الذى بدأته « صوفى » فى المجلد الأول بعقل مدرك ، وفهم واع ، لمجابهة المشكلات والقضايا التقليدية التى تواجه المرأة ، محاولة التحرر منها وفق مقتضيات المجتمع المعاصرة ، ولكنها لم تصل الى بغيتها بالقدر الذى أرادته ، فظلت حبيسة ماضيها رهينة حنينها لعالم الأساطير الذى عاشته فى البداية ولم تستطع التخلص منه .

---

(١) من حديث للكاتبة بجريدة « دى تسيت » Die Zeit فى ٤ يونيه ١٩٧٩ تحت عنوان : عندما كانت الامانى لا تزال معلقة بالاشجار .
"Als die Wünsche noch an den Bäumen hingen"

(٣) « كاى وعشق النماذج » ، سالزبورج ١٩٧٩
Kai und die Liebe zu den Modellen, Salzburg 1979

فى هذا الجزء الثالث والأخير من الثلاثية يعيش الطفل « كاى » بين أمه « آمى » وبين أبيه « كليمنز » ولم تعمر الحياة الأسرية بين الأبوين طويلا ، وتستقل الأم بحياتها ، وتتفرغ للعمل بالأدب ككاتبة ، تفرغ جهدها الأدبى لخدمة الأطفال ، وخلق دنيا سعيدة لهم مستقبلا · وتعكس « فريشموت » فى هذا الجزء من الثلاثية مرحلة واقعية من حياتها الخاصة ·

واذا كانت أحداث الجزء الأول والثانى من الثلاثية ترمز الى الماضى والحاضر — فان الجزء الثالث يتجه بأحداثه صوب المستقبل · لقد هدفت فريشموت بعملها هذا علاجا لمجتمع يسود فيه نـــوع من الروابط الأسرية القوية ، حيث يتمتع فيه الأطفـــال بتربيتهم تربية مرضية بين الأبوين فى جو متحرر ·

ولكن تبقى قضايا المرأة بوجـــه خاص ، فى نهاية الأمر معلقة دون حل جذرى ·

١٠ « حرمان وتحذير من النوع الرقيق » ، برلين ١٩٧٩ :
Entzug----Ein Menetekel der zärtlichen Art, Pfaffenweiler 1979

يشتمل هذا العمل على قصتين قصيرتين تعبر فيهمـــا الكاتبة عن أحاسيسها الداخلية على لسان أبطالها من النساء ، وكذا عن العـــذاب والمرارة التى يلقاها المرء فى الحب وخاصة حينما لا يجد من يبادله هـــذا الشعور ، بالقدر الذى يحس به ويعطيه · وتعود الكاتبة هنا الى سرد الأحداث بشكل أسطورى حيث تنسج بطلة القصة اسما لحبيب لها من الخيال ، باحثة عنه فى كل مكان حتى نهاية العالم · وهو فى الواقع غير موجود البتة ·

١١ — « روابط » ، سالزبورج ١٩٨٠ م :
Bindungen, Salzburg 1980

قصة من الحجم المتوسط (١٤٨ صفحة) · وهى ما يمكن أن يطلق عليها « بالأخوات الأعداء » · الأخت الكبرى « فانى » عالمة الآثار والتى

انفصلت عن زوجها مجروحة فى حبها قاصدة أختها الصغرى « مالفينى » ، والتى تعيش فى احدى قرى الريف القريبة من المدينة ، سعيدة مع زوجها « طبيب العيون » وابنها « تسينو » .

ويبدأ الصراع بين كل من الأخت الكبيرة الضـيفة القادمة بجروحها من المدينة وبين الأخت الصغرى المضيفة ، على كسب حب الزوج والابن . وفى هذا العمل تعود الكاتبة الى عرض مشكلات الحياة اليومية البعيدة عن دنيا الآساطير والخيال .

١٢ ـ المرأة فى القمر ، سالزبورج ١٩٨٢ :

Die Frau im Mond, Salzburg 1982

وهى رواية من الحجم المتوسط (١٥٤ صفحة) ، والعنوان على صورته هذه يمثل تعبيرا ألمانيا ويقصد به ـ لغويا ـ المرء الذى يعيش حالما مبتعدا عن واقعه ؛ وفيها حشدت الكاتبة مجموعة من تصوراتها حول القاسم المشترك للتعايش بين الرجل والمرأة ؛ وذلك بسبر أغوار أنماط ثلاثة من الفكر لثلاث نسوة من خلال عرض حياتهن عرضا يمتزج فيه ـ وبطريقة فنية ـ الرومانسية بالواقع ، قصور الأحلام تحل محل شواغل الحياة اليومية .

وتخلص الكاتبة الى أن ادراك كنه التباين بين طبيعة كل من الرجـــل والمرأة ، ومعرفة ملابسات الولادة والنشأة لـــكليهما ، وقابلية كل منهما للتغير ، والتعرف على أوجه التماثل والتضاد بينهما ـ شرط لبلوغ تفاهم مشترك بين كلا الطرفين .

١٣ ـ أسرة فى العطلة » ، سالزبورج ١٩٨١ م :

Die Ferienfamilie, Salzburg 1981

وهى قصة متوسطة الحجم (١٢٠ صفحة) وتدور أحداثها حول رحلة لأسرة لقضاء العطلة الدراسية مصطحبة الأولاد حيث تواجه العـــــديد من المشاكل أثناء قضاء العطلة .

وقد ظهر لها فى مطلع عام ١٩٨٢ أول عمـــل مسرحى « دافنى وأيو» Daphnie und Io وهى مسميات اغريقية لنساء نمساويات . وتعالج فيه قضايا تحرر المرأة فى هذا المجتمع العصرى المعقد . ولم يصل هذان العملان الى متناول أيدينا حتى اعداد الكتاب للطبع .

٣ · باربرا فريشموت بين ثقافة الغرب والشرق ·

٣٠١٠ عموميات ·

سبق أن قدمنا « باربرا فريشموت » الأديبـة النمساوية فى كتابنا :
« الأدب النمساوى فى مصر » القاهرة ١٩٧٨ ·
Oesterreichische Literatur in Aegypten..., Kairo 1978.

وذلك بالاشـــتراك مـع المستشرق الدكتـــور « هاينز جشترين » (Heinz Gstrein) كاسهام متواضع منا تجاه المؤتمر العلمى الذى عقده ، وأعد له المعهد الثقافى النمساوى بالقاهرة من أجل مناقشة وتقييم بعض أعمال الأديبة النمساوية ·

وقد شاركت أقسام اللغة الألمانية بجامعة القاهرة ، وعين شمس الى جانب جامعة الأزهر · كل بنصيبه فى هذا المؤتمر الذى حضرته الكاتبة فى الفترة من ٢٨ / ١٠ / ١٩٧٧ وحتى ٢٩ / ١٠ / ١٩٧٧ ·

لم يكن هذا المؤتمر العلمى هو الأخير ، فقد تلته مؤتمرات أخرى نذكر منها على سبيل المثال ـ ذلك المؤتمر الذى عقدته جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية فى عـــام ١٩٧٩ تحت رعاية جمعية « آرثر شنتسلر » (Arthur Schnitzler) للأدب النمساوى ، والمؤتمر الذى عقدته كلية الآداب جامعة القاهرة فى ربيع عام ١٩٨٠ · وقد اشترك مع الكاتبة « باربرا فريشموت » الكاتب النمساوى « ديتمارجريسر » (Dietmar Grieser) المشهور بأدب الرحلات ·

أما العمل الذى نحن الآن بصدده « توارى الظلال فى الشمس » والذى نقدمه اليوم لدائرة أوسع من القراء فى ثوب عربى يأتى من منطلق ، أن ما سبق تقديمه كان يهدف بالدرجة الأولى القارىء الدارس والمســتوعب للألمانية ، أو المتكلم بها ـ ظنا منا أن هذا الاطار التخصصى المحـــدود فيه الكفاية ·

وبعد مرور فترة وجيزة ـ وجدنا أن هذا العمل ينتشر بصورة غير عادية

بين قطاعات عريضة من جماهير القراء فى عديد من دول العالم · مما جعل دور النشر المختلفة تعيد طباعته وترجمته الى لغات أخرى · وفى كل مرة يطبع أو يترجم ينفد من السوق بعد أيام قلائل ·

ولقد لقى كتابنا السابق ذكره ، اهتماما طيبا فى الوسط العلمى · وعلى سبيل المثال فقد تعرض له الأستاذ الدكتور / دونالدج دافيو (١) ناقـــدا ومقتبسا فيما كتبه تحت عنوان :

« تطورات جديدة فى أدب النثر النمساوى المعاصر » ·

وكذا الدكتور / جورون جونز (٢) فى ترجمتها الذاتية عن « باربرا فريشموت » والتى أنهتها فى نهاية عام ١٩٨٠ ·

٣ · ٢ · باربرا فريشموت وأدب الغـرب

يظهر تأثر الكاتبة « باربرا فريشموت » واضحا فى كل ما كتبت بأسلوب الفيلسوف النمســـاوى « لودفيـج فيتجنشـــتين (Ludwig Wittgenstein) ١٨٨٩ – ١٩٥١ ، والذى يعتبره النقاد واحدا من كبار فلاسفة القرن العشرين· وهو أول من ربط فلسفته اللغوية بين علم اللغة وعلوم المنطق فى اطار رياضى وقد أثرت كتاباته الفلسفية هذه على غالبية أدباء النمسا المعاصرين تأثيرا كبيرا ، وذلك بأن يستخدم الكاتب لغة للكتابة بسيطة سلسة وبعيدة عن كـل تعقيدات قواعد اللغة وفقهها ومن أهم أعماله الخـالدة فى هذا المجـال :

(١) أبحاث فلسفية ، اكسفورد ١٩٥٨ ، فرانكفورت ١٩٧٥
Philosophische Untersuchungen, Oxford 1958, Frankfurt/M 1975

(٢) قضايا منطقية فلسفية ، اكسفورد ١٩٥٩ ، فرانكفورت ١٩٧٥
Tractus logico—Philosophicus,Oxford 1959, Frankfurt 1975

---

1. Daviau, G. Donald : Neuere Entwicklungen in der modernen österreichischen Prosa-Die Werke von Barbara Frischmuth, in : Modern Austrian Literature, Vol. 13 Nr. 1, California, 1980, S. 177—217.
2. Laut Brief von Jorun B. Johns an den Verfasser vom 12.9. 1980 betr., "Frischmuths Bibliographie".

(٣) النحو الفلسفى ، اكسفورد ١٩٦٩ ، فرانكفورت ١٩٧٣ ٠

Philosophische Grammatik, Oxford 1969, Frankfurt 1973

هـــذا ـ كما آثرت كتـــابات الأديب النمســـاوى « كارل كرواس » ـ Karl Kraus) ١٨٧٤ ـ ١٩٣٦) والذى يعد واحدا من كبار كتـاب النمسا فى العصر الحديث على الأديبة الشابة وعلى تطورها الأدبى ، وذلك من خلال ما كان يكتب فى المجـــلة التى أصـــدرها بعنوان « الشـــعلة » "Die Fackel" فى الفترة ما بين ١٨٩٩ ـ ١٩٣٦ م ٠ الى جانب عشرات الأعمال الأدبية الأخرى ، والتى أسهمت فى اثراء الادب النمساوى المعاصر بل وأدخلته الى مصاف الادب العالمى من أوسع الابواب (١) ٠

الى جانب ذلك ـ فقد سبقت الاشارة الى تأثر الكاتبة فى بعض الأعمال الأدبية التى عرضنا لها بأدب الأساطير الكلتية ، والاساطير التى عالجهـــا الادب الألمانى والنمساوى (تيك ، هوفمان ، رايموند ، وهوفمانزتال) ٠ ونذكر هنا على وجه الخصوص العمل الأسطورى « ملك جبال الألب وعـــدو البشر » (Der Alpenkönig und der Menschenfeind) ولا يخفى فى دنيا الأدب صلة هؤلاء الكتاب بأدب الشرق ، منهم من حاكاه ، ومنهم من عشقه ، وتعمق فى دراسته ٠ وهو ما سنجد صداه الكبير لدى الأديبة الشابة فى روايتها ، « توارى الظلال فى الشمس » ، والتى نجد سبقا لها فى خاتمتها الأدبية فى رواية الكاتب النمساوى « فرانز فيرفل » (Franz Werfel) « الأربعـــون يوما لجبل موسى ضخ » "Die vierzig Tage des Musa Dagh" والتى تنـــاول موضوعها الصراع الدائر رحاه بين الأتراك والأرمن أثناء الحرب العـــالمية الأولى ، حيث يعرض الكاتب لبعض مظـــاهر التصـــوف الاسلامى وعالم الدراويش ٠ وان كان ذلك فى صورة مقتضبة (٢) ٠

---

(1) Paul Schick: Karl Kraus in Selbstzeugnissen and Bilddokumenten, Hamburg 1965

Karl Kraus: Sprüche und Widersprüche, München 1972
Hans Weigel:Karl Kraus oder die Macht der Ohnmacht, München,1972
Gstrein, Heinz:Islamische Sufi-Meditition für Christen, Wien 1977
Kapitel : "Ein türkischer Zikr aus der Sicht Franz Werfels",S. 13-38

٣ ٠ ٣ باربرا فريشموت وأدب الشرق

كما ذكرنا فى مطلع هذا التقديم ـ أرادت الكاتبة من منطلق تأثرها ببعض الأعمال الأدبية الشرقية ـ أن تنهج نوعا من المحاكاة فى روايتها « توارى الظلال فى الشمس » ويظهر هذا جليا فى المقدمة ، التى أوردتها المؤلفة والتى تمثل بضعة جمل مقتبسة من كتاب « توتى نامه » الفارسى الأصل (كتاب الببغاء) وهو الكتاب الذى أعده ضياء النخشبى (١٣٥٠ م) عن الأصل الهندى « شوكاسبتش » ، ويحتوى الكتاب على سبعين قصة يتم سردها على لسان الببغاء ٠

وقد انتقى منها ضياء الدين النخشبى اثنين وخمسين قصة ونقلها الى الفارسية ٠ وتدور كل أحداثها حول تاجر يدعى ميمون ، رحل فى سفرة طويلة للتجارة وترك وراءه زوجته « هوجاتس » واشترى لها ببغاء يؤنس وحدتها، ولما أحس الببغاء منها ضيقا قد يؤدى بها الى طريق الغواية باحثة عن صديق لها ليسرى عنها غيبة زوجها ٠ أخذ يقص عليها قصة مشوقة ومثيرة كى يلهيها عن غيها وليحول بينها وبين خيانة رجلها فى غيابه ٠ واستمر الببغاء يسرد القصص حتى عاد الزوج من تجارته بعد الليلة الثانية والخمسين ٠

والجانب الآخر الذى تأثرت به الكاتبة تأثرا بالغا ـ هو اقتباسها لكثير مما عرض له الشاعر الصوفى الكبير « فريد الدين العطار النيسابورى » فى « منطق الطير » (١) والتى استند فيها الى « رسالة الطير » العربية التى ألفها الامام الغزالى المتوفى عام ٥١٥ هـ الموافق ١١١١ م ٠ ويرى الباحثون فى هذا الصدد أن هذه المنظومة هى أحسن ما جادت به قريحته (قريحة العطار) وأن مقامات الطيور التى ذكرها تعود الى قول الله تعالى « وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء ، ان هذا لهو الفضل المبين » (٢) ٠

---

(١)ترجمت هذه المنظومة من الأصل الفارسى الى عديد من لغات العالم الحية ومن بينها العربية والتى قام بترجمتها الدكتور / بديع محمد جمعه ، القاهرة ١٩٧٥ ٠

قارن يضا : أحمد معوض « فريد الدين العطار ٠٠٠ ، القاهرة ١٩٧٦ ٠

(٢) سورة النمل ، آية ٦ ٠

ولقد رأينا أنه لزاما علينا ـ زيادة فى أن يتفهم القارىء العربى العمل الأدبى الذى قمنا بترجمته ، وأن يجد المتعة المرجوة كلما عاود القراءة فيه ـ أن نلقى بعض الضوء وبايجاز بالغ على محتوى وأحداث منظومة « منطق الطير » ، التى ستسهم دون أدنى شك فى فهم واستيعاب ذلك العمل الذى قامت به هذه الكاتبة ٠

ان كافة الطيور التى تعرض لها العطار فى «منظومته» ، تمثل طيورا من عالم الواقع باستثناء طائر واحد ، وهو ما رمز اليه (باله الطير) ، وكناه بالتسمية الفارسية « سى مورج » وهى كلمة تتكون من مقطعين « سى » وتعنى ثلاثين و « مورج » وتعنى « طائر » ٠ وقد كان لهذا الطائر الاسطورى مكانة عالية لدى الايرانيين قبل الاسلام ، وقيل أنه يعيش حيث الخير والنماء والرائحة العطرة ٠ وهذا يؤيد ما انتهى اليه المستشرق الألمانى هيلموت ريتر "Helmuth Ritter" أن العطار فى « منظومته » كان يخص كل طائر بما يتفق وطبائع هذا الطائر وخصائصه (١) ٠

يبدأ العطار منظومته بمناجاة العلى القدير ، ومدح رسوله الكريم سيد المرسلين ، والخلفاء الراشدين ، وذم التعصب والبغضاء ٠ ثم يتعرض للاجتماع الكبير للطير ، وذلك للتشاور من أجل البحث عن اله يرشدهم ويهديهم الى الجادة ، ويتقدم الهدهد ليحدثهم عن « السيمورج » داعيا اياهم للرحلة وسلوك الطريق بغية الوصول الى الاله ، وتبدأ الرحلة بقيادة الهدهد هاديا ومرشدا ، وما ان يدرك الجميع الصعاب التى تكتنف الطريق حتى يبدأ البعض منهم فى التقاعس وخلق المعاذير عن مواصلة الرحلة ٠ ويهلك عدد من الطير ، أما لأنهم كانوا غير صادقين فى سلوكهم ، واما لأنهم شغلوا بمفاتن أشياء أخرى ٠ وعن هذه الرحلة يتحدث العطار عما أسماه « بأودية الطريق » وقد حددها بسبعة أودية ، بدءا « بوادى الطلب » وحتى وادى الفقر والفناء » ٠

وعندما تأتى الرحلة الى نهايتها ـ نجد أنه لم يصل سوى ثلاثين طائرا

---

(1) Ritter, Helmuth · Das Meer der Seele, Menschen, Welt und Gott in den Geschichten des Fariduddin Attar, Leiden Brill 1955, S. 4.

الى نهاية الطريق أى الى الحضرة العلية (١) ٠

من هذا سيتبين للقارىء الى أى مدى تأثرت الكاتبة والأديبة النمساوية باربرا فريشموت فى عملها هذا بمنظومة العطار ، والذى تظهر سماته فى عنوان الكتاب : « توارى الظلال فى الشمس » ومدى علمنا أن للهدف من رحلة الطير عند العطار هو الاتصال بالله والفناء فيه ، فطيوره قد فنت فى ذات الله وانمحت كما ينمحى الظل فى الشمس (٢) ٠

ووفقا لما اعتقده غالبية المتصوفة بأن الوجود فى الكائنات واحد وهو الله ٠ وأن كل الكائنات بما فيها الانسان جزء انفصل عن الله ، وأن هذه الكائنات هى بمثابة خيال شمعة فى مرآة وأن هذه الحياة الدنيا ليست سوى انعكاس لوجود الله وهى فانية زائلة ولا قيمة لها ٠ وبالتالى فكل الكائنـــات فى شوق وحنين مستمرين للعودة ثانية الى الله الذى هو مصدر السعادة الأبدية الأزلية التى انفصلت عنه (٣) ٠

لقد ظهر لنا هذا التأثر أيضا من خلال التسميات التى وردت فى رسالة الطير للغزالى التى استقى من نبعها العطار فى « منطق الطير » ، فقد تكلمت الرسالة عن طائر « العنقاء » وهى « سى مورج » الفرس التى قادت الرحلة الشاقة الى رب العرش حيث هلك الكثيرون منهم فى الطريق ٠ ولم يصـــل الى حضرته الا قلة صابرة ، ووجدت فى بادىء الأمر استقبالا فاترا ، مما سرب بعض اليأس اليهم ٠ ثم ما لبثت العنقاء أن رضيت نفسها ، وانعمت عليهمبالمثول لديها مما أدخل الطمأنينة فى قلوبهم (٤) ٠

والمصادر - ترى أن الغزالى برحلة طيره هذه - يكتفى بأن تحظى الصفوة بالمثول أمام الحضرة العلية بينما العطار لا يكتفى بذلك المثول ٠ وانما يتعداه الى الاضطلاع بشرف خدمتها رغبة فى الترقى والوصول الى حد الفناء فى الله والاتحاد معه ٠

---

(١) قارن : أحمد معوض ، فريد الدين العطار ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٤٣ ٠

(٢) قارن : بديع محمد جمعه ، منطق الطير ، ٠٠٠ ص ٣٤ ٠

(٣) Köcka Türk, Mahir Vasfi, Türk Edebiyati, tarihi, Ankara 1964,S.60

(٤) انظر : الجواهر الغوالى من رسائل الامام حجة الاسلام الغزالى ، القاهرة ١٩٣٤ ،ص ١٤٧ وما بعدها ٠

ولم يذكر الغزالى عددا محددا للطيور التى حظيت بالمثول ، بينما حددها العطار بثلاثين مستخدما الجناس المزدوج بين « سيمورج » بمعنى الاله فى الفارسية وبين « سى مورج » بمعنى ثلاثين طائرا ·

وقد تجاوزت منظومة العطار أربعة آلاف وستمائة بيت ، بينما لم تتجاوز رسالة الغزالى أربع صفحات · ومن هنا فقد قدم العطار لسير الكثيرين من مشايخ الطرق الصوفية وأقطابها محددا عديدا من المفاهيم والمسميات لدنيا التصوف هذه ، والتى كثيرا ما استخدمتها الأدبية النمساوية فى عملها ، دون أن توضح من قريب أو بعيد حتى للقارئ الأوروبى ، تلك المسميات تاركة ذلك لمعلومات القارئ واهتماماته · ولهذا نجد لزاما علينا أن نعرض لبعض هذه المفاهيم كى تتضح للقارئ العربى غير المتخصص ـ تيسيرا له اذا ما قدر له أن يقرأ هذا العمل الأدبى الكبير ·

١ ـ المرشد والمريد

حين تتوفر لدى السالك الرغبة فى قطع الطريق ـ فانه لن يتيسر له ذلك بدون مرشد · هذا المرشد واجبه تبصرة المريد بأخطار الطريق وعقباته، أى لابد للطريق من شيخ ولا يمكن قطعه بدون مرشد ، وعلى المريد أن يطيع أوامر المرشد طاعة عمياء · وهذه الولاية منحة الهية يهبها الله ـ سبحانه وتعالى ـ لمن يختاره ، وقد سئل الهدهد عن حظوته بالمكانة العلية دون سائر الطير فرد قائلا : « لقد كان سليمان ـ أيها الطير ـ يديم النظر صوبى فى كل أونة ، وما حصلت على تلك المكانة بالفضة أو الذهب ، انما تأتى هذه المكانة من نظرة واحدة » (١) ·

فوجود الشيخ « المرشد » ضرورة حتمية بحكم واسع علمه وخبرته بالطريق ، وعليه العقد والحل حتى يستطيع قيادة مريديه · وقد بين العطار تلك الصفات على لسان الهدهد :

« جئت مزودا من الحضرة بالمعرفة ، جئت لأكون بالفطرة صاحب أسرار،

(١)أنظر : البيت رقم ١٦٣٢ ـ ١٦٣٣ من : منطق الطير ··· ص ٤١ ·

كم قضيت السنين أجوب البر والبحر ، وكم طوفت بمراحل الطريق ، كم جبت الوديان والجبال والفيافى ، وطفت بالعالم منذ عهد الطوفان » (١) ٠

٢ ـ الله والعـالم

التصوف لدى العطار يمثل الصلة التى تحدد العلاقة بين الله والسالك حتى يصل به الأمر الى حد الفناء فى الله ، والبقاء معه بعد الفناء ٠ هـذه الصلة بين الله والعالم هى كالصلة بين البحر والقطرة ، وما البحر الا الله، وما القطرة الا العالم ومن ملك البحر ملك القطرة ٠

أما الصلة الثانية ـ فهى صلة العلاقة بين الظل والشمس ـ فالعالم ما هو الا ظل الله عز وجل ، ويذكر لنا العطار أنه عندما رفع « السيمورج » النقاب ، فان وجهه بدا كالشمس المشرقة ، وسقطت منه مئات الألوف من الظلال على التراب ، وقد نثر ظله على العالم ٠ فأصبح ظله تلك الطيور » وطيور العالم جميعها ما هى الا ظل « السيمورج » ويناجى العطار ربه فى مقدمة منظومته :

« ولما كنا متلازمين دائما » فأنت الشمس ونحن الظل (٢) ٠

أما الصلة الثالثة فهى التى تتمثل فى العلاقة بين الكنز والطلسم ، والعطار يعنى بذلك أن العالم طلسم ، والكنز الـــذى وراءه هو الله « أنت معنى ، وما عداك مجرد اسم ؛ أنت كنز ، والعالمون طلسم (٣) : ما أكثر من خبروا سطح البحر ، ولكن لم يدرك أحد ما بقاعه ، الكنز بالقاع ، وما الدنيا الا طلسم ، وفى نهاية الطلسم سيتحطم قيد الجسد ، وسنجد الكنز عندما يفنى الطلسم ٠٠٠ (٤) ٠

« ان الله هو السلطان وحـــده ، وهو مالك الدنيا والفعال لما يريد ، وما الخلق الا ظل له ، وكل شىء وفير لديه » ٠ ولننظر الى اجابة الهدهد

---

(١) البيت رقم ٦٦٨ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ المرجع السابق ٠٠٠ ص ٤٢ ٠

(٢) البيت رقم ١٧٢ ، منطق الطير ، بديع محمد جمعه ص ٤٣ ٠

(٣) البيت رقم ١٣١ ـ ١٣٢ ٠

(٤) البيت رقم ٢٢٥ ـ ٢٢٧ ٠

حينما سئل عما اذا كان يحمل معه هدية لائقة يقدمها للحضرة العلية : « كل ما تود حمله وفير هناك ؛ فكيف يكون حمله مقبولا منك ؟ ! - هناك يتوفر العلم والأسرار وطاعة الملائكة » (١) ٠

٣ - العشق الالهى :

هو القوة الخفية التى تدفع السالك الى الطريق الحق ، وتسمو بالعشق حتى تجعله يفنى فى ذات المعشوق ٠

والعشق عند العطار **نوعان :**

عشق دائم وهو عشق المعرفة ٠ وعشق زائل وهو عشق الصورة ٠ وعشق الصورة هذا ، سرعان ما يزول بزوالها ٠ أما عشق المعرفة فهو عشق الله الأبدى السرمدى ، وشغل العاشق به عما سواه ٠

وفسر العطار ولادة آدم وعيسى بأنها مظهر لهذا العشق :
« اذا وقعت ذرة عشق على سالك ، تولدت عنه امرأة ، واذا سقطت ذرة عشق على سالكة تولد عنها رجل ، والدليل على ذلك ، أن آدم بذرة عشق أنجبت حواء ، كما أن مريم بذرة عشق أنجبت عيسى (٢) ٠

٤ - الطريق الصوفى :

قطع الطريق الصوفى المؤدى الى الحضرة العلية ، أمر يعجز عنه العقل ؛ ذلك أن هذا العقل عاجز عن ادراك سر المخلوقات وكنهها ، فما بالك بادراك سر الخالق وكنهه ؟ !

ولا يتم هذا الأدراك لدى العطار - الا عن طريق العشق الصادر من الذات الالهية ٠ وهو طريق مضنى طويل ٠ قسمه المتصوفة الى منازل ومقامات ، ونذكر هنا على سبيل المثال تقسيم كل من الطوسى صاحب كتاب

---

(١) البيت رقم ٣١٤٣ - ٣١٤٤ ٠

(٢) الابيات ٣٥٣٩ وما بعدها بديع محمد جمعه : منطق الطير ص ٤٨ ٠

« اللمع » ، والكلاباذى صاحب كتاب « التعرف لمذهب أهل التصوف » (١) ٠
فقد أورد الطوسى سبع مقامات وعشرة أحوال ٠ فأما المقامات فهى :

التوبة ، الورع ، الزهد ، الفقر ، الصبر ، الرضا ، التوكل ٠

وأما الأحوال فهى :

المراقبة ، القرب ، المحبة ، الخـــوف ، الرجاء ، الشوق ، الأنس ، الطمأنينة ، المشاهدة ، اليقين ٠

أما العطار ـ فقد أطلق على تلك المنازل ما أسماه بالأودية ، وهى فى رأيه سبعة :

١ ـ وادى الطلب ،
٢ ـ وادى العشق ،
٣ ـ وادى المعرفة ،
٤ ـ وادى الاستغناء ،
٥ ـ وادى التوحيد ،
٦ ـ وادى الحيرة ،
٧ ـ وادى الفقر والفناء ٠

وهذا الأخير يمثل نهاية المطاف ، حيث يفنى السالك فى الذات ، وتصبح حركته كحركة القطرة ، بعد أن اتحدت مع البحر ، انها غاية السالك ونهاية الطريق (٢) ٠ وقد تأثرت الكاتبة النمساوية فى كتابها الذى نحن بصدده بما ذهب اليه العطار فى وصفه لتلك الأودية ، حينما تعرضت لوصف رحلة الطير بقيادة الهدهد الى السيمورج ٠

---

(١) أبو نصر الطوسى ، اللمع ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٦٥ وما بعدها ، قارن أيضا الكلاباذى ، التعرف لمذهب أهل التصوف ، القاهرة ، ص ٩٢ ٠
(٢) قارن : أحمد معوض ، فريد الدين العطار ، ص ٤٣ ٠

٥ ـ الفنـــــاء :

الفناء الصوفى لدى العطار هو الحال التى تتوارى فيها ذات الانسان ؛ حيث لا يرى فى الوجود غير الحق وفعله وارادته ٠

هذا الفناء فى الله ، له صوره المختلفة لدى الصوفيين بل قد يختلف لدى الصوفى الواحد حسب أحواله ومقاماته ، وما يهمنا هنا هو ما تعرض له العطار فى منظومته « منطق الطير » ، والتى تأثرت بها الكاتبة عن قرب ، وذلك على النحو التالى :

١ ـ تشبيه فناء السالك فى الله بفناء القطرة فى البحر ٠

٢ ـ تشبيه فناء السالك فى الله بفناء الظل فى الشمس ٠

« وفى النهاية فنوا فيه على الدوام » (يعنى العطار هنـــا لقاء الطير بالسيمورج فى نهاية المطاف) « كما يفنى الظل فى الشمس والســلام » (١) كذلك يسهب العطار فى هذا الشأن حينما يجيب بلســان الحق تعالى على سؤال ذى النون (٢) عن حال من يقتلهم الله :

« اننى أقتلهم ، حتى اذا فنى السالك تماما أسير له شمس وجهى ، وألبسه ثوبا من جمالى ، وأجعله ظلا فى طريقى ، فاذا أشرقت شمس وجهى ، فكيف يستطيع الظل أن يبقى فى طريقى ، واذا تلاشى الظل فى الشمس ، فهذا هو الفناء » (٣) ٠

كما يرى العطار ـ الفناء ـ بمعنى التحول الى النور ، ويدلل على

---

(١) بيت رقم ٤٢٣٠ منظومة منطق الطير ص ٥١ ٠

(٢) هو ذو النون واسمه ثوبان بن ابراهيم المتوفى ٨٥٩ م وكنيته ابو الفضل ولد بأخميم فى صعيد مصر ٠ وتتلمذ على مالك بن أنس وعنه أخذ مذهبه وقيل انه بعد موته وجد على قبره كتابة بخط غير آدمى : « ذو النون حبيب الله من الشوق قتيل الله » وكلما محا الناس هـــذه العبارة وجـــدوها فى اليوم التالى ، قارن : « جامى ، نفحات الانس تعريب النقشبندى مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢١٧٥٧ بتاريخ ١٠٠٠ هـ ٠

(٣) البيت رقم ٢٥٥٣ وما بعده ، منطق الطير ص ٥١ ٠

ذلك بجهد الفراشات (ومحاولاتهن ادراك نور الشمعة عن طريق الرؤية أو الطواف) اللاتى لم تنجح منهن الا واحدة هى التى ألقت بنفسها فى نـــار الشمعة ، واحترقت عن آخرها ، وصارت نورانية ، وبذلك أصابت هدفها وادركت الفناء الحقيقى من منطلق خروجها عن طبيعة تكوينها ، وتحولها الى نور هو نور ذات الشمعة ٠

وأخيرا يشبه العطار الفناء بالمرحلة التى يتحول فيها المحب الى شعرة، حيث يردد الشيخ لأحد مريديه :

« امض الى الفناء دائما ، حتى تفنى نفسك فى العشــق تماما وعندما تصبح كالشعرة فى الضعف ، فأليق مكان بك طرة المعشوق وكل من يصبح كالشعرة فى محرابه ، فانه يكون بلا شك شعرة من شعره » (١) ٠

واعتبر العطار هذا الفناء بمنزلة البقاء الذى هو أكبر من أن يصفه خيال آدمى :

« بعد أن انقضت أكثر من مائة ألف قرن ـ أسلمت الطير أنفسها الى الفنــــاء ، وما أن غاب الجميع عن رشـــدهم ، حتى ثابوا ثانية اليـــه ، وتقدموا الى البقاء ، ولكن ليس لأحد قط من المحدثين أو الأقدمين أن يتحدث عن ذلك الفناء وذلك البقاء ٠ فشرح ذلك بعيد عن الوصف وأنى للانسان أن يستطيع شرح البقاء بعد الفناء (٢) ٠

بهذا العرض الموجز ـ نرجو أن نكون قد وفقنا الى جلاء أهم أفكار العطار فى منطق الطير ، والتى يمكن من خلالها فهم الكثير مما تعرضت له الكاتبة النمساوية فى كتابها :

« توارى الظلال فى الشمس » ٠

أما عن التصوف بعامة : نشأته ، معناه ، تصوره ، فقد تعرضنا له فى مبحث سابق بعنوان :

---

(١) البيت رقم ٣٩٣٧ وما بعده ، منطق الطير ص ٥٢ ٠

(٢) البيت رقم ٥٢٤١ وما بعده ، منطق الطير ص ٥٣ ٠

"Versuch einer kritischen Analyse zum Bild der islamischen Mystik in Barbara Frischmuths Roman "Das Verschwinden des Schattens in der Sonne"(1)

٤ ـ قطوف من « توارى الظلال فى الشمس »

تمثل رواية باربرا فريشموت « توارى الظلال فى الشمس » نقطة تحول جوهرية ، فى تطور الكاتبة الأدبى ، فقد اكتسبت من خلال ممارستها المبكرة لقراءات وترجمات بعض الأساطير التركية القديمة على صقل مهاراتها الأدبية، فى وصف الأمور والأحداث ، وصفا دقيقا ، ونحن هنا أمام بطلة مجهولة الاسم ، تقوم بدور الراوى للأحداث ، محاكية دور الببغاء فى كتاب « توتى نامه » الذى سبقت الاشارة اليه • وتخبرنا هذه البطلة فى شىء من الاثارة والانبهار عن زيارتها كطالبة قادمة من وطنها « فيينا » الى مدينة « استانبول » بهدف استكمال رسالة علمية لها عن تاريخ احدى طرق التصوف الاسلامية ـ الطريقة البيكتاشية •

وفى استانبول ـ تعيش الفتاة الأوروبية مع المعلمتين التركيتين الشابتين « سيفيم » ، « وآيتين » ، ومع الطالب ذى الميول السياسية المتطرفة « تورجوت » •

وهناك أيضا تجد نفسها فى مواجهة مستمرة مع القديم والحديث الذى لم يسعفها فى أن تجد منه مدخلا الى فهم الحاضر :

> « لقد تصورت أنى سأجد فى الماضى مفتاح الحاضر وحاولت من خلال البحث عن الأصول والجذور أن أتغلب على غربتى وأن أفهم نفسى • ترى أكان ذلك بسبب أن الخوف قد تبدد فيما حدث فى الماضى ، وليس هناك من سبيل لتغييره ، رغم تقليب الأفكار جيئة وذهابا فى مخيلتى ؟ ولطالما خامرنى احساس بأنى قد تطبعت جيدا على تلك

---

(١) مجلة كلية اللغات والترجمة ، العدد الثالث ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٣٧ـ٥٨ •

الأبنية التى أخذت أبحث عنها تباعا ، والتى أدخل وأخرج منها باطمئنان العميان الذين يتحسسون طريقهم عتبة عتبة منتهجة طريق المجمل الى المفصل » (١) ٠

ورغم سعة صدر البطلة ، وآمالها العريضة ، وصبرها غير المحدود الا أنها فشلت فى أن تجد مكانا لها فى هذا المجتمع ؛ لقد عاشت فترة غير قصيرة فى هذه البيئة ، ومع هذا أصبح من المحال عليها سبر أغوار أحبائها الذين عاشت معهم ، اذ تبين لها أن كل ما عرفته لم يكن سوى مجرد انطباعات عابرة ، حتى حبها لـ « تورجوت » أو « أكسو » لم يكن من القوة بدرجة تخرجها من هذا الموقف الصعب ، لقد خاب أملها ، ولم يعد أمامها خيار ٠ اللهم الا العودة الى أرض الوطن غريبة كما قدمت :

« لقد عرفتنا ، وعشت معنا ، وتهتمين بكل ما يتصل بنا ، أقصد كل ما كان يتصل بنا فى الماضى ، وتتحدثين بلغتنا ، وتعرفين الكثير من تاريخنا ، ولكنك بالرغم من كل هذا لا تنظرين حولك النظرة الواقعية ، ولا تدركين كثيرا مما يحدث ويجد من حولك ٠ ان لك نظرة خاصة تحسنين بها النظرة الى ماضينا أيما احسان ، أما حاضرنا فانه لا يعنيك أمره من قريب أو بعيد ٠ ما بالك لا تريدين أن تلتمسى لنا العذر ، لأننا نقوض منازل كهذا كى نقيم بدلا منها منزلا آخر ، يمكن أن يقام فى كل مكان فى الدنيا ٠ أنك لا تريدين أن تفهمى أذ، ليس هناك من بديل » (٢) ٠

وكما انسحبت خيبة الأمل هذه على حياتها الشخصية ، وعلى علاقاتها بالآخرين ، فقد انسحبت أيضا على دراستها العلمية ، لقد أدركت بداية النهاية لاقامتها فى استانبول ، حيث تفاجأ وعلى حين بغتة باغتيال صديقها « تورجوت » على يد الشرطة أثناء احدى المظاهرات الطلابية ، وذلك بعد

---

(١) ص ١٦٩ (طبعة سور كامب ، فرانكفورت : ١٩٧٣) ٠
"Ausgabe des 'Suhr-Kamp-Verlags' vom 1973"

(٢) ص ١٤٢ من نفس الطبعة ٠

أن طمأنها أنه قد ترك استانبول إلى مسقط رأسه بعيدا فى الشرق وتفاديا من أن يصطدم بالبوليس • هنا أدركت وأيقنت غربتها فى التقارب من أحبائها • وغربتها فى فهم دراستها • ومن هنا كان لا فرار لها من أن تحزم أمرها وتعود الى فيينا » الى وطنها ، وقد اكتسبت تفهما لأحداث كانت تمثل لها فى البداية ألغازا مبهمة • تفهما أكبر لطبائع وعادات شعب عايشته عن قرب ، شعب له حياته ، وله مشاكله وله قدره •

لقد بات لديها أن الحياة لم تكن كما تصورتها فى أحلامها وكما تصورتها من خلال اقامتها ، وانما بات لها أنها شىء آخر يختلف اختلافا كليا عما ظنت • ومن هنا لم يكن اخفاقها فى مهمتها هزيمة بقدر ما كان نصرا ، ولقد تعلمت الكثير من خلال هذا الاخفاق • واكتسبت الخبرات والمهارات والمعارف العديدة مما أثر فى نموها الروحى والفكرى ، وأجلى احساسها نحو الآخرين :

« لقد أتيت الى هنا لكى أنهى دراستى ثم أتمرن فيما تعلمت آنفا ، وكلما سألت نفسى ما الذى انجلى عنه هذا الأمر ، ستجد نفسى نذرا يسيرا • لقد قرأت كتبا كثيرة ، ولقد تعلمت التحدث باللغة • وتأملت معالم آثار قديمة وتعرفت على المدينة ، وعشت مع أناسها ، وكونت معارف وعلاقات • لقد نظرت حولى ولم أبد أية معارضة ، وواريت ملكة النقد لدى ، سائرة على درب التأقلم ، وكانت لى خبراتى التى باءت بالاخفاق • لقد تركت نفسى للظروف وأسلمت نفسى لعنان الهوى ، وأهملت أن أعرف ما حولى حق المعرفة ، لقد أمعنت النظر فى الظواهر وحدها ، ولم أفكر قط فى جواهر الأشياء • لقد تعلمت التعبير عن المشاعر بوضوح ولم أعارض قط أن أعيش حياة الآخرين » (١) •

ان هذا الكثير الذى تعلمته واكتسبته ـ لم يذهب جفاء بل بقى ومكث

---

(١) ص ٢١٩ نفس الطبعة •

فى أعماق مداركها بعد أن مس شغاف قلبها لقد تلاشت الآلام العارضة التى عايشتها من خلال هذه الأحداث . ولم يعد الأمر مجرد انطباعات وقتية . وانما تعدى ذلك الى أمور وقضايا كلية تخص مجتمعا بأكمله . لقد فتحت بطلة القصة بابا موصدا الى ثقافة غريبة عنها وعن ذويها .

لقد لعبت الرمزية دورا كبيرا فى هذا العمل الأدبى ، ربما أكثر من غيره من أعمالها الأدبية الأخرى . فتسرد الكاتبة هنا على لسان بطلتها ، مقدمة هذه الرمزية فى أمور قد تبدو للقارىء أنها عارضة كبحثها غير المجدى عن « سهيلة » أخت أحد معارفها « محمود » الذى كانت تعرفه فى وطنها :

« ففى حوالى اثنى عشر موضعا بالقصة بدءا بصفحة ١١وانتهاء بصفحة ٢٣٢ (١) ، نجد بطلة القصة تبحث ـ دون جدوى ـ عن المدعوة « سهيلة » لماذا ؟
ولم تعطنا القصة أية اجابة .
ومن هنا كان لزاما الأشارة بأننا نرى رد فعل وسلوك « سهيلة » هذه تجاه ضيفتها بطلة القصة أمرا غير طبيعى . ولا يتفق مع تقاليد وكرم الضيافة فى الشرق »(٢)

لقد تعددت هذه الرمزية فى صور وأشكال عديدة يصعب على القارىء احصاؤها ولا يدرك المرء منها الا ذلك الخيط الرفيع الذى يربط الماضى بالحاضر والجوهر بالعرض ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

رمزية هدم منزل من طراز قديم ليحل محله مبنى حديث أكثر افادة ورمزية العنوان نفسه التى تعرضنا لها باسهاب فى كلامنا عن تأثر الكاتبة بأدب الشرق . ورمزية البحث المضنى فى أساطير بعض طرق التصوف ، ورمزية تاريخ مضى وأثره على حاضر شعب بأسره ، ورمزية الدراسة المثيرة التى لم يكتب لها النجاح . وأخيرا وليس آخرا رمزية الصدمة فى النهاية تلك

---

(١) صفحات نفس الطبعة المشار اليها .

2) Muhammad Abu-Hattab, Das Orientbild in Barbara Frischmuths Roman 'Das Verschwinden des Schattens in der Sonne' in : Oesterreichische Literatur in Aegypten.... a., a., O., 8. 34.

التى جعلت الأحداث أمام عينى البطلة تتوارى كتوارى الظلال فى الشمس :

« توارى الظلال فى الشمس ... الفناء ... بعد أن وصلت الطيور بقيادة طائر الهدهد الى الطريق المؤدى الى طائر السيمورج عبروادى الطلب ، وادى العشق ، وادى المعرفة ، وادى الاستغناء ، وادى التوحيد ، وادى الحيرة ، وادى الزهـــد ، وادى النسيان ، وادى الصم والبكم ، والفناء ، والذى توارى فيه مئات الآلاف من الظلال ، أمام شمس واحدة ... لقد وصلوا الى عرش السيمورج . ولقى الكثير منهم حتفه فى الطريق ولم يدرك الهدف الا ثلاثون منهم بالمثول بين يديه ، وجلسوا على وسادة القرب وتعرفوا من خلال انعكاس ضوئهم على أنفسهم أنهم هم السيمورج ذاته . الـــذى تمثل فى ثلاثين طـــائرا وكلما أبصروا السيمورج ، أبصروا أنفسهم . وكلما أبصروا أنفسهم أبصروا السيمورج . فاذا أبصر كل منهم الآخر فى نفس الوقت ، فلا يرون الا «سيمورجا» واحدا . حيث تواروا فيه واتحدوا به . وهكذا توارى الظل فى الشمس ، وقضى الأمـــــر » (١) .

ان قضية النمو الداخلى لبطلة هذه الرواية لأمر يحدوه معاناة نسبية اذ تبدو الأحداث كأحلام ، لكن سرعان ما تنجلى ضرورتها لهذا النمو ولهذا الوعى . فالبطلة هنا ليست مجرد انسان قابل للتغيير فقط من خلال تفهمها العميق للأحداث ، ولكن أيضا من خلال قدراتها ومهاراتها الجـــديدة التى تكتسبها من هذه الأحداث :

« لقد تغير احساسى بالحياة لدرجة أنى خلت نفسى وكأنه بوسعى أن أسلم نفسى للأمور التى تحيط بى وأضـــحت امارات العطف والرقة التى تحملتها آنفا بغرض التأقلم (وان كنت فى الداخل كمن يضمد جراحه على نصل غمده)

---

(١) ص ٢٢١ من طبعة سور كامب ، فرانكفورت ١٩٧٣ .

أضحت هذه وتلك غير ذى بال عندى • فلم أقم لها وزنا •
وغدوت أرد عليها بمثلها من واقع البداهة • كما لو كانت
ثمة امكانية لكى أزيل الحواجز بينى وبين الآخرين مع
مرور الوقت » (١) •

لقد قدمت بطلة الرواية الى استانبول يحدوها حماس منقطع النظير للتعلم والدراسة ، وتحمل بين جنباتها كل النوايا الحسنة فى رؤيتها لطبائع الناس • وتقاليدهم وتاريخهم وثقافتهم •

ومن هذا المنطلق كان حبها العميق لـــكل من التقت بهم • حبها لـ « تورجوت » و « أكســـو » و « ســـيفيم » و « آيتين » و « انجن بـك » و « تاتارية » • لقد ملك عليها حبها هذا لهؤلاء جميعا درجة دهشت لها هى نفسها حتى كادت تظنها حلما • ومن هذا المنطلق أيضا غضت نظرها عن كل ما هو قبيح ، عن البؤس ، وعن الفقر وعن الضجيج •

لقد انبهرت بكل شىء رأته • وبكل أسطورة سمعتها ، لم يكن يعنيها الحاضر السياسى كثيرا ، حتى تيقظت اليه بعد اغتيال « تورجوت » المفاجىء والذى نزعها نزعا من حلمها الوردى الذى عاشته وأخـــذت تتفطن لمعنى الأحداث تاركة استانبول غير نادمة •

لقد كان مقتل « تورجوت » بمثابة الصدمة الكهربائية التى أزاحت الغشاوة من على عينها ، مبعدة الكابوس الجاثم على صدرها مغيرا من مفاهيمها • ناقلا بها الى عالم جديد ، ولقد عبر الدكتور « هاينز جشترين » عن هذه النهاية بقوله :

« لم يكن كتاب « فريشموت» أو طريق التصوف الاسلامى
هو نهاية المطاف ، لقد كان الالتجاء الى الله هو عودة الى
كل ما هو انسانى فى صورة ثورية جامحة • ومن هنا يبرز
الدور التاريخى والأهمية الكبرى الحالية لعلم التصوف ،

---

(١) ص ٢٠٠ من نفس الطبعة

> الذى هو من وجهة نظرنا نظام مفاده أن كل ما هو روحى وعقلانى يجد نفسه فى أصدق تعبير فى كل ما هو جسدى ، أى بمعنى أنه نظام لا يمكن أن يمر عليه الانسان مر الكرام ، فالانسان ليس سوى بشر فى مجتمع يعيش فيه بأعضائه ، وأمراضه وتوافقاته · ان عالم التصوف يرى الله ونوره ليس فقط فى أرواح وعقول البشر وانما أيضا فى صورهم وأجسادهم · ومن هنا لم تكن مرحلة الفناء عند « باربرا فريشموت » التى أيدتها بالايجاب فى ختام روايتها هى نهاية المطاف ولكنها عود على بدء الى معترك الحياة بكل ما فيها من ضراوة وقسوة » (١) ·

ان ما انتهت اليه باربرا فريشموت هـــــذا يرجعنا الى تساؤل الكاتبة المستمر عن سر تلك القوة الكامنة للتصوف الاسلامى ومريديه · ودون أن تجد لتساؤلها هذا جوابا شافيا · ولعل جوابنا على استفسار الكاتبة الذى كثيرا ما راودها ، هو أنه بعد أن انتشر الاسلام شرقا وغربا · وبعد أن لحقت ببعض مجتمعاته فترات قلقة غير مستقرة ساد فيها الاضطراب وفساد الأخلاق ، وانعدام الفضائل وبروز الجفاء والعداوة والتعصب والتطاحن فى كثير من أمور الدين والعلم · فى هذا الجو الكريه الذى زعزع حياة الناس وهز من قيمهم أخذت الاتجاهات الصوفية فى الظهور ووجدت طرقها حقلا خصبا بين الطبقات العاملة والفقراء الذين سرعان ما انضموا الى صفوفها مما أدى الى رفع شأن رجالها بين العامة والحكام على السواء · وراحت تعاليمهم تدعو للاصلاح والعدل ، مما جذب أولئك العامة وبهرهم · سالكين طريق الصفاء والانجذاب الى حب الله جل وعلا والتقرب اليه بانتهاج الورع والتقشف والزهد فى دنيا زخرفها الى زوال وعمارها الى حطـام ودوامها الى فناء (٢)

1, Gstrein, Heinz, Das Verschwinden des Schattens in der Sonne, —Religionssoziologische Einsichten und Anliegen im poetischen Werk von Barbara Frischmuth, in : Oesterreichische Literatur in Aegypten, ... a., a., O., S. 45

(٢) لمزيد من التفصيلات أنظر مقالنا عن التصوف :
Muhammad Abu-Hattab, Versuch einer kritischen Analyse ... a., a., O., S. 37-58

هذا ـ ولم تنس الكاتبة النمساوية فى روايتها هذه أن تعالج القضايا الاجتماعية ، التى عبر عنهـــا الـــكاتب الألمــــانى « فرانس فيمان » (١) "Franz Fühmann" بأنها تمثل قضايا أســاسية ، على الأدب أن يتعرض لها وأن يعالجها ، مقترحا الحلول الممكنة ٠

واذا كنا نحن نقيم هذا العمل الأدبى لهذه الـــكاتبة النمساوية بأنه « اسهام عظيم القيمة لتعميق عرى الصلات الثقافية بين الشرق والغرب » ـ فانها الحكمة التى هى ضالة المؤمن المسلم ينشـــدها أينما يجدها ٠ كذلك امتدح الكاتب الألمانى المعاصر المذكور عاليه هذا العمل الأدبى وانتقى له مكانا مرموقا فيما أسماه بالأدب الثورى الذ ىيمثل ـ من وجهة نظره ـ أعظم أدب جادت به السنوات الأخيرة من هذا القرن ٠ وأن هذا العمل الذى نحن بصدده ـ يمثل بالنسبة له واحدا من أهم وأجمل الأعمال الأدبية التى ظهرت بالألمـــــانية ٠

لقد حاولنا فى الترجمة لهذا العمل الأدبى بذل أقصى الجهد ـ وهو جهد المقل ـ مهتدين بهدى الله وتوفيقه ، الذى يؤتيه من يشاء من عباده ، محاولين نقل اللغة كما هى ٠ ملتزمين جانب الحرفية قدر الامكان ، ومتوخين السهولة وافراغ الروح العربية على النص الألمانى بقدر ما يحتمل وان كنا لا نتفق فى الكثير مما تعرضت له الكاتبة ، وقد أشرنا الى ذلك فى حينه وموضعه ٠ ونحن بهذا لا ندعى كمالا لهذا الانجاز ٠ فالكمال لله وحده وعلى الله قصد السبيل ٠

د٠ محمد أبو حطب خالد

القاهرة رمضان سنة ١٤٠٢ هـ

يوليــو سنة ١٩٨٢ م

1 Fühmann, Franz, Gedanken beim Lesen-Gespräch über Barbara Frischmuth, in : Sinn und Form, H. 2/1976 Berlin, S. 434

وأجاب الببغاء :

« مهلا يـا « ما هى شيكر » (١) ان الحكاية التى أردت أن أقصها عليك تتطلب وقتا طويلا ، وما أخالك الا أنه قد حان الوقت الذى تأوين فيه الى محبوبك ، انها حكاية لشد ما بها من نفع ، بيد أن بها شيئا من الطول ، وأن ما أخشاه هو أن أحول بينك وبين سبيلك ، ولا أريد أن أمسك بك ، ولهذا فلتذهبى الآن ، اذ فيما بعد سيكون هناك متسع من الوقت ، وحينئذ سأقصها عليك » · وسرعان ما ردت « ما هى شيكر » :

« أتوسل اليك ، لتقص الآن فانه يحلو لى الاستماع ، ويروقنى التعلم والاعتبار ! فبأى القصص ستبدأ ؟ » ·

وهم الببغاء بالحديث ··· يحكى أروع الأقاصيص ·

من كتاب الببغاء

---

(١) كلمة فارسية « ماهى » بمعنى « القمر » و شيكر » بمعنى السكر ، وتستخدم فى مقام الخطاب بمعنى « عزيزتى » ، والنص هنا مقتبس من الكتاب الفارسى : « توتى نامة » ، ومعناه « كتاب الببغاء » الذى يقوم فيه الببغاء بدور « الراوى » ·

تلك هى المدينة (١) • تلكم هى المدينة التى سأظل أحلم بها !

كنت أردد هذه الكلمات معظم وقتى ، وخيل الى ، كما لو أنى أجلس فى قطار قد غادرها لتوه ، أو كأنى قد وليتها ظهرى بالفعل ، وقد بات أنه باستطاعتى أن أبدأ فى سرد الحكايات الكثيرة التى سمعتها ، وعايشتها فى مخيلتى • وليس باستطاعة أحد أن يصوغها شعرا مقفى ، فهى ثرية بألفاظ تتطلب حذرا حتى يتضح ما قد يكون فيها من لبس ، وحتى لا تضيرنى الجمل ، وملابساتها بشىء • ولكم تمنيت ، أن لو كنت بعيدا ••• بعيدا جدا ، حتى صرت أحلم مرة أخرى بلغتى الأصلية وعندها لن تلعب الصور دورا ، فقد أصحو يوما ، وأتذكر ما مضى من الوقت وأنا أتناول فطورى ، وقد يبلغ بى الأمر بأن أخلط ما بين الأيام ، وربما ما بين الأشخاص أيضا ••• وسأناجى نفسى متسائلة ، عما كانوا يتكلمون آنذاك ؟ وفى النهاية ، سأرانى قد ولجت باب المغالاة ••• وربما ترن فى مسامعى نغمة معينة تضع كل شىء فى موضعه الصحيح ، وسأضع فى حسبانى ألا أبالغ فى الأمور ، فكثير من الناس يسافر من هنا الى هناك •

ولا زالت الأحداث فى تواليها ، والأيام فى كرها • وعندما أفقت من سباتى ألفيت نفسى فى المـــــدينة ، وكان يمر بالمنزل ساعتئذ تاجــــر « روبيبيكيا » (٢) ، ينشد بضاعته ، ثم بائع الزبادى • وأسرعت « سيفيم » حافية الى خارج البيت • ومضت اليه ، كى تصيب فى انائها شيئا مما فى أوانيه الثقيلة التى يحملها على كتفيه • ووضعت مياه الشاى على النار ، بينما دخل « تورجوت » الى فناء المنزل ، وهو يجر وراءه المقاعد التى أسندت الى جدار البيت ، فوضعها حول المنضدة ، ثم قطف ورقتين من نبـــــات « الريحان » كانت أم « سيفيم » قد زرعته فى احدى صفائح الزيت وفركها بين أصابعه وراح يشمها •

ودرجت بنا الأيام رتيبة وئيدة ، لا يغير من كرها شىء • فاتخذنا زادنا من « الزيتون والجبن الأبيض » • وكنا نجلس طوال اليوم فى الشمس التى ماكنا نبرح لها موضعا • وكان الوقت صيفا مبكرا قد عجل بارسال نذره •

---

(١) تعنى المؤلفة مدينة استانبول •

(٢) الحاجيات والمخلفات القديمة •

فكان صيفا قائظا ،لم تكشف عنه صفحة الأيام لسنين خلت ، أم لعلى خلت هذا ، لأنى ما عشت صيفا كهذا قط منذ ولدت • وكانت المياه شحيحة ولا مفر من تخزينها طيلة اليوم فى الأحواض والدلاء • وجعلت النسمات تداعبنا بعد أن تضل طريقها من « المضيق » (١) الى المدينة • فكانت تنقل الينا من الأبخرة المليئة بالتراب ما يبقى أثره عالقا بالأجساد المعرقة •

وكنا نخرج من المنزل سويا ، نظيفة أقدامنا ومجففة أيدينا ، ونعود فرادى مع شمس الأصيل أو قبيل المساء ، والعرق يتصبب منا بغزارة ، وتحمل ثيابنا بقعا سوداء • ومنذ أن سافر والدا « سيفيم » الى مدينة « بورصة »(٢) وأنا أتولى أحيانا مع « تورجوت » أمر شراء حاجيات البيت ؛ اذ لم يثقوا بى أن أقوم بهذا العمل وكان أقصى ما يخولونه الى هو شراء الخبز أو السكر من تاجر على بعد حارتين منا أما أن أشترى بمفردى بطيخة أو شريحة من اللحم الضأن فكان هذا أمرا غير وارد •

كان من أحب الأشياء الى نفسى ، هو أن أذهب الى سوق السمك ؛ فكان يروقنى أن أرى الأسماك ذات الحجم الكبير ، وهى طريحة فوق الثلج ، كالميت المشيع فوق الأعناق ، فى حين شدت ذوات الحجم المتوسط فى أربطة من السلك تمر بخياشيمها ، وعلقت وهى تبدو كربطة المفاتيح فى يد انسان • أما السمك الصغير فقد أودعوه صناديق خشبية ، ثم يأخذ البائعون منها ملء أيديهم • ومضيت اقارن ألوان السمك المختلفة ببعضها ، « السكمبى » (٣) مع « الكابوريا » و « الاستاكوزا » وأرقب الناس من كثب • أى السمك سيبتاعون ، وهل ما ابتاعوه من سمك يتناسب ولون بشرتهم ، وطفقت أرقبهم وهم يتحسسون السمك ، عندما يقدمه البائع أمامهم ، لكى يعاينوا بأنفسهم ما يحتويه من لحم مكتنز •

جعلت أنظر وأنظر ••• هل جربوا بأنفسهم واقتنعوا أن أثر موضع أصابعهم قد اختفى لتوه ــ مما يدل على اكتناز اللحم ــ أم مرروا السمك بالقرب من الأنف لكى يختبروا رائحته • فمن الناس من يطمئن الى البائع

---

(١) مضيق البوسفور •

(٢) مدينة تركية تقع بالقرب من بحر مرمرة •

(٣) نوع من الاسماك شبيه بالجمبرى •

وكفى ، ويرتكن الى اشارات يده ، ودلائل البشر التى ترتسم على محياه ٠ فتجدهم يقصدون أحد المحال، لا يلوون على شيء فيبتاعون منه ما هم بمبتاعيه٠ وفى عودتهم الى البيت يتطلعون الى بضائع الباعة الآخرين ، ثم يقارنونها بما اشتروه لأنفسهم ، ويمضون فى المقارنة ، حتى يتراءى لهم أنهم قـــد أحسنوا الشراء ٠

أما « تورجوت » فكان على نقيض هذا الصنف من الناس ، فهو لا يقتنع بشيء الا بعد أن يذرع السوق جيئة وذهابا ٠ وهو فى روحاته وغدواته يقف أمام كل دكان ، فيلتقط سمكة على الأقل ليختبر نصيبها من اللحم ٠ ويتم ذلك خلسة لئلا يلحظه البائع ، والا فان هذا البائع سوف يجتهد فى أن يعرض عليه بضاعته بوجه راض ، منفرج الأسارير ، ممــا يوقع « تورجوت » فى الحرج ٠ حتى اذا أتم هذا كله تراه مستعدا لدفع نقوده ٠

وكنت أذهب الى « حوانيت البازار » بمفردى فى أغلب الأحيان دون أن أشترى شيئا ٠ وكان لا يزال يشق على حتى ساعتئذ أن أحدد وجهتى فى المدينة ٠ أجل ! كنت أتعرف على الشوارع الرئيسية فيها ، وبعض محالها التجارية ، بيد أنه كان يعوزنى كل ادراك ووعى لنظام الشوارع المسقوفة ، والحوارى ، والدروب المعوجة ، والميادين الصغيرة ٠ وكنت بفطرتى وجلة أتوجس الخوف من الحرائق وكانت كلمة « النيران » تملأ قلبى رعبا ٠

ويمكن تصور « البازار » قبل رؤيته ٠ ولم أكن لأعرف فيما عسى أن يكمن السر ، لعله كثرة الحمالين الذين لا مندوحة من أن ينحيهم المرء عن طريقة ، أم لعله دوى المطارق فى ورش النحاسين ، أو ربما يكون السر فى هذا هو الكثير من « السقائين » وباعة عصير الفاكهة المثلج ، أو قد تكون نظرات الناس ذاتها التى توحى لك بشيء ما ، كما لو كانت صوب وجهة بعينها ٠ غير أنه لا يزال فى نفس يعقوب حاجة ، تشق صياغتها بالكلمات ــ حينما أتكلم عن قلب هذه المدينة ــ وقلت فى نفسى أن ما للمدينة للمدينة ٠ وقد يكون من الخطأ أن أقارنها بشيء حسى يجعلها غامضة مبهمة ، من أجل شيء قـــد يساء فهمه أصلا ٠ ولكنى منذ أن نطقت بهذه اللغة ، تلكم اللغة التى ترى روح الانسان وكأنها طائر ، منذ أن بدأت هذا ومثل هذه الصور لا تفارق طيفى وخيالى ٠

وشاء أن نلتقى جميعا فى حـــارة « الانتكخانة » « تورجوت » ، و « سيفيم » ، و « آيتين » ، و « أكسو » ، و « انجن بك » ، وزوجتـــه التتارية والملقبة « تاتارية » (١) ، وأنا • وجعلنا نتحدث طويلا عن المصادفة التى جمعتنا بدون موعد • ثم دخلنا مقهى خلف مسجد « باى زيد » • غير أن « أكسو » لم يمكث معنا طويلا ، فقد كان المرضى ينتظرونه فى المستشفى • وفى الحقيقة أنه لم يتغيب عن جماعتنا هذه سوى « سهيلة » ، تلك التى لم أكن قد تعرفت عليها بعد • ومن يدرى ! ربما كانت موجودة بالفعل وتجلس الى جوار منضدة أخرى ، دون أن أتعرف عليها •

وكانت « سهيلة » هذه أختا لصديق يدعى « محمود » وقد سبق أن ربطت بيننا مراسلات من قبل ، حتى أقصى عن البلاد ، ونقل الى أحد المعاقل العسكرية فى الشرق ، وربما كان من الميسور لى أن ألتقى بـ « سهيلة » هذه فعنوانها معى على أى حال ، وما على الا أن أذهب الى حيث تقطن • أما ما كان يدور بخلدى من أنى ربما أقابلها فى الشارع مصادفة ، أحسست بأنه أمر يلفظه المنطق السليم ، وكنت على يقين من أننى سأتعرف عليها — عندما ألتقى بها لأول مرة — على الرغم من أن صورتها التى كانت معى قد بهتت معالمها ، بعد أن أعفى عليها كر الأيام ، اذ كانت صورة من جواز سفرها ، وتظهر فيها « سهيلة » داخل معطف ثقيل تبرز ياقته من تحت وشاح تتشح به • وكنت أتصور « سهيلة » فى مخيلتى أنها ترتدى دائما معطفا شتويا ذا ياقة عريضة ، وتخيلتها تعبر ميدانا مكسوا بطبقة من الجليد ، أو تقف أمام طوابير محطة ، أو تحت أشجار منطقة « جمليجا » (٢) تقذف بكرات الجليد •

وكانت « التاتارية » — كعادتها — عندما تقص على طرفا من أقاصيص الحاج « بيكتاش » تقبض بيسراها على ساعدى ، أما يمناها فكانت تجعلها على مقربة من فمها ، لئلا يتسرب من قولها شىء الى الأســـماع • وكانت جفونها تحمل صبغا من أصباغ الزينة ، ويتدلى من أذنيها قرطان فضـــيان يزينهما هلال على أحدهما ونجمة على الآخر وطلب كل منا شايا ، ثم أخذت

---

(١) نسبة الى أصلها التتارى •

(٢) أحد أحياء مدينة استانبول •

هى قطعة من السكر ووضعتها بين أسنانها ، وجعلت تصب عليها الشاى حتى ذابت عن آخرها • ثم سألتنى « التاتارية » ، عما اذا كنت قد عرفت القصة بالفعل ، ولحسن الطالع أنى أجبتها بالنفى • وأكدت لى بادىء ذى بدء ـ كرأيها ـ أن « الحاج بيكتاش الولى » هو مؤسس الطريقة البيكتاشية ، وطفقت تقول :

ـــ عندما قدم الحاج « بيكتاش » من بلاد خراســـان فى طريقه الى الأناضول ، نزل ضيفا على شخص يدعى « ادريس خوجة » (١) واتخذ من بيته ســكنا ، ويقول كثير من الناس أنه كان يقطن عند « قادنتشاك (٢) أنا » زوجة « ادريس » هذا ، لأنها رأته فى أحلامها من قبل • ويكاد البعض يقطع أن « قادنتشاك أنا » كانت تكن له كل اجلال ووقار • ويقول الكثيرون أنها قد وهبت نفسها له ، فى حين يرد الآخرون مدعين أنه لم ينل منها شيئا • ولكن المنقول والمتوارث هو أنه ساعدها فى أن تنجب بنين • وبعض الناس يقولون أن هذا قد تم بمس من معجزاته • وأن البنين فى الحقيقة هم أبناء « ادريس » • ويرد عليه النفر الثانى بأن مس المعجزة هذا هو وحده ما خرج من أصلاب الحاج « بيكتاش » ومن هؤلاء « سارو » ـ أخو ادريس ـ الذى لم تصرفاه معجزتان خارقتان عن اقتناعه هذا •

ولم يكن هذا ليدوم طويلا ، فقد اصطحب « الحاج بيكتاش » أخاه « سارو » يوما معه فى نزهة قصيرة • وكان الوقت شتاء ، والجليد يكسو وجه الغبراء • وبينما هما سائران ، طلب الحاج « بيكتاش » من « سارو » أن يأتيه بثمرتين من ثمار الفاكهة ورفض « سارو » هذا الطلب • حيث أن الوقت لم يكن أوان هذه الثمار ، كما أنه استعظم على نفسه أن تستأمر من انسان ، يوقن منه فى قراره أنه انتهك عرض زوجة أخيه • ولما رأى الحاج « بيكتاش » منه اعراضا ونفورا ، صعد بنفسه على الشجرة ، وبمجرد أن اعتلاها لم تلبث أن تحولت فى الحال الى شجرة مثمرة تتدلى من أغصانها ثمار التفاح • ووقف « سارو » أسفلها يرمقه ببصره ، ووقـــع نظره على ما تحت سترته ، وما رآه منه ، أزال من قلبه كل شك وريبة ؛ فقد أبصر وردتين متدليتين ، احدهما بيضاء ، والأخرى حمراء مكان الخصيتين • ولم

---

(١) كلمة فارسية وتعنى « المعلم » فى العربية وتستخدم فى الخطاب •

(٢) « آنا » تركية الاصل ومعناها « السيدة الام أو السيدة الجدة •

يسع « سارو » عندئذ الا أن يقلع عن شكوكه فى الحال ، وعدم تصديقه اياه بل أصبح واحدا من مشايعيه . بيد أن هذا كله لم يغن عنه شيئا اذ قـــد فات الأوان . فعلى الرغم من هذا ـ دعا عليه الحاج « بيكتاش » باللعنة والهلاك فى العالمين معا . دعا عليه ألا يجد دواء يشفيه من سقمه ، حيث انتفخ جسده ، واستشرت فيه البثور ، وسال منه الصديد . ودعا عليه أن تهلك ذريته بهذا المرض اللئيم ، وألا يعاودهم الشفاء ، بعد أن اعتلاهم السقم ما عاشوا ، فليحملوا أكفانهم على أيديهم حتى تنقضى الآجال .

ولما فرغت « تاتارية » من حكايتها ، وددت أن أعرف منها من أين لها بهذا المعين الذى تستقى منه أقاصيصها ، فندت عنها ضحكة طويلة .

وقلما كنت أذهب الى الجامعة وما انفك الجميع يسألوننى عن عملى غير أنى كنت أجيب دائما بشىء آخر . ولم أبح بالحقيقة لأحد سوى « انجن بك » ـ أستاذى ـ ولا جرم أنى كنت أعرف المادة العلمية التى أود دراستها ، غير أنى لم أستطع أن أحدد بعد الوجهة التى سأسير عليها ، والنقطة التى سأنطلق منها فلم أكن قد اهتديت الى قضية بعينها أصوب اليها اهتمامى ، فضلا على أنى كنت لا أعرف ما الذى على أن أبرهنه أو أثبته .

وهمت « أيتين » و « سيفيم » بالأنصراف . وتبادلنا تحية الوداع فى عجلة ، والعجب قد أخذ منهما كل مأخذ على أننا التقينا جميعا ، دون أن نضرب سلفا موعدا للقاء ،وبقى « انجن بك » و « تاتارية » جالسين فى مكانهما . وكانا فى الحق ينتظران قدوم شخص يبدو أنه قد تعمد أن يأتى متأخرا ، أو لا يأتى على الاطلاق . وراحا يتضـاحكان ، كلما انتقلت دفة الحديث الى هذا الأمر .

وأخذنا نجوس عائدين أدراجنا عبر حارة « الانتكخانة » ، واصطحبنى « تورجوت » شطرا من الطريق ، ونقلنا أقدامنا الى أحد الحوانيت حيث توقفت أمامه عن المسير ، ومضى « تورجوت » يمشى . وسرح بصرى وراءه ورأيته وهو ينزل درج سلم ، جاعلا وجهه الى حارة « النحاسين » دون أن يلتفت وراءه ، وعرج الى شارع « الانكشارية » .

ووقفت أنا تحت أشعة الشمس الساطعة ، وشرعت أرقب ديكا وديعا

أبيض ، كان يقف فى ظلال احدى المناضد المحملة بأكداس من المجـــــلات القديمة ، والكتب التعليمية المستعملة المعروضة للبيع · وأخذ ينبش التراب بمنقاره · وكانت الحارة تغص بالثلاثين سائحا · وبدا من أمرهم أنهــــم يكونون مجموعة واحدة وجعلوا يستديرون بوجوههم ، بين الفينة والأخرى، الى امرأة تقودهم بصوتها · وتسمرت مكانى ، فى باب «الحانوت » كى لا يدفعوننى معهم دفعا · ومنيت بضربة من عدسة آلة تصوير ، واعتذر لى صــــاحبها بالفرنسية ، ولكن ما أن هممت بالرد عليه ، حتى ألفيت نفرا آخر من رفاقه ، يمرون بى ـ وقد لوحت الشمس بشدة أكتافهم ، وتورمت أعينهم ـ خلف هذا الذى لم يتوان فى مسيره ، ولم أعره اهتماما ·

وملئت نفسى رعبا من الشبه الباقى الـــذى يقوم بينى ، وبين هؤلاء الغرباء · الشبه فى تلهفى على رؤية كل شىء · الشبه فى طموحى فى أن أكون قد قطعت كل طريق ، ولو مرة ، والشبه فى أن ألقى نظرة على كل شىء ، كما لو كنت لم أقطن المدينة من قبل ، وصرت كمن يجوبها بغرض النزهة فقط · فقد كان كل همى ، هو أن أراها أمامى صقعا صقعا مرأى العين ، وأن أعرف أين كنت ، ومدى البعد من هنا الى هناك ! ! وأى اتصالات تربط ما بين هنا وهناك ! !

وكانت لدى عدة خرائط للمدينة ، وقد وضعت فوقها علامات للشوارع المعلومة ، وجعلت أرسم عليها صلبانا ودوائر تحت أماكن بعينها ، كل على حسب ما يحمل من أهمية بالنسبة لى · وذات مرة قادتنى قدماى الى سور المدينة ، دون أن أعقد النية على قطع الطريق من « القرن الذهبى » (١) الى بحر « مرمرة » وان كنت قد سلكته بالفعل جزءا جزءا ، ودرجت فى سيرى ، الى بائع الكتب القديمة وحيانى الرجل باسمى · وقد وضع كتبا فوق بنك الحانوت · وأخذ الرجل يوسع ما بينها بمقبض ، حتى بدت أمامى كالمروحة ، واقتعدت كرسيا · ومددت يدى لأتناول أحد الكتب ، ثم بدأت أتصفحه وظل الرجل يأتينى بكتب جديدة ، وألقى بأحدها فى حجرى ووقعت عيناى على صورة ذات اطار ذهبى لم يكتمل طبعه · وهى عبارة عن صورة فى وسطها رأس على هيئة حرف الهاء العربى شقت فى داخلها عينان ينهمر منهما بحر

---

(١) منطقة تشبه « القرن » وتقع مباشرة على مضيق البوسفور ·

من الدموع • وفى وسط هذا البحر تكونت جزيرتان ، ترعرعت على أديم أرضهما أعشاب متفرقة ، وشجيرات مختلفة • وعلى كلا جانبى هاتين العينين الباكيتين تضطرم نار من جبال ملتهبة • وخلف هذا المشهد تكورت سلسلة جبلية سوداء ، ذات طبقات متعددة ، مزدانة بحروف ملونة ، وقلب يخترقه سهم نافذ • وترتفع على الجزيرة اليمنى من بحر الدموع حرف « ألف » شامخة ، يتصاعد منها دخان يومض بلهب من النيران وشمس سوداء تنحدر الى المغيب خلف احدى قمم الجبال تشق بأشعتها الذهبية عنان السماء التى يبزغ فيها ــ على مقربة من همزة الألف ــ هلال أسود •

وكانت هذه الصورة تحمل اسما خاصا بها ، ويراها المرء على أشكال متعددة ، وقرأت التعليقات الكثيرة ، والنصوص الموضحة لها ، وألفيت معظمها مجرد افتراضات واهمة ، بيد أن هناك أمرا واحدا ، لا يمكن تجاهله الا وهو الرغبة فى اظهار كل شىء مكتوبا ، فالحرف يظهر قدسية الصورة ، لكى يحميها من أن تنالها يد عابثة •

واستلهم بائع الكتب القول :

ــ ان كل هذه الأشياء تقوم على أساس خاطىء ، فالنبى محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذاته لم يقل بتحريم الصور • وكل ما فى الأمر هو أن الملائكة لا تدخل بيتا معلق على جدرانه صور • والصور لا يضيرها شىء اذا كانت ملقاة على الأرض •

وثمة مجموعات مختلفة من الصور ، منها ما لا يرقى اليها الشك • وهى تلك التى تصور أشياء ، كالمساجد ، والسفن ، والفنارات ، والجرار وعمائم الدراويش • فما هى الا مجرد تخطيطات منمقة • ثم تليها صور الطيور ، والأسود ، والجمال ، والأسماك ، ومنها ما يرتاب فى أمره وهى تلك التى تكون فيها وجوه بشرية •

وعقب البائع قائلا :

ــ لقد عدنا نعطى ماضينا اهتماما متزايدا ، فنحن نستمد تراثنا من

صور ، وأدب الدراويش ، أكثر مما نأخذ من الرسومات المصـــغرة وأدب الديـــوان ٠

وأبديت اهتماما بهذا النوع من الكتب ٠ ووعدنى صاحب الحانوت بأن يسجل اسمى عنده ، وأنهى الى مسامعى أنه لديه زبائن آخرين لهم نفس الميول ٠ وسألنى الرجل هل باستطاعتى أن أقرأ الكتابة القديمة ؟ فأجبته :

ـــ نعم ! أستطيع قراءتها بمجرد أن أعرف الكلمة الأولى ٠

وأشار الى لوحة معلقة ، على الحائط بخيط مثبت بمسمار وهى تمثل « بسملة » مكتوبة بخط مزخرف ، كتلك التى كنت أراها معلقة فى السيارات ، وتعرفت عليها فى التو ، ككل مجمل أسرع مما لو كنت استطعت أن أقرأها حرفا بحرف ، فرددتها له فى بطء شديد ٠ فما لبث أن ربت الرجل على كتفى قائـــــلا :

ـــ ما شاء الله ! ما شاء الله !

وما أن عدت أدراجى الى البيت ، وجدت « سيفيم » كالعادة هناك ٠ وتلاقت قبلاتنا ، ثم دخلت من فورى باب الحمام ٠ وكنت أمتلك اناء خاصا بى للاستحمام ، مصنوعا من النحاس الأحمر تعلوه طبقة من القصدير ٠ وكان لدى أيضا حذاء خاص بالحمام يتكون من نعل خشبى سميك ، مثبت به من أعلا شريط جلدى فوق اصبع القدم اتخذ من اطار السيارات القديمة ٠ وكنا نقضى أمسياتنا فى صحن الدار ٠ واذا لم يعد « تورجوت » حتى بعد هزيع الليل ، كنا نتناول طعامنا ٠ وكانت « سيفيم » تجهز له شيئا من الطعام و « تورجوت » ينحدر من احدى المدن الصغيرة الواقعة فى الشرق وتربطه بـ « سيفيم » وشائج قرابة ٠

وكنت أقوم فى بعض الأوقات بتعليم « سيفيم » الألمانية ٠ لكننى كنت أعلمها الألمانية على كره منى ، لأنها سرعان ما كانت تتجهم دلائل وجهها وتنقبض أساريرها ، كلما قومت لها خطأ ٠ وكانت ترثى لنفسها عدم طول باعها فى تعلم اللغة ، وكانت تود أن لو استطاعت أن تقوم بتعليم الألمانية بعد الالمام بها ٠

وبين هذا وذاك ، كنا نتناقش حول أمر المنزل · فقد نمى الى أسماعنا ما فحواه أنهلا بد من ازالة هذا المنزل لكى يضيف وسعا الى أحد أجنحة مستشفى « جورابا » · ولما علمت « سيفيم » بهذا الأمر ، توجهت بنفسها قاصدة ادارة المدينة ، لعلها تحول دون هدم المنزل ، غير أنها لم تلق هناك الا اللوم والعتاب · وقيل لها كيف تصل بها الجرأة أن تقف كفرد أمام تقدم الشئون الصحية فى مدينتها ، فى وقت تسعى فيه الأمة بأسرها الى اصلاح مسالب وأخطاء الماضى ، عساها أن تدرك ما فاتها من أمانى · وحرى بها أن تتدبر الأمر مليا ، فكيف أن منزلا يأوى أسرة واحدة فقط غير ذى بال ، اذا ما قورن بمستشفى جديد ، قد يتسع لمئات من المرضى ، ولعلها لا تدرى ما سوف تأتى به الأيام · فكم ستستفيد هى الأخرى ؟

وشعرت « سيفيم » بأن جبينها يندى خجلا ، لذهابها الى هناك وأطلقت على نفسها لفظة « المواطنة السيئة » وطلبت من تلميذاتها أن تكتبن موضوعا حول : « ما هو التصرف السليم الذى أسلكه حيال منزلى ، اذا لم يكن هناك مناص من هدمه لهدف اجتماعى ، على الرغم من أنه غير آيل للسقوط ؟ » ·

وكلما تناولنا هذا الأمر بالحديث ، انبرت « سيفيم » تحكى أشياء ترتبط بالمنزل ، بيد أنها على أى حال لم تعد تتمنى أن يبقى هذا المنزل بلا هدم ، ولم تعد تجرؤ على الافصاح عن هذا الأمر ، ولم يسعنى أنا الأخرى الا أنبس بحرف واحد يمس هذا الأمر ·

وكانت طريقة « سيفيم » فى اعتنائها بى والسهر على شئونى تجعلنى لا أبدى أية مقاومة ، فهى التى كانت تحدد وقت ذهابى الى الفراش ، وما أتناوله من طعام ، وما أرتديه من ثياب ولقد بدأت أتناول طعامى خارج المنزل مساء ، وحينما كنت أعود الى البيت ، كانت « سيفيم » تقابلنى حاملة بين يديها آنية بها من ورق العنب المحشو ، أو فطيرة محشوة باللحم المفروم · وتحملنى على أكلها حملا ، واذا ما رفضت لها طلبها ، ألفيتها ترد الآنية مرة ثانية الى المطبخ · ثم تحجم عن الحديث معى ، وكانت لا تكلمنى مرة أخرى الى أن أهب واقفة ، وأحضر الآنية من المطبخ من جديد ·

وكان لا يغيب عن ذهن « سيفيم » شيئا ، فهى قوية الملاحظة حتى لأى احمرار مفاجىء فى جسدى ، أو لأى لدغة من احدى الحشرات · فما تكاد

بوادر البثور تنتشر على قدماى ، حتى كانت تسعى لوخزها فى الحـــال ٠ وعندما أحول دون رغبتها ، كانت تود أن تعرف على الأقل من أين أعتلت قدماى هذه البثور ٠ وكنت أنا دائما أوجس فى نفسى خيفة من أن يكون هذا مجرد انتظار من جانبها ـ كالهدوء الذى يسبق العاصـــفة ـ حتى تباغتنى وتخزها ٠

وذات مرة ـ قابلتنى « آيتين » بالقرب من المدرسة التى تعلم بها هى و « سيفيم » ، ثم رافقتها جزءا من الطريق وجعلت وجهتى بعد ذلك صوب « المتحف الاسلامى » ، غير أنى عرجت الى مسجد « الســـليمانية » ووقفت أمامه ، فلقد كان قلبى متعلقا بهذا المسجد وهو مسجد كبير ، وعلى الرغم من هذا كان يخالطنى الشعور دائما بأن قبته ستطير فى الهواء يوما ما دون عناء ، كما لو أن تبلور القبة مع الجدران مجرد أمر عابر ٠ وكان المسجد أسطع نورا من غيره ، على الرغم من رطوبة جوه ٠ ولم يكن ثمة ما يصرف الانسان عن الطريقة المبنى بها ٠ كما لم يكن يحتوى بين جدرانه على حلى خاصة أو قيشانى نادر الوجود ٠ ولم تكن بين طنافسه واحدة تلفت النظر اليها ٠ والأمر سهل لأن يقف المرء هناك ، ويملى نظره منه دون أن يعترض نظرته شىء ٠ وكنت منهكة، وأردت أن أنال قسطا من الراحة ، ولم يكن هناك من أثر لآدمى يرى ٠ واقتعدت الأرض وأســـندت ظهرى الى أحد أعمـــدة المسجد ، ووضعت ساقا فوق الأخرى فى ارتخاء ٠ ويبدو أنه قد أخذتنى سنة من النوم فقد أحسست فجأة أن شخصا ما يهزنى ٠ ولما فتحت عيناى ، أبصرت سيدتين تجلسان القرفصاء بجوارى ٠ وقدمت احداهما لى كوبا من الشاى فأخذته ،وكان ساخنا جدا ، حتى أنى لم أستطع أن أطبق عليه يدى ٠ وانبرت السيدتان تضحكان ، وأشارتا الى « براد شاى » به ماء يغلى ، ثم انخرطتا تثرثران معى ، دون أن تنتظرا منى ردا ٠ وشكرت لهما صنيعهما بعدة جمل ٠ غير أن هذا لم يصرفهما عن اقتناعهما من أننى قد أكون أجنبية ، وليس باستطاعتى فهم لغتهما ٠

وأحسست أيضا فى قرارة نفسى أن الكلمات التى تلفظت بها لم تكن لبقة بالمرة ، فلم أر بدا من أن أترك زمام نفسى لاشارتهما ، ورطانتهما ٠ فسعيت الى أن أمدح مذاق ولون الشاى بكلتا يدى ٠ ونشأ بيننا على هذا النحو نوع التفاهم العام ، كهذا الذى ينشأ فى ظل ظروف التفاهم المحدودة ٠

وبينما هما تطلبان الى بايماءة الرأس ، أن أحتسى كوبا آخر ، تهامستا فيما بينهما على لون عينى ، وعلى ثوبى ، وراحت السيدتان تحدسان من أى البلاد أتيت ، وضاحكتانى ، ثم أشارتا الى يدى العــــارية وأظهرتا لى خاتم زواجهما ، ثم ربتتا على صدرى وكتفى ، وكانت ظهور أيديهما تحمل آثارا من « الحناء » وجعلت أقلب رأسى وأمعن النظر فيما عساى أن أهديهما • بيد أنى لم أجد شيئا سوى « كارت » مصور للمكان الذى ولدت فيه ، كنت أحتفظ به دائما معى لما طبع عليه من صخور جليدية (١) ، وحددت لهما مكان منزلنا عليه ، ثم أعطيته اياهما • وفى نفس الوقت فتحت حقيبتى ، حتى أبين لهما أننى لا أحمل معى شيئا آخر سواه • وأمسكتا طرف الكارت بأيديهما وهما تحاولان افهامى أن ثمة هناك صخورا جليدية فى بلاد الأناضــــول أيضا • وأحسست بعد ذلك وأنا فى الشارع ـ بشىء يحتك بساقى وانحنيت وأدركت أنهما قد علقا شيئا بثيابى ، وكان ذلك عبارة عن درة زرقاء ، قد ثبتت بدبوس ، وزعمتا أن هذا للحفظ من المكاره • وودت أن أعـــود حتى أشكر لهما صنيعهما • ولكن ما أن استدرت بظهرى حتى رأيت مجموعة من السائحين تلج فناء مسجد « **السليمانية** » •

لقد حاولت أن أتلاءم بالعيش هكذا ، كما لو أننى أراقب عن كثب نظام العلاقات المختلفة التى أعيش فيها ، ثم أتقبله ، فحاولت ما استطعت تجنب الأخطاء الكثيرة ، بالرغم من أنه بات معلوما لدى أنى قد أقدم على بعض منها ، وليس لأنى أكون قد شرعت فى هذا من نفسى منذ البداية ، ولـــكن سبب ذلك الظروف المحيطة بى • وكان تصرف الناس حيالى قائما على ما عرفونى عليه ، فوافقتهم ، وكنت آتيهم بما لدى • فعنـــــدما كان يمتدحنى انسان ، كنت أجيب دائما ، بالصيغة التى تعبر عن عدم استحقاقى هـــذا المدح وذاك الاطراء • وكلما ابتعت كعكا مسمطا ، أو ما شاكل ذلك من فوق عربة ، وتصادف أن قابلت امرأة حبلى ، كنت أقدم لها كعكى • وأسألها هلا تصب منه شيئا ، وحرصت على أن أدخن لفافات التبغ الخالية من « الفلتر » من طرفها الصحيح ، لئلا تحترق شارتها المطبوعة على أحد طرفيها •وكنت

---

(١) الصخور الجليدية ترمز هنا الى المناظر السائدة فى وطن الكاتبة والواردة على لسان بطلة الرواية ، ممثلة فى جبال الالب النمساوية والتى تكونت فى فتـــرة العصور الجليدية •

لا ألفى هذا اهتماما ، الى أن قرأت عنه فى موضوع ما ٠ وعنـــــدما أودع انسانا ، وأنصرف عنه ، كنت أقول مثل ما يقولون :

« بعد اذنكم » ٠

وقصارى القول أنى حاولت أن أراعى القواعد التى تحكم التعـــامل اليومى ، ولقد صارت تمثل بالنسبة لى ضربا من اللغة ٠ وكنت على استعداد لتعلمها ، وراقنى أن أرى كيف أنها تؤدى وظيفتها بنفس القدر الذى تعلمت به التعامل معها ٠

وجلعت أتحايل على نفسى بصعوبة ، لأن أقنعها بأن كل ما أفعله هنا انما يقع فى محيط نظام آخر للحياة ، وأن كل شىء هنا لن يعنى فى النهاية تغييرا لما فطرت عليه نفسى ، ولن يلقى صلاحية أبدية عندى ، ثم مالى أثقل على نفسى هكذا ؟ أليس بمقدورى أن أريح نفسى من كل ما يحدث لى ، وما يدور حولى بتذكرة سفر واحدة ؟ ولكنى كنت قد خالطت الحياة هنا بمـــا لها ، وما عليها وزاد تعلقى بها يوما بعد يوم وتساءلت : أكانت هى « سيفيم »، أم « تورجوت » ؟ هل كان « أكسو » ، أم عملى نفسه الذى من أجله أتيت ؟ ولذا فلم أستطع الاحتفاظ بمكان المشاهد الذى يرقب الأشياء من بعد ، أما كونى أجنبية فهذا أمر لم يعد يلفت الأنظار ٠ بل ان « أيتين » نفسها والتى اعتقدت أنها لا بد أن تعاملنى معاملة خاصة لهذا السبب ، قد تغيـــرت فى معاملتها معى وتصرفها تجاهى ، حتى أنها فرقت بينى وبين « سيفيم » ، استنادا الى معرفتها القديمة بها ومعرفتها الحديثة بى ٠

ومع هذا فقد كانت ثمة أيام أرى فيها أن اندماجى بالحياة هنا لا يعدو أن يكون مجرد أمر مظهرى فقط ٠ وكان يخيل الى ساعتئذ أنى أقف عارية بلا ثياب بين قوم مهندمة ثيابهم ٠ فكنت أصاب بدوار ٠ وكلما رمقنى أحد فى الشارع ، عذبنى التصور ، أنه كان على أن أعرفه من أين جاء ، وأجد نفسى على الرغم من هذا أنى أجهله ، وكانت لا تزال تواجهنى صعوبات فى بناء الجمل ٠ وتعثرت فى الدراسة فى أسابيعها الأولى ٠ وكنت أتفاهم مع الناس بصعوبة باللغة ، على الرغم من أنى كنت أقرأ كتبا باللغة ٠ وفجأة شعرت بالغربة من جديد ، فأحسست فى نفسى تقززا واشمئزازا من رائحة الأشياء فى المدينة ، لذا جعلت أبحث وأبحث حتى عثرت على قصاب يونانى ، ابتعت

من عنده لحم « الخنزير » المملح ، وكنت أحمله معى فى حقيبتى طيلة الوقت حتى يخضر لونه · وكان هذا يحدث بسرعة بسبب حرارة الجو ·

وعقدت العزم أخيرا على أن أزور « سهيلة » ، ولكننى كررت راجعة من منتصف الطريق ، واشتريت بعض الجرائد الأجنبية ، ثم جلست فى أحد المقاهى التى يرتادها كثير من الأجانب ، وأخذت أقلب صفحاتها · وما أن يبادرنى أحد بالكلام ، حتى أهم واقفة بلا تعليق وأمضى · وغالبا ما تكون وجهتى الى « أكسو » ولكنى كنت لا أدخل عليه فى الحال · فقد كنت أدور أولا عدة مرات حول المستشفى الى أن يخالطنى الخوف من أن يكون قد رآنى بغتة من احدى نوافذ المستشفى · وبالتالى فسأضطر أن أعلل له فيما بعد عدم دخولى · ولكن « أكسو » كان لا يلقى أية أسئلة ، وقد أخذت منه مفاتيح مسكنه ، وكنت أنتظر عنده ··· أنتظر حتى يحين وقت الرجوع الى البيت ، لأن « سيفيم » كانت تشعر بالقلق الشديد اذا أنا لم أعد قبل مقدم الليل ·

والتقيت بـ « تورجوت » فى المقهى القريب من سور « البحر القديم » ، وقد رأيته من على بعد ، ولكنه كان غارقا فى القراءة ، حتى أنى تمنيت أن يقوم أحد بعمل « بهلوانى » بجوار منضدته التى يجلس اليها ، ليصرف نظره بعيداً عن الكتاب ، ولما صرت على قيد خطوات منه ، انبرى صوت أحد الطلاب يناديه باسمه ، ورفع « تورجوت » رأسه فى بطء وتثاقل ، ثم نظر أولا صوب من يناديه · ولما أشار هذا له ، استدار « تورجوت » من على عارضة الكرسى الثانى واستدار الى !

ـــ أين كنت ؟

وجلست بجواره ، ولمس ذراع « الجرسـون » الأصم والملقب بالعم « هالوك » الذى كان يمر بصينية خالية · وأشار « تورجوت » الى أولا ، ثم الى قدح القهوة الخالى ثانيا ، الذى وضعه أمامه ثم حدجنى بنظـرة حادة ، منتظرا منى أن أحرى بجواب · وكان « تورجوت » يلقى الى هـذا السؤال دائما ، كلما التقينا خارج البيت ، ثم ينتظر بعدها قليلا علنى أبدأ باستبراء نفسى من أمر أكون قد فعلته فى الوقت المنصرم قبل لقائنا ·

ومضيت أفكر فيما سأقوله له · وكانت ذراعانا متقاربين من بعضهما

حتى تلامس ما بهما من زغب خفيف ، وتوقعت أن تصدر عنه أية حركة ، ولكنه لم ينح ذراعه بعيدا · وبدأت أخبره أنني أدركت محاضرة « انجن بك » هذه المرة ·

ـــ وماذا بعد المحاضرة ؟

ورفعت ذراعي من فوق قرص المنضدة ، فاصطدمت بذراعه وقلت :

ـــ ثم ذهبت بعد المحاضرة الى شارع « الاستقلال » فقادتني قدماى الى حى « أكسراى » (١) وواصلت سيرى الى مكتبة « زكى بك » وقرأت أحدث قصائده على جريدة الحائط الموضوعه داخل أحد « فتارين » العرض ، ولما عثرت على الثقب الذى خرقه فى جريدة الحائط كى يرقب الناس وهو جالس على الخزينة ، التقت نظرتى بنظرته ·

ـــ وهل دخلت اليه ؟

ـــ كلا ! لم أدخل ، لأنه يشق على فهم كلامه ، فهناك شىء ما بأسنانه لا يدعه يفصح الكلام ·

وقد حاولت ذات مرة أن أبين له أن قصائده لا يمكن نقلها الى لغة أخرى ، وأن البون الشاسع بين كلمات القديم والحديث التى يستعملها لايسهل اجتيازه ، فانتابته نوبة من الغضب ،وأخذ يشرح ويتكلم ولا أعرف الى الآن عما كان يتكلم ·

وأتى « النادل » بالقهوة ودفعها الى « تورجوت » أولا ، ثم قدمها « تورجوت » الى ثانية ·

ـــ تقولين أنك لم تدخلى اليه ، فماذا كنت تفعلين اذن طيلة هذا الوقت ؟

---

(١) أحد أحياء مدينة استانبول وهى كلمة تركية ومعناها « القصر الابيض » ·

وجعلت أقلب رأسى لكى أختلق له عذرا عسى أن أرضيه •

وبينما أنا سابحة فى أفكارى ، اذ بـ « تورجوت » يشد على ساعدى بأصابعه ، وطفق يقول أنه يعلم جيدا أين كنت فى المدينة طوال هذا الوقت •

وأمسكت القدح بيدى الطليقة ، واحتسيت رشفة من قهوتى •

ــ تقول أنك تعلم أين كنت ، فماذا عندئذ ؟ وأجاب :

ــ سافرت الى منطقة « أيوب » (١) وبمفردك ؟

ــ أجل ! كنت بمفردك ••• ولكن ••• بينما أنت فى القـــارب ، حسنا ••• دعينى أقل : لقد وصلت مبكرة بعض الشىء ، فاضطررت أن أنتظر قرابة الساعة حتى مجىء القارب التالى • وابان هذا الوقت شعرت بالجوع ، فابتعت لنفسك وجبة من السمك المقلى ورغيفا من الخبز الأبيض ، من أحد قوارب الصيادين • وكانت هذه الأشياء جميعها ملفوفة فى ورق صحف ، ودفعت خمسين قرشا ثمنا لهذه الأشياء • ولما فرغت من تناول السمك ، طويت هذه الورقة معا ، وألقيت بها فى المياه بالقرب من المرسى تحت كوبرى « الجالاتا » ، ثم وجدت أن لديك وقتا حتى يقلع القارب ، فابتعت لنفســك زجاجة من عصير الليمون من على الكوبرى أيضا ، وطلبت كأسا اضافيا معها على الرغم من أن أحدا لا يطلب كؤوسا مع زجاجة الليمون من مثل هــذه الحوانيت المتواضعة • ولما كان الكأس متسخا ، رددتيه ثانية ، وشربت من الزجاجة بلا كأس ، ثم وضعت الزجاجة الفارغة على « البنك » بسرعة ، وهرعت الى القارب ، وان كان لا يزال لديك وقت ، حتى اقلاع القارب ، ولما استقر بك المقام على متن القارب ، جال برأسك طيف الرجل ، فألفيتيه أمامك دون أن تلحظينه فى بداية الأمر ، أو لعلك تتظاهرين بهذا ، لأنك كنت غير متأكدة عما اذا كان الرجل يقصدك ، أم يقصد غيرك • وكان على ظهر

---

(١) أبو أيوب الأنصارى : صحابى كان من بين من شاركوا فى الحملة الاسلامية فى عهد معاوية بن أبى سفيان فى فتح القسطنطينية ، وتوفى تحت أسوارها ثم نقل جثمانه بعد فتحها على يد السلطان محمد الثانى وبنى له مسجدا يحمل اسمه ، ويزار من كافة القادمين الى تركيا ويعتبر من أشهر أحياء استانبول الآن •

القارب نسوة أخريات أيضا ولكنك تأكدت أنه يقصدك ، بعد أن غيرت مكانك عدة مرات ، وألفيتيه يظهر بجانبك فى كل مرة ، ثم أخذت تنظرين اليه بعد ذلك • فكنت ترمقينه أول الأمر كمن ينظر غريبا محبوبا ، يستلفت نظر المرء اليه لسبب ما ، كانت نظرة لا تنم عن شىء • غير أنها كانت تختلف عن نظرات بقية النسوة اللائى كن معك على أى حـــــال ، ثم شرعت تتلفتين حــــولك وتنتظرين ، عساه أن ينزل فى الطريق فى أحد المراسى ، ولكنه لم يفعل • ولما رأيت منه هذا ، بدأ ثغرك يبتسم •

وعقبت متسائلة :

ــــوكيف كانت تبدو ملامح هذا الرجل ؟

ـــ كان رجلا أسود اللون ، ضخم الجثة ، قوى البنيان ، ويرتدى حلة عسكرية •

ـــ أكان ضابطا فى الجيش ؟

وكان « تورجوت » لا يزال يشد بيديه على ســاعدى ، واضطررت أن أعطس ، فانسكبت القهوة من القدح •

ـ لا ! لم يكن ضابطا فى الجيش • لقد كان جنديا بسيطا ، حليق الشعر، ولا تزال ترى على رأسه آثار « الحجامة (١) » التى يحملها بين «يوافيخه(٢)» منذ أن كان طفلا ، كى يسيل منها ما فسد من دماء •

وقاطعته قائلة :

ـ ثم ماذا ؟

ـ وبعد ذلك سئمت نفسك هذا الابتسام ، فشرعت تحاولين أن تختلطى ببقية الناس • ثم اندسست وسط الزحام عند نزولك فى أيوب ، حتى تضلك

(١) اثار على بشرة الانسان فى الطفولة بسبب المرض أو التطعيم •
(٢) عظام حول الجمجمة •

عيناه ، وتبتعدين عن مرمى بصره · ولكنه بقى يتتبعك فى كل مكان وطأته قدماه · ومن أعجب العجب أنه لم يفعل شيئا ، ولم يقل شيئا ، بل سار وراءك صامتا · ثم تبعك الى فناء المسجد · ولما كان هناك نفر كبير من الناس ، اعتقدت أنك ستتخلصين منه هنا · ولما لم ترينه حقيقة لهنيهة ، خرجت من الفناء مرة أخرى · وجعلت سمتك بعد ذلك نحو المقهى الموجود فى أعلى الجبل ، لأن هذا ما كنت تعتزمين فعله حقيقة فجعلت تسيرين صاعدة الجبل فى سرعة ، ومررت فى سيرك بأشجار « السرو » ، ومدافن المدينة · ولما استدرت بظهرك ، رأيت الرجل لا يزال يقتفى أثرك ، وتصورت بالطبع أنه سيلحق بك حتما ، ويبتدىء معك بالكلام ، ولكنه لم يفعل · ولما ارتقيتما الى أعلى ، لم يجلس بجوارك أيضا ، وانما جلس الى منضدةأخرى على قيد خطوات منك وعندئذ ، أخذت نار الغضب تضطرم فى أوصالك ، وغدت المناظر الجميلة أمام ناظريك شيئا ممقوتا · وهنا ارتكبت خطأ ، وهو أنك انتصبت واقفة ، وألقيت بالنقود فى عصبية على المنضدة ، ثم عدت الى أسفل ، بقدر ما أوتيت من سرعة ، ولما لم يكن هناك قارب ساعة وصولك ، وخشيت أن يظهر الجندى وراءك مرة أخرى ـ وان كنت لم تكونى قد رأيتينه بعد حتى هذه اللحظة ـ لذا أخذت تسيرين صوب سور المدينة·وجعلت تسيرين وتسيرين دون أن تستديرى وراءك مع أنك قد عرفت أنه قد عاد يتتبعك مرة ثانية · وظلت الحال هكذا ، حتى وصلتما الى « سراى تاكفور » (قصر البروفيرو جينوتس) (١) ، وعندما وقفت أمام الطلل المتهدم ، واستدرت أخيرا ، خيل اليك أنه سيلحق بك الآن · وكان لهذا وقع عظيم فى نفسك كمن يتنفس الصعداء من خطب جلل · وعقدت العزم أن تفاتحيه بالكلام ، وتسأليه عما عساه يريده منك · ولكنه لما امتثل بجوارك ، قدمت على أحمق شىء يمكن أن يفعله انسان فى مثل حالتك ، وهو أنك وليت منه نافرة ، حتى آويت الى أطلال القصر · فبادرت متسائلة :

ـ أتقول فى أطلال القصر ؟

فأردف :

ـ نعـــــم ! حيث ينســـدل الظلام هنـــاك ، ونادرا ما يرتاده أناس كثيرون ·

---

(١) نسبة الى من شيده وهو أحد قادة الدولة البيزنطية انذاك ·

ـ ألم يكن هذا قصر « البلاخرنين » ؟

ـ كلا ! انما كانت « سراى تكفور » ، وكان أحرى بك أن تتدبرى الأمر على وجهه الآخر ٠

ـ ما الذى كان يمكننى أن أفعل عندئذ ؟

ـ انك لم تستنجدى بأحد قط ، بل انك ضحكت ضحكة رنانة طويلة ، عندما خرجتما مرة ثانية ٠ ثم أقبل نحوكما بائع « جيلاتى » مصادفة ، يدفع أمامه عربته ، وان كان وجوده فى هذا المكان يعتبر أمرا غريبا ، فابتعتما منه ما طاب لكما ٠

وازرقت يداى من قبضة يد « تورجوت » عليها ، وعندما أطلقها أخيرا، جعلت أدلكها حتى تسترد لونها الطبيعى ، ثم انتصبنا واقفين وأسقط « تورجوت » النقود فى مئزر النادل ، وأقفلنا راجعين الى « اكسراى » وتمنيت لو عرفت مكان هذا الجندى ، وأن لو استطعت أن أسير اليه لأقتص منه ٠

انه ليس جنديا حقيقة ، أقصد أن الجندية ليست وظيفة له وانما هو محام يؤدى خدمته العسكرية ٠ ها هو ذا هناك !

وأشار « تورجوت » الى الطابق العلوى من المنزل الذى كنا نقف بجواره، وكانت هناك لوحة معلقة عند باب المدخل تحمل اسم « دكتور كاراكولاك » ، وفى هذه اللحظة فتحت نافذة فى الطابق الأول ، وظهر فيها رجل يحمل على عينيه نظارة من العاج ، ويرتدى حلة بيضاء ، وألقى بنظرة الى الشارع ٠ ورفعت رأسى لألقى عليه التحية ، ولكن قبل أن يرد بشىء ، كان « تورجوت » قد قبض على معصم يدى مرة أخرى ، وجذبنى بشدة ٠

وكان يحدث كثيرا أن ابتدئ بالسير ، دون أن إعتزم ٠ وكنت اذ ذاك أطوى ورائى مسافات كبيرة نسبيا ، تحت قيظ الشمس الى أن أجد نفسى فى مكان ما ، أرانى قد فكرت فيه منذ وقت قليل ٠ ولا أستطيع الجزم بأننى كنت فى يقظة تامة ابان تجولاتى هذه ٠ بل انى كنت لا أعرف على سبيل التحديد أى الشوارع قطعت ، وعبر أى الحوارى وصلت الى هذا المكان ٠ أو أننى قد وعيت شيئا مميزا أثناء سيرى ٠ وكل ما أشعر به هو أن السير يبعث فى النفس

نوعا من التفكير والتدبر ، يصل بالمرء الى حالة تشبه الحلم ٠ وكنت اتمتم بيني وبين نفسي بأصوات مرتفعة ليس فيها مناجاة حقيقية للنفس ٠ ثم صعقت من نغمة صوتي ، وأخذت أتلفت حولي عدة مرات ٠ وكلما وقفت أمام مسجد بعينه أو مبنى محدد ، أو مقهى معلوم لدى ، كنت أجهد نفسي لمعرفة السبب الذى دفعني الى هذا المكان ٠ وكانت في غالبيتها أمورا صغيرة كأن يكون شكل قبة البوابة ، أو كيف أن شعاعا يرسل خيوطه عبر نافذة ما ، من زاوية معينة ٠

وكنت أحس بعد بضعة أيام أن المكان الذى زرته ، انما يمت بصلة ما لقراءاتي ، ولذلك فانني كنت أضفي على تجولاتي تلك سمة اشارات وعلامات معينة ٠ وانتظرت علني أعثر على كتاب ما باسم المكان أو بما يشير اليه ٠ غير أنه ربما أنني أقرأ بسهولة حول اسم ما اذا كنت قد رأيت ما يتطابق معه منذ وقت قصير ، فلا أكاد اذكر أنني قد سمعت اسم « زكي بك » من قبـل ، على الرغم من أنه قد وقع نظرى عليه بلا ريب أثناء مطالعة الجرائد الأدبية والمختارات الأدبية ٠ وعندما لفت نظرى اليه شخص ما بعد ذلك ٠ ثم تعرفت عليه أصبحت أطالع اسمه باستمرار ٠

وكلما نبهتني « سيفيم » الى كلمة معينة بغرض تصحيح نطقي ، أو لأنني قد استعملتها استعمالا خاطئا ، كان يخامرني الشعور لبرهة ، أن هذه الكلمة تستخدم باستمرار ٠ واعتقدت أنني أسمعها في الأحاديث الغريبة ، أو أنهـا تصادفني ابان سماعي للاخبار ، كما كنت أتوهم أن « تورجوت » و « سيفيم » يستعملانها أكثر مما ينبغي ٠ وكنت أمكث في مكان فترة من الوقت أتطـلع بينهما الى ما هو ماثل أمام عيني ؛ أو احتسى كوبا من الشاى ٠ وأثناء هذا ـ لم يكن ليتسرب الى نفسي قط شعور من يهيم على وجهه دون ما هدف ٠ وقلما كان يحدث أنني أتوقف فجأة عن السير لأسلك طريقا آخر ، غير الذى سلكته ٠ بل انني كنت أعرف في الحال أنني وصلت الى المكان المنشود ٠ وكانت قدماى تحملاني أحيانا الى ما هو بعيد ، حتى أني لا أستطيع أن أقطع طريق العودة راجلة ٠ ولذا فاضطر الى ركوب عربة « الأجرة » أو الأتوبيس « أثناء عودتي الى المنزل ٠

وكانت « سيفيم » تلاحظ على ، كلما قطعت ورائي شوطا طويلا ٠ اذ كانت

علامات الارهاق تبدو على وجهى ، ولكن صدرى كان منشرحا · حتى أنى كنت أقصها بطريف الأقاصيص · وفى هذه الحالة لم يكن يضيرنى أن تأتى «سيفيم» بكتبها التعليمية لكى تأخذ درسا جديدا ·

لقد عقدت العزم على أن أزور « سهيلة » لساعتى ، لئلا أتعرض لمواقف كهذا الموقف ، حدث هذا بينما كنت فى طريقى من « مسجد أياصوفيا (١) » الى مسجد « السلطان أحمد » واذ أنا فى الطريق ، أقبلت نحوى مجموعة من الفتيات ، كن يسرن على الرغم من القيظ ذراعا بذراع ، ومتماسكات الأيدى· عندما انزويت جانبا لكى أفسح الطريق لهن ، سقطت الحقيبة من يدى · ولما انحنيت لألتقطها اصطدمت باحداهن ، فبادرت أقدم لها عذرى · وخـامرنى الشعور فجأة أنها كانت « سهيلة » وتخيلت أن وجهها ليس بغريب على · وزدت فى نفسى يقينا من أنها هى · وعندما جعلت أقلب الأمر فى رأسى اذ ما كان ينبغى على أن افاتحها الكلام ، تطاير الى أذنى ما يوحى بأن احـدى الفتيات تناديها باسمها ، وتتبعتهن فى سيرهن · واذ لحقت بهن ، اعتذرت لهن ثانية ، وسألت الفتاة :

ـ هل أنت « سهيلة » ؟

وندت عن الفتاة ضحكة رقيقة ، وأردفت تقول أنها تدعى « ليلى » ولكنها تعرف واحدة ، تدعى « سهيلة » وحاولت أن أضفى على سؤالى مزيدا من الايضاح ، ولكنى لم أستطع الى هذا سبيلا · وأرادت الفتاة أن تعرف اسـم « سهيلة » بالكامل ، ولكنى لم أستطع أن أتذكر لقبها ، وشعرت بضيق يملك على نفسى · وبدأ الموقف يتأزم ، فحاولت أن أتكلف الابتسام المصطنع ، كيفما أمكننى ، ودار بخلدى أننى أحمل معى صورة لـ « سهيلة » ، فأخرجتها ، وأطلعت عليها « ليلى » وأخذت « ليلى » تناولها لصويحباتها · ووجدت الفتيات أنه ليس ثمة أدنى تشابه بين « ليلى وسهيلة » ، ورأت « ليلى » ان « سهيلة » هذه لا تشبه تلك الأخرى التى تعرفها وقالت :

ـ انها تشبه فى منظرها « أيزل نور »·

---

(١) كانت فى الماضى الكنيسة الرئيسية فى عهد الامبراطورية البيزنطية ، وتحولت فى العهد العثمانى الى مسجد ، ثم أصبحت الان متحفا بدءا من عصر كمال أتاتورك·

وسألت من تكون « أيزل نور » هذه ، وعلمت أن هناك فيلمين يعرضان الآن في « بيوغلو » تلعب هي فيهما الدور الرئيسي ٠

ـ ان عينيها خضراوان وفمها يشبه ٠٠٠

وراحت الفتيات تتضاحكن في تخابث ، وأردفن :

ـ انها ذات صيت ذائع ، ولا تقل شهرة عن المطرب « زكي موران » ٠

ولاحظت من نظراتهن أنهن كن يخشين أن لا أعرف أيضا من هو « زكي موران » ، بيد أن الأمر لم يكن كما زعمن ٠ فقلت لهن اني قد شهدت « زكي موران » يمثل على المسرح ، فشعرن بالارتياح والهدوء ٠

وسألتني « ليلى » هل لي أن أعرف أين تقطن « سهيلة » ، فأجبتها بالنفي لئلا أدعهن يهزأن بي أكثر ٠

ـ عندئذ سيكون من العسير عليك أن تعثري عليها ، فالمدينة كبيـرة جـــدا ٠

ـ نعم ! كبيرة جـدا ٠

وأشرت بحركة من يدي الى حجم المدينة ٠ وعلت محيـــاهن علامات الارتياح مرة ثانية ٠

ثم انصرفت عنهن بعد ذلك ، خوفا من أن يسألنني من أين لي بهـــذه الصورة ، وكيف أريد أن أرى « سهيلة » أصلا ، وان لم أكن أعرف على الأقل المكان الذي تقطن فيه ، أو بما تدعى بلقب عائلتها ٠ وكانت الفتيات قد هيأن أنفسهن لحوار أطول ، وأحطن بي في دائرة ، واتخذت كل واحدة من صاحبتها متكئا ، وأخذن يرشقنني بأنظارهن في انتظار الحكاية التي سأحكيها لهن ٠ وعند انصرافي تمنين لي حظا وافرا ، وقلن لي ان تحليت بمزيد من الصبر ، فلعلي أعثر على « ســـــهيلة » يوما ما ٠ ومن يدري فكم سمعنا كثيرا عن مصادفات غير متوقعة ٠ واستدرت صوبهن مرات عدة ، وأخـــذت الفتيات

تلوحن لى بأيديهن • وفى هذه الأثناء ادركت أن « سهيلة » لابد أنها تكبرهن بخمسة أعوام على أقل تقدير • وقصدت بعد ذلك الى « بيوغلو (١) » لكى أشاهد أحد فيلمى « أيزل نور » • لكنى عدلت عن الفكرة ، ورأيت أن الوقت كان متأخرا • فقد كان هذا يعنى أنى سأعود الى البيت بعد هزيع من الليل•

وحتى ذاك الحين ـ كان لا يزال من العسير على أن أقرأ النصوص القديمة • فلقد كانت الكلمات المأخوذة من العربية والفارسية بالنسبة لى ، لا هى بالسهلة الاشتقاق ، ولا بالمستطاعة التركيب ، طالما أنى لا أستطيع أن أرجع اليها فى لغاتها الأصلية • وأخذت أتحايل على نفسى للتغلب على المشكلة ، وذلك بأن شددت خيطا فى الحائط فى مستوى بصرى ، وعلقت عليه قصاصات من الورق مكتوبا عليها بضعة كلمات تبتدىء جميعها بالمقطع (مو)• وبعد قليل لم أعد أراها • ولعل « سيفيم » قد انتزعتها ، لأنها تعترض سبيلها• لقد عاد الناس يستعملون الآن بدلا من هذه الكلمات المعارة تراكيب جديدة سهلة الاشتقاق ، غير أنها لم تستكمل معانيها بعد • وكانت تقع فى نفسى موقعا جافا ، وان كنت أستخدمها أسرع وبثقة أكثر من « سيفيم » و « تورجوت » ، وأيقنت فى قرارة نفسى أنه لن ينشأ فى داخلى هذا الشعور الدقيق الذى به يحس الانسان بمواطن ، واستعمالات هذه الكلمات التى تولد كل يوم • ووجدت سلوتى فى كتابة الكلمات القديمة بجانب الكلمات المستحدثة ، غير أن أوجه التقارب بينهما لم تكن مائة فى المائة •

وكنت أسائل نفسى بين هنيهة وأخرى بكل جدية ، لماذا اخترت لنفسى هذا الطريق ، أليس باستطاعتى أن أنجز بنفس المجهود شيئا آخر ؟

لقد كنت أرقب لغة عن كثب وهى تتغير وتتبدل ، غير أن محاولاتى فى أن أسير على خطاها منيت بالفشل ، فنسيت ما تعلمت ، وأخذت أتعلم مانسيت• وليت الأمر كان أمر التحدث باللغة فحسب ، فقد كان هناك عملى ، الغاية التى من أجلها أتيت وكذلك التأويل الذى ينبغى أن يرضى الجميع • فقد كان بمقدورى أن أحكى وأفصل ما يدور حول عملى •

---

(١) حى من أحياء استانبول •

ووجدت اذانا صاغية ، والفيت من يسدى الى النصح الجميل ، أو من يحذرنى من خطأ أقع فيه ، وعاونونى فى الحصول على المصادر أو منحونى كتبا ، رجوا منها أن تكون عونا لى • ولم أكن بحاجة سوى أن تكون هذه هى البداية ، فأولئك الذين لا علاقة لهم بالموضوع مطلقا ، بدأوا يولونه اهتماما • فها هو ذا « تورجوت » ما فتىء يسألنى اذا ما كنت أعرف ماذا سينجلى عنه هذا العمل • وتظاهرت بأننى سأعمل بجد • وهذا من أجل أن أريح « سيفيم » بصفة خاصة • فرحت آخذ الكتب معى كل مساء ، حيث نجلس فى الفناء خارجا وحاولت القراءة على الرغم من الاضاءة الضعيفة • ولكن حرص « سيفيم » المفرط فى تجنب كل مضايقة لى أضحى حائلا دون تركيزى على ما أقرأه • فكنت استوعب أكثر ، أثناء سيرى فى الطريق وذات مرة خطرت ببـــالى عدة جمل ، ولكن ما أن هممت بتدوينها ، حتى تراءت أمام عينى فى الحـــال أنها غير ذات قيمة • حتى أنى لم أجرؤ أن أجعلها مطلع موضوعى • غير أن هذا لم يعوقنى عن التحدث عنها ، واستخدامها استخداما كاملا • وكان نصيبى من هذا مدحا واطراء •

وما لبثت أن عثرت على المنزل ، وكان «انجن بك» ينتظرنى أمام الحديقة، واستقبلنى بقوله ان السكن ضيق ، وان النسوة سوف يمكثن فى الداخـــل حتى يستيقظ الولد • ولذا فان لم يكن هنـــاك ما يضيرنى ، عندئذ يمكننا أن نجلس فى الخلاء • فمن هناك سوف أرى البحر أيضا ، كلما دنوت ببصرى عبر الأشجار •

وعندما كنت فى « المعدية » التى حملتنى الى هناك كنت قـــد جلست بين عجوزين مكتنزتين ، وكانتا تزوحان الهواء عن نفسيهما بمذبة ، والعرق ما انفك يسيل منهما مدرارا • لذا وجدت راحتى فى أن أجلس فى الخــــلاء حتى تكون هناك سعة كافية من الفراغ حولى •

وأردف « انجن بك » بقوله : انه يمكنه أن يأتينى أثناء جلستنا بكأس من « الأيران » (١) ، ودلف الى المنزل وهو يسير على أطراف أصابعه •

واقتعدت أحد الكراسى المجدولة فى الحديقة • وأجفلت عيناى فى انتظار الزبادى الذى مزق بالماء المتبل بالملح والثوم •

---

(١) نوع من الشراب ، وهو فى العادة خليط من الزبادى والسكر وماء الصودا •

وعاد « انجن بك » بابريق وكأسين · وكانت طريقته فى صب الكؤوس وهو يمزج محتوى احدهما على ما فى الآخر ، تبين أنه رجل لا مراس لــه فى فن الشراب ·

وكانت جلستنا فى الخلاء دائما · ولا سيما فى أوقات تناول الطعــام وقد كان هذا ميزة بالنسبة « للولد » · وأخذ « انجن بك » مكانه الآن ، وشرع يحكى عن مسكنه بالمدينة ، والذى لا يستخدم الا شتاء · فهو وان كان أكثــر اتساعا من هذا السكن ، لكنه أقل درجة فى الراحة · وحل بى تعب شديد مرة واحدة ، حتى تراءى لعينى أن وجه « انجن بك » تفتت الى جزئيات مختلفة تتطاير عبر الأثير كل منها بمعزل عن الأخرى · وأخذت مجلسى منه ، كما كنت أفعل فى محاضرات كثيرة ، فجعلت أحدجه فى بلاهة ، آملة أن يكون هو المتكلم وحده ، وما على الا أن أومىء له برأسى بين الفينة والأخرى · ولاح لى اننى نائمة بعينين مفتوحتين ، وخيل لى أيضا أن صوت « انجن بك » قد تحول وتبدل ، حتى صار أثرا مرئيا يتحرك على هيئة دوائر صغيرة حول أجزاء وجهه المتناثرة · وعندما عدت أرى « انجن بك » بصورته الطبيعية ، مرة أخرى ، شعرت بأننى قد صحوت من سبات طالت مدته · ولكنى رأيت أن كل شىء حولى ظل كما هو فلم يتغير ضوء النهار ، ولا شىء آخر ·

ـ ها هى ذى زوجتى مقبلة الينا !

وأشار « انجن بك » برأسه الى « تاتارية » التى هلت علينا بقامتها من المنزل · وقمت من جانبى بنوع من المجاملة والاحتفاء انتهت مراسمه ، عندما بسطت اليها يدى لأصافحها · وأثناء هذا تذكرت جزءا مما قد حكاه لى « انجن بك » سلفا · ولم أكن على يقين تام من أن « انجن بك » قد حكاه لى بالفعل ، أم أننى استلهمت فى غفوتى معان لأجزاء من جمله لم تكن هى المعنية بالحديث مطلقا · فاستوحيت أنه قد درس فى « فيينا » فترة من الزمن ، قبل أن يستقر به المقام فى المدينة بصفة دائمة · وتخيلت أنه قال لى أيضا ، انه قد تزوج وقتئذ من طبيبة عيون ـ خلعت عليها الدنيا من الجمال ما لم تخلعــه على واحدة أخرى من بنات حواء ـ وكان دائما يستخدم هذا التعبير بصفة خاصة ، وكانت زوجته الحالية « تاتارية » لا تعلم عن كل هذا شيئا ، وقد حرص أيضا على ألا تعلم شيئا ·

وجلست الينا « تاتارية » وهى تعتذر على أنها لم تخرج الا الآن ، اذ أنها لم تسمع بقدومى مطلقا ٠

ولم يمض وقت طويل،حتى قدمت الينا امرأة عجوز تتدثر بمعطف أسود من القماش ، ومعها الصبى الذى لم يكد يصل ، حتى جلس تحت المنضدة ٠ ونهرته « تاتارية » بصوت عال فى لهجة لا تستخدمها النسوة الا مع أطفالهن فقط ٠ وكان لهذه اللهجة وقعا كأصوات الطير ومما يزيدها قربا منها ٠ هو التكرار الدائم لمقاطع بعينها ٠ ولاح على محيا الصبى الصغير أن عدم امتثاله لهذه اللهجة التى تقومه ، سيكلفه شططا ٠ وعندما مالت الأم اليه ، أعرض عنها برأسه ، وصم كلتا أذنية بيديه ، واحتسينا الشاى ، واكلنا الفطائر المحشوة باللحم مع الجبن والكرنب المخلل ٠ وبعد هنيهة انصرفت العجوز مع الصبى ووجهتهما الشاطىء ، واصطحبتهما « تاتارية » حتى بوابة الحديقة٠ ثم كرت راجعة من فورها ٠

ـ لقد تعود هذا الصبى على الذهاب الى الشاطىء ، فى مثل هذه الساعة من النهار ٠ فالشمس الآن لطيفة ، فضلا عن انه سيلتقى باطفال آخرين من أقرانه ٠

وعلت الجلبة والصياح القادمان من الشاطىء الينا ، وكانت تسودهما ثرثرة النساء العالية الفحيحة ، والتى ما كان صياح الأطفال بقادر على ان يعلوها ٠ وانتقلت بنا دفة الحديث الى عملى ٠ ووعدنى « انجن بك » بأن يكتب لى بعض العناوين التى سوف أحتاج اليها على أى حال للاستشهاد بها، وان كنت أعرف كثيرا عن العناصر «التكهنية» (١) داخل الطريقة «البيكتاشية» وطوائف « العلويين » القريبة منها ٠

ـ اما فيما يتعلق بأدبهم على أى حال ، فلا ريب أنه قد استرعى نظرك أن هذا الأدب قد ترك أثره على التطور الجديد فى مناح عدة ٠ وهذا هو الذى دفع معظم شعراء « العصر الثالث » (٢) الى اعتبارهم اياه أنه هو التراث

---

(١) طوائف دينية تنتشر فى بعض المجتمعات البدائية يمارس كهنتها أعمال التنجيم والسحر والشعوذة ٠

(٢) تعنى العصر الحديث ـ حيث قد سبقه عصر ما قبـــل الاسلام والعصر الاسلامى ٠

الشرعى الوحيد ٠ فهولاء الشعراء يعتبرونه تراثا قوميا ، ان جاز هذا التعبير ـ وتناول « انجن بك » قرصا من الاسبرين مع البقية المتبقية من الشـــاى وأضاف :

ـ لقد تغيرت لغتنا تغيرا كبيرا ، حتى أنه ما من انسان يمكن أن يقــرأ شيئا أقدم فى الجذور ، من عمره هو ٠ ونحن الآن لا نألوا جهدا فى أن نأتى بكلمات جديدة لتسمية أشياء قديمة ٠ فتبدو هذه الكلمات الجديدة فى النهاية وكأنها أقدم من القديمة ذاتها ٠ لكنها تكون ذات وقع مختلف ٠ ولذا فانهــا تظهر فى الوقت نفسه جديدة أيضا ، وطالما هى هكذا فانه يمكن أن نبتدىء بها شيئا ٠ أى أن هذه العملية كلها انما تقوم فى مجملها على تبادل مستمر من الكلمات ، اللهم دون أن يتغير شىء فى مواضعها ٠

ورمقنى « أنجن بك » بنظرة فاحصة ، لكى يرى وقع هذا الكلام على نفسى وبما عسانى أن أرد عليه ٠ ولكنى لم أنبس ببنت شفه ٠ وبعد لحظــة سألنى عما اذا كانت لدى رغبة فى احتساء كأس من شراب « الليكور » (١) ، وسرحت الطرف الى « تاتارية » التى أخذت تومىء الى بوضوح ٠

ودلف « انجن بك » متثاقلا الى المنزل ٠ وما ان خلت بى « تاتارية » حتى مالت الى وسألتنى :

ـ هل لى أن أقص عليك ما كان من أمر أبناء « قادنتشوك آنا » ؟

ثم أنشدت تقول :

فى ذات يوم من الأيام عاد « الحاج بيكتاش الولى » ـ مؤسس الطريقة البيكتاشية ـ الى بيته ، وقام ليتوضأ ٠ وفى أثناء وضوئه أصابه رعاف(٢) ، فطلب من « قادنتشوك آنا » ـ وكانت بجانبه منتظرة بوعاء ماء ـ أن تنقل دمه الى مكان لا تطأه قدم انسان ٠ ولكن « قادنتشوك آنا » لم تفكر طويلا ، وانما شربت الدم المسكوب من أنفه ٠ وعندما رأى منها هذا قال لها انهــا

---

(١) نوع من الخمور ويصنع من فواكه متنوعة ويخلط بالسكر والكحول ٠

(٢) دم يسيل من الانف ٠

ستنجب منه من البنين ثلاثا ، وذكر لها أيضا أسماءهم التى ستسميهم بها ، والمناصب التى سيتولونها فيما بعد ، وصدقت نبوءته ، ولم يكن الأبناء من أصلابه ، وانما كانوا أبناء الطريقة ، أى أن انجابهم كان بمس من الروح ٠

وعاد « انجن بك » بعد ذلك بزجاجة وردية الشكل بها من شراب «ليكور الموز » وبعد أن صبت « تاتارية » كؤوسنا ، أخذنا نشرب نخب المدينة وكل دراويشها السالفين ٠

كنت أتصور فى بعض الأوقات أننى قد جعلت من « أكسو » مجرد انسان أستطيع أن أواجه به « سيفيم » و « تورجوت » ٠ وعلى الرغم من أننا كنـــا نتحدث عنه كثيرا ، الا أنى كنت أعتقد فى نفسى أنهما ما عرفا متى كنت عنده آخــر مرة ٠

لقد رأيت « أكسو » ذات مرة ، قبل أن أتعرف عليه ٠ وكنا ساعتها فى منطقة « أوسكودار » (١) على احدى محطات « الحنطور » ٠ وكان يقف آنذاك أمام جواد مسرج فى عربة ، محتضنا رأسه ٠ وأدهشنى ما كان يصنع، لأننى لم أكن قد رأيت انسانا قبل هذا فى المدينة بأسرها يلاطف جوادا مجـرد الملاطفة ٠ وتعرفت عليه بعد ذلك بشعره الأبيض الذى لا يتناسب مع سنى عمره ولا مع بشرة وجهه الداكن ٠ وقلما كنت أبقى عنده لمدة أطول من الوقت الذى ينبغى على أن أعود أدراجى فيه الى المنزل ٠ وان حدث هذا فكنت أوهـــم « سيفيم » بأنى كنت مدعوة من قبل أحد العاملين بالقنصلية ٠ وسرنا على طول شارع « الشاطىء » وتناولنا عشاءنا فى مطعم يقع على المضيق ٠ وعندما أعادنى « اكسو » الى المنزل بسيارته ، رجوته أن يقف بعيدا عن المنزل بعض الشىء ٠

وكنا نجلس سويا ، وقتا طويلا دون أن ينبس أحدنا بكلمة ، ونستمر هكذا حتى لا أعد أقوى على احتمال الموقف ، فأشرع فى الحديث عن أى شىء وآخذ فى صياغة عبارات لم أكن لأفكر فيها ولو مرة واحدة ٠

والأمر الوحيد الذى ما فتىء « أكسو » يتحدث عنه طيلة الوقت هــو

---

(١) الجانب الاسيوى لمدينة استانبول

السنون التى قضاها فى القرية ٠ وكان يستهل أقاصيصه فى الوقت الـذى أهم فيه بالانصراف ، عندما أزرر ثوبى أو أمشط شعرى ، فاذا به يرى منى هذا ، كان يقف بالباب المؤدى الى الحمام ، متكئا بظهره وكلتا يديه ويستفتح بالكلام ، حتى أنه لم يعد فى مقدورى أن أفعل شيئا تعوزنى أسبابه ـ لأنه لا يبصر الأعمى ولا يسمع الاصم ولا يضير الشاه سلخها بعد ذبحها ـ ٠ فعلمت من أخباره أنه قد ذهب الى القرية ٠ لأنه كان يعرف أن ليس ثمة طبيب واحد فى معظم القرى ٠ فالحاجة اليهم أشد وألح ٠ وأنه لم يستطع أن يفعل للناس أكثر مما كان يفعله الدجالون دعاة الطب ٠ بل على العكس ، فلم يلبث هو أن تحمل تبعة هذا الأمر ، لأنه ببساطة ليست لديه الطريقة المثلى فى معاملة الناس ٠

وحتى اذا فاض به الكيل ـ يبدأ أقاصيصه مسهبا ـ ويرى كيف كان يسكن وماذا كان يأكل ، وعن الناس أنفسهم ، ماذا قالوا له ، وبما أتوه ٠ فكثيرا ما كانوا يطلبونه للحيوانات ، أو كانوا يحضرون له « ديكا » نقره ديك آخر فى عينيه والصعوبة البالغة التى كان يلقاها كانت مع النسوة على وجه الأخص ، لأنهن كن يأبين أن يكشفن عن الموضع الذى يقوم بفحصه ٠ وكان الناس يرتكنون فى كل شىء الى قوة فراسته ، فسيكفيهم أن ينظر فى وجـــه أحدهم ، فيتعرف على ما يعانى من سقام ٠

واستطرد « اكسو » يقول انه لا طاقة له بالفقر والفاقة ، فربما استطاع أن يوطن نفسه ـ ولو لحين ـ على ما فى القرية من أقذار وأدران ٠ ولكنه لا يستطيع تحمل هذا البؤس ، ونشدنى أن أفهم ما يقول ، فلم يتعود قبلا على شىء يحدوه على تحمل الفقر ، وكان هذا عائقا فى طريق عمله وكلما حاججته وقلت له أنه لا يهم كثيرا اينما يداوى الناس ، كان يرد بأن هذه ليست مقارنة٠

لقد كان « اكسو » بالنسبة لى شيئا يمكن أن أعتمد عليه ٠ ليس بالدرجة الكبرى ، ولكن كانت هناك دلائل تقنعنى بهذا ٠ وكنت أعرف أين ومتى أقابله ٠ كما كنت أعرف أنه سوف يبحث عنى ، لو تخلفت عن الموعد ٠

واصطدمت « بتورجوت » عند الباب الموصل الى الحمام ٠ وتقدمت فى تحد وصحت فيه بأن له رأسا يشبه رأس القارورة ، مدببة كمؤخرة طاقية

« الدرويش » أو كحبة من حبات الكمثرى، ذى جبهة منبعجة كلوح من الخشب، وبه عينان كعينى البومة ، فى وجه كوجه الثعلب وتتدلى من وجهـــه أذنان كبيرتان فى حجم « شباشب الأطفال » وأنفه فى حمرته يشبه حبة العنب غير الناضجة ، وكبير كواحدة الباذنجان « المورى » وأنه يمكنه أن يدخل فى فتحتى أنفه ثلاثة أصابع دفعة واحدة ، وشفتاه غليظتان كشفتى الجمل ٠ أما فمه فيمكن أن يزدرد رغيفا كاملا فى دفعة واحدة وليس بأخير أصابعه ، تلك التى تشبه خيار « اللانجا » ٠ وقلت له انى أكاد أشك فى أن الله قد قصد أن يخلقه على هيئة انسان ، بل وان الشاعر « أوليا جلبى » يستعصى عليه أن يصفه وصفا صادقا ٠ وصحت فيه بحدة :

ـ ان لم تترك يدى فى الحال ، فقد ألجأ الى وسيلة لا يقوى خيالك الضحل على تصور أثرها ٠

ـ الى أى وسيلة ستلجئين ؟

وظل « تورجوت » قابضا على كلتا يدى ، وهز رأسه المبلل حتى سقطت على « قطرات من الماء » ٠ ولم أذعن له ، بل استرسلت فى التهديد حتى تراخت قبضته ٠ وتركت أصابعه آثارا على ذراعى التى عرضتها عليه فى شكوى متذمرة ٠ وكان قلبينا يدق من شدة الاضطراب ٠ وبعد قليل مرت علينـــا « سيفيم » بحاجيات الافطار ، وحثتنا على العجلة ٠ وأطلق كل منا سراح الآخر ، ثم أغلقت باب الحمام ورائى بالمزلاج ٠

وأفطرنا جميعا فى الفناء ـ كدأبنا ـ وفى منتصف المائدة كانت توجد صحفة بها زيتون أسود ٠ وكلما أردت أن ألتقط واحدة منها بشوكتى ، تدخل « تورجوت » بشوكته عامدا ، فتسقط الزيتونة من الصحفة على المنضدة ، ثم من المنضدة على الأرض ، وأخذت « سيفيم » تحدجنا لهنيهة ، ثم بدت علامات الغضب والحنق ترتسم على محياها ، فجذبت الصحفة اليها ٠

ولكى ألطف من حدة غضبها ، تحايلت عليها بقولى بأننى قد رأيت فى الليلة الماضية حلما عجيبا ، لا زلت أتذكره الى الآن جيدا ، وعلى الرغم من أنى رحت بعد ذلك فى سبات عميق ٠ وقالت « سيفيم » :

ـ أى حلم رأيت ؟

ثم وضعت صحفة الزيتون على المنضدة مرة أخرى ٠

ـ رأيت أننى شعرت بالجوع بغتة ، فدلفت الى أحد المطاعم فى « يديكوله » (١) ، وما ان هممت بالجلوس الى احدى المناضد ، اذ أتى صاحب المطعم الى ، وطلب منى أن أغادر المكان لساعتى ، وأخبرني أن كل المناضد هنا محجوزة ٠ فستقام بالمطعم وليمة ، لن يشترك فيها أحد سوى الضيوف المدعوين وتظاهرت أمامه بأننى سوف أنصرف ٠ بيد أنى لم أغادر المكان، وانما تواريت خلف « فترينة المثلجات » ٠ ودخل بعد قليل قارعو الطبول ومعهم عازف على القيثارة ، ومن ورائهم جمع غفير من الناس فى ثياب الأعياد والمناسبات ، وأدركت بعد هنيهة أن اليوم يوم عرس ٠ وفى المؤخرة دخل المطعم عروسان ، وجلسا الى الطرف القصى من المنضدة وكان العريس وعروسه غارقين فى ثيابهما ـ من رأسهما حتى اخمص قدميهما ـ حتى أنى لم أستطع أن أرى وجهيهما ٠ فانحنيت قليلا ، وسرحت بطرفى أسفل المنضدة، فتعرفت عليكما من أحذيتكما ٠ وكنت فى حلمى حانقة عليكما ، لأنكما لم تدعوانى ٠

واسترسلت بعد أن فرغت من الضحك ، ولكن « سيفيم » و « تورجوت » رمقانى فى فتور ، ورمتنى « سيفيم » بالجنون ، والحقيقة أن رؤياك تلك تؤكد وحدها هذا السفه ٠

وكنت نفسى لا أهتدى الى رد فعل معين أتوقعه ٠ فقلت لهما أنه لا ذنب لى فى أننى رأيت مثل هذا الحلم ٠ فانى أرى فى منامى كل الأحلام الممكنة ٠ ولكن ما سأفعله لكما مستقبلا هو أننى لن أقص عليكما شيئا من رؤياى ٠

فبادرت « سيفيم » :

ـ سيكون هذا هو الأفضل ٠ فالانسان يستطيع هكذا أن يكبح جماح أحلامه ٠ ويبدو أنك تجهلين ما تقولين ، عندما تروين حلما » ٠

---

(١) حى فى مدينة استانبول (ويعنى بالعربية القلاع السبعة)

ولم يتبق فى جعبتى شىء ، سوى أن أرد عليهما بأننى قد عرفت هـذا جيدا وأن هذا ببساطة لا يضيرنى بشىء ٠

وكانت تسود المدينة فى ذلك الوقت رطوبة غير معتادة ٠ وكانت السماء ملبدة بطبقة من البخار الذى لم يتحول الى سحب بعد ٠ وبزغت الشمس، وظهرت كالبقعة البيضاء فى كبد السماء ٠ ولم يتصاعد من المضيق شىء سوى البخار ، فلم تكن ثمة نسمة عليلة ، كما كانت رائحة الحديد المصدىء ، ورائحة الأسماك ووقود السفن ، قوية بدرجة لم تعهد من قبل ٠ واتجهت الى الدرج المؤدى الى حى « الجالاتا » ٠ وأخذت أسير حثيثا حتى لا أتصبب عرقا ٠ ان هذا الحى من المدينة ذو قباحة تجل عن الوصف ، وذو وحشة مريعة حتى أنى أوجست فى نفسى خيفة ،وشممت رائحة المنازل من كلا الجانبين ،وتطايرت الى مسامعى أجزاء من جمل كنت اعتبرها اغريقية تارة ، وأرمنية تارة أخرى، وحينا آخر كنت أحسبها «من اللغة السبنيولية » (١) وكلفت نفسى شططا ، كى أواصل سيرى كما لو أن هناك أمرا خارجيا لقدماى بالتحرك ٠

وكلما أطلت الطرف حـــولى ، رأيت قمة « برج الجالاتا » ، تظهر فجأة شامخة ، فوق سطح أحد المنازل ، ثم تختفى ٠ وكثيرا ما كنت أقابل « تورجوت » فى المدينة ، أم أنه هو الذى كان يقابلنى ؟ لقد كنت أتصور أنه يسير خلفى طيلة الوقت ، دون أن أشعر ، لكى يقابلنى بعد ذلك ، ببساطة وجها لوجه من أحد الشوارع الذى سبقنى اليه ، ثم تنفرج أساريره بأننى لم أدهش فحسب ، بل عقدت المفاجأة لسانى ، وتلاقينا اذ ذاك ٠

ثم سرنا جزءا من الطريق سويا ، وسألنى ما الذى أفعله هنا فى حى « الجالاتا » ، ورددت عليه بنفس السؤال ، ولم يضايقه هذا :

— لى صديق وأصدقاء عديدون هنا ، وهـــم جميعهم على أهبة الاستعداد لنفس امتحانى ٠

---

(١) السبنيولية ـ لغة اليهود الذين هاجروا من أسبانيا والبرتغال ، واستقروا فى شمال افريقية وشبه جزيرة البلقان ٠

واحتسينا سويا كوبا من الشاى ، ثم انفصلنا فى الحال · فسلكت طريقى عبر القنطرة · وجعلت سمتى الى حى « توبكابى » · وهناك قابلت رجلا يجلس بجوار صندوق مكسور ، فوقه كتلة من الثلج ، تذوب رويدا رويدا ، وكانت فوق هذه الكتلة الثلجية أوراق خضراء عليها لوز طازج · وكانت حركة يد الرجل بها نوع من الاثارة للشهية ، مما دفعنى الى ابتياع اثنتين من تلك الثمار ، دون أن أشعر فى نفسى برغبة اليها · ولهذا أهديتهما لأحد الأطفال بيد أن الطفل تركهما تسقطان من يديه على الأرض ، ففر هاربا ، وقد ارتعدت فرائصه · ثم دلفت الى احدى المكتبات فى شارع أنقرة ، وأخذت كتابا تلو الآخر فى يدى · وكلما تناولت واحدا من هذه الكتب ، كلما زاد التراب العالق بأصابعى ، حتى أتى البائع ، وخاطبنى وأراد أن يعرف من أى البلاد أتيت ، ولماذا أتحدث لغتهم ، وسألنى اذا كنت أعطى هذا أو ذاك درسا فى الألمانية ، وهكذا ، حتى لا أجد أمامى سوى أن أسأله عن كتب غير موجودة مطلقا · وعندما عدت فى المساء الى المنزل ، كنت خائرة القوى لدرجة أننى ما أقدمت على فعل شىء ؛ حتى ولو مجرد أن أشغل نفسى بأمر ما · كما أنه لم يسعدنى أى سعادة أن أواجه نظرة « سيفيم » المليئة باللوم والعتاب · وقررت أن أجلس فى اليوم التالى فى احدى المكتبات ، لكى أطالع شيئا وجعلت أتصور فيما سيكون عليه الحال عندما يصير فى مقدورى أن أقول يوما ، أنى خطوت خطوة الى الأمام ، أو على الأقل حاولت أن أسير قدما ·

كان الجو معتما فى ردهة السلم ، وسمعت فتح الأبواب وغلقها فى كل طابق من المنزل بحذر ، وكأن هناك شخصا يريد أن يستوثق من أننى قد وصلت فى الموعد المحدد ، وطرقت ثلاث طرقات خفيفة وفتح الباب · وعندما انفرج مصراعاه ، تراجعت عن العتبة قليلا ·

وقابلنى « أكسو » بالباب ، وهو يضع يمناه على صدره ومثنيا ابهامه الى أعلى · ووضعت يدى اليمنى كذلك على صدرى · ولما امتثل كل منا أمام صاحبه ، تلامست ابهامانا · وطبع كل منا قبلة على جبين الآخر · وألقينا تحية السلام · ثم دلفت بعد ذلك الى الحمام فقد كان الهواء فى ردهة السلم من السخونة ، مما جعل قطرات العرق تتجمع على قصبة ساقى ، وكانت تسيل مع كل خطوة أخطوها على طول رجلى · وتطلعت الى المرآة

فرأيت صورتى ، وجعلت ألمس بالسبابة أهدابى ، التى علت وغدت مندية ، ومررتها حول عينى حتى الأنف وحول شدقى الفم • وتكونت بهذه الصورة « عين ولام وياء » وجعلت أنشد :

وضعت المرآة نصـــب وجهى
فرأيت عليـــا ولـــم أر نفسى
مرحـــى يـا على مرحـــى !
مرحى أيها الشــــاه مرحى !

ودخل « أكسو » الى المطبخ ، وسمعته ، وهو يفتح الثلاجة ، ووضع « حافظ » قطع الثلج فى حوض الغسيل ، وكان ضغط الماء ضعيفا • وسالت المياه من الصنبور فاترة ، وفى خيط رفيع • وبعد برهة انقطعت المياه تماما عن الانسياب • وادثرت بدثار معلق على باب الحمام • وكان منسوجا من حرير الأطلس ، كما كان ناعم الملمس • ووضع « أكسو » شراب الراكى (١) والمياه وقطع الثلج فوق المنضدة ، بجانب هذه الأشياء ، وكانت هناك ملعقة تجويفها الى أعلى ، وصب لى كأسا ، ثم غمس الملعقة فى الصحفة المليئة بقطع الثلج •

— كم قطعة تريدين ؟
— ثـــلاثة :
الله ، محمد ، على •
أو أربعـــة :
على ، فاطمة ، الحسن والحسين •
أو خمسة :
محمد ، على ، فاطمة ، الحسن والحسين ،
أو ســـتة :
الله ، محمد ، على ، فاطمة ، الحسن والحسين ،

أو قرص عسل النحـــل (٢) ، أو درويش ، وبينما يتمثل الله وزهرة

---

(١) الراكى : مشروب تركى مثل « الكونياك » ويستخلص فى العادة من الزبيب المغلى والمضروب باليانسون •

(٢) نسبة الى شكله السداسى •

« التيوليب » مع الهلال وكذا آدم وحواء فى العدد ستة وستون ، فان القرآن يتكون من ستة آلاف وستمائة وستة وستين آية · وقد ورث محمد (صلى الله عليه وسلم) عليا شمائل سبع · ويوجد سبع من ذوى المراتب هى :

البير (الشيخ) الرهبر (القائد) ، المرشد ، المصاحبان ومساعدا المصاحبين « الاش » (١) وخلقت الشمس فى ثمانية أطوار والتسعة مقدسة أيضا · والاثنى عشر هى الاثنا عشر أماما ·

وأبيض الراكى من خلطه بالماء ، وكذلك محمـــد أبيض ، والطريقة خضراء (٢) ، وعلى أحمر ، وفاطمة سوداء ، والحســن أصفر والحسين وردى اللون ·

وشربنا ، ومـددت قامتى على طولها فى كرسى « الفوتيل » ، وأغلق « أكسو » الشيش بجذبه الى أسفل · وكانت تأتى من الشـــارع بين الحين والآخر ضوضاء ، وندت عن الظلمة الخفيفة شىء من البرودة ·

وجلسنا هكذا وقتا طويلا بلا حراك ، وحملقت بعينى فى الحائط المواجه لى ، وكلما أمعنت النظر ، كلما ازداد تأكدى من أن هناك رسوما وعلامات تتحرك ، تتراءى لعينى فوق الحائط ، ولاح لى أنها طليت فيما بعد ، وتخيلت بادىء ذى بدء أنى أرى فوق الحائط شقوقا وأخاديد · وعما قليل بدا لى أنى أبصر حروفا مفردة لا ترى الا بزاوية العين · وعندما نظرت الى الحائط مليا ، رأيت ظلالة تفككت وانطمست · ووددت لو أنى أسأل « أكسو » عن سر كل هذا · ولكنى أحجمت ، اذ رأيت أن سؤالى عنها سيكون مضحكا ، بمجرد أن أفصح عنه ·

وكان « أكسو » لا يزال قاعدا دون أن تبدو منه أية حركة كما كان لا يزال ممسكا بكأسه بين يديه ، وقد ذاب ما فيها من ثلج · وكان هو الآخر يحملق فى الحائط · كما لو بدا أنه يشاهد شيئا ما ·

---

(١) كلمة تركية وتعنى الزوج أو الرفيق أو القرين بمعنى الشبيه ·
(٢) تعنى طريقة البكتاشية ·

وكنت سابحة فى أفكارى ، حتى أن قشعريرة سرت فى جسدى كله ، عندما لمسنى « أكسو » فسحب يده مرة ثانية ٠

ـــ يبدو أن سنة من النوم قد أخذتك ؟

وهززت رأسى ، وأخذت أروى له ٠

ـــ بينما كنت أسير فوق كوبرى « الجالاتا » رأيت جمعا غفيرا من الناس ، وقد التفوا فى وسط الكوبرى تقريبا حول رجل يستند الى سور الكوبرى ويعزف على آلة « الساز » (١) وكان الرجل يرتدى زى أهالى منطقة « بحر ايجه » ٠ بيد أن الزى كان يبدو وكأنه يرجع الى مخلفات أزياء فرقة رقص شعبية قديمة ، وكان الرجل يصدح بغنائه ويبيع نوتات صغيرة بنصوص غنائية ٠ وكان صوته عذبا رخيما ٠ وكلما انتهى من أغنية ، أمسك اثنتين من هذه النوتات بيديه ، وذب بهما الهواء عن نفسه ، ثم يعرضهما على الواقفين ٠ فابتعت لنفسى واحدة ٠

ثم أخرجت النوتة الصغيرة من حقيبتى ، وأعطيتها ، « لأكسو » ٠ وتصفحها « أكسو » وتلى على بعض نصوصها ، وكانت تتحدث عن الحملان الصغيرة ، والرعاة ، والعشاق ، وأهل الهوى ، والوديان والجبال والأنهار ، وكذلك عن الموت ٠

وفى تلك الأثناء ، حاولت أن أتصور « أكسو » وهو يسير وسط نباح الكلاب فى ثياب أهل الريف ، عبر حوارى احدى القرى التى أبيضت من فعل الغبار ٠ وجعلت أتخيله وهو يعرض نفسه على الناس مخبرا اياهم أنه انسان يستطيع أن يداوى سقام الآخرين ، لو اعتقدوا فيه مجرد الاعتقاد ٠ فرأيته فى مخيلتى وهو يقف فى ميدان القرية ويحمل معه مكبرا للصوت يشبه النفير ، ويعلن فى الناس أنه قد أتى ٠ وتصورته حاملا صندوقا على صدره كهذا الذى يحمله الباعة المتجولون ، وبه مساحيق ومراهم وعقاقير طبية أخرى ، فى زجاجات وعلب غريبة تغرى الناس بالابتياع ٠ وبعد أن يتركه الناس واقفا وحده فى الشمس المحرقة لبرهة ، سيقتربون منه رويدا ،

---

(١) « الساز » آلة موسيقية تشبه العود الى حد ما ٠

صانعين حلقة حوله · ثم يقدم الناس أحدهم داخل الحلقة ليلتمس البرء من سقم ألم به · وسيطلبون من « أكسو » أن يريهم ما يستطيع من المداواة ·

وسيحدقون النظر اليه ويقلدون حركاته · واذا كان فيهم سقيم لابد من اجراء جراحة عليه ، أراهم سيقبضون عليه بأيديهم واذا صاح فيه وصرخ بصوت عال ، فسينظرون الى الطبيب شذرا ، سينظرونه أول الأمر نظرة كره وحنق ، ثم بعد ذلك نظرة تهديد وتحد · وسيقولون له ، ما له يسبب آلاما شديدة لمرضاه ، ان هذا أو ذاك من الأطباء يكون أقل ايلاما منه للمريض ، عند فحصه · ولكن « أكسو » لن يلتفت اليهم ، وسيتم عمله الى النهاية لكى يريهم ما يستطيع من فن المداواة · وسيقترب الناس منه شيئا فشيئا · وبعد قليل من الوقت سينقضون عليه ويمسكون بناصيته ويقولون له ، انهم سيفعلون به الآن مثل ما فعل بصاحبهم ، وان قوى على تحمل الآلام برباطة جأش ـ دون أن ينوح ويبكى ـ فسيصدقونه · وأخالهم ينتزعون السكين من يده ويكشفون عن موضع فى جسده ، ويعطوها لأطعنهم سنا · وسيتقدم منه العجوز فى ثبات واصرار ويقطع بسكينه من جسده قطعة ، دون أن ترتعش يداه ، أو تصطك أسنانه ، فالعين بالعين والسن بالسن · غير أن « أكسو » سيبكى ويعود كما بكى وعوى الذى قبله ·

وسيأخذون الصندوق منه عنوة ، ويقولون له انهم سيداوون آلامهم بأنفسهم · فهو لم يستطع الى هذا سبيلا ، ولن يستطيعه أبدا · وسيتركونه وحيدا فى الشمس القائظة ، ويتراجعون الى الوراء ثم يختفون فى منازلهم ·

كان الجو خانقا فى الغرفة ، ولذا فقد تحاشيت أن ألمس « أكسو » وخلعت القفطان ، وأدرته على وجهه الآخر · ثم ادثرت به مرة أخرى ·

وعندما دارت برأسى هذه الأفكار ، كان « أكسو » يقرأ سطرا من أغنية ورد فيه اسم طائر « العنقاء الزمردية » (١) ·

ـــ ما كنه هذا الطائر ؟

ـــ انه طائر أسطورى ، له اسم ، ولكن ليست له هيئة ·

---

(١) التسمية العربية لطائر أسطورى ·

ـــأيشبه طائر « السيمورج » (١) ؟

ـــ نعم ، قريب الشبه منه ، سوى أنه يوصف بطريقة أخرى ٠

ـــ كيف هــذا ؟

واتكأ « أكسو » بذراعه على مسند « الفوتيل » الذى أجلس عليه٠

ـــ ان له هيئة ثلاثين طائرا ٠

وكثيرا ما أردت الخروج للاستحمام ، غير أن معظم الشواطىء كانت نائية جدا ، حتى أنى كنت أستحى أن آخذ على عاتقى سفرة بالأتوبيس ٠ فى حين أن كل ما هو سهل الوصول اليه يتبع النوادى أو الجمعيات الاتحادية٠ أما فى أيام العطلات الأسبوعية ، فغالبا ما كنا نخرج جميعا ، « سيفيم » و « تورجوت » وأنا الى شاطىء الاستحمام العام على ضفة المضيق ، حيث كنا نمكث طوال اليوم ٠

ان المدينة محاطة بالمياه من كل جانب ، وأينما كنت أقف ، كنت أرى البحر أو المضيق أو خليج المياه العذبة ٠ وقد كان هذا هو الشىء الفريد الذى يبعث فى نفسى الراحة والهدوء ، كما كنت أعتمد على هذا فى تحديد وجهتى فى المدينة فى كثير من الأحيان ٠ وفيما عدا ذلك كانت ثمة علامات للتعرف على الأماكن كالحوانيت ، والحدائق العــامة والمســاجد ، وهى أماكن زرتها فى الأسابيع الأولى ٠ ثم نسيت الطريق المؤدى اليها ٠ وكان يحدث لى كثيرا أن أكف عن السير فى ذهول وأتلفت حولى ، فألاحظ أنى كنت فى هذا المكان من قبل ٠ ولكنى سجلته فى ذاكرتى بصورة مختلفة ، كنت ألاحظ أيضا أنى رأيته رؤية أخــرى وكأنى لم أره قط ٠ وكان هــذا الافتراض صحيحا فى بعض الأحوال ٠ وكنت قد تعودت أن أقــارن المناظر الحقيقية مع الصورة التى فى ذهنى ، فأرى أن الصورة التى ارتسمتها فى مخيلتى غير واضحة المعالم ، وطغت عليها الصورة الأولى أو صححتها فى

---

(١) كلمة فارسية وهى تقابل نفس التسمية لهذا الطائر الاسطورى ٠ وتتكون من مقطعين : « سى » بمعنى ثلاثون ، ومورج بمعنى « طائر » ٠ فالكلمة تعنى ثلاثون طائرا ٠ وقد تعرض لذلك الصوفى الفارسى « فريد الدين العطار » فى كتابه « منطق الطير ؛ قارن : تقديمنا لهذا الكتاب ، ص ١٤ وما بعدها ٠

أقل تقدير · وأثار هذا الشكوك فى نفسى · وبت أرتاب فى مقـــدرتى على موضوعية الانطباعات الأولى · وكنت ادس صورا لأمثال هذه الأماكن فى الكتب التى أكون بصدد قراءتها ، حتى تكون هذه الأماكن فى مواجهتى دائما وحاولت أن أطرد هذه الانطباعات الأولى بعيدا عن مخيلتى · ولكنها كانت تعاودنى فى أحلامى مرة أخرى ·

وكلما ذهبت الى « الحانوت » لكى أقابل « ارزيفر » ـ أحد شعراء العصر الثالث ـ كنت أتوقع صورة معينة ، بعد أن أعرج الى الحارة التى يقع فيها « حانوته » ، تختلف عن الصورة التى فى ذهنى ولم يكن الاختلاف كبيرا ، حتى أنى لم أستطع أن أتعرف على « الحانوت » وانما كان الاختلاف كافيا لأن يجعلنى أغمض عينى لهنيهه ، وأعيداخراج الصورة فى مخيلتى ، مرة ثانية · كما يتراءى لى أن « أرزيفر » ورفيقه الأرمنى يختلفان فى الشكل، عما هما عليه فى مخيلتى منذالمرة الأولى ·

وفى معظم الأحايين كنت أجد هذا الأرمنى وحده هناك ، أما « أرزيفر » فلم يأت بعد ، فقد كانت له حجرة على سقف حانوته يجلس فيها كل وقته ويكتب ، دون أن يعكر اشتغاله بالتجارة صفو وحدته ، وفى الأوقات التى أجد فيها « أرزيفر » هناك ، كان يطلب لى القهوة ، ثم نتبادل بعد هذا أطراف الحديث · وأثناء حديثنا ـ كان يلفت نظرى الى التجديدات اللغوية التى ترد فى قصائده ، والتى ما كان لأى انسان آخر أن يشرحها لى · ووعدته بأن أترجم له شيئا ، أو أن أحاول على أقل تقدير · وكان الجزء الأول من كتابه يحمل عنوان « شجرة القرنفل الراضخة لقوة الجذب » · وتمنيت أن لو كان فى مقدورى أن أنقل بعض تعبيراته الى لغتى على الرغم من أن كثيرا منها بدا لى مستهجنا مبتذلا ، ما ان فسر لى معانى كلماتها ·

وعندما كنت عند « أرزيفر » فى المرة الأخيرة ، أهدانى لوحة فنية عليها طائر بحروف غير منقوطة ، وتوجد فى الجانب الأيمن العلوى من الصورة ـ أى فوق ذيل الطائر ـ باقة من الورود ، رسمتها يد الفنان بطريقة واقعية ، فأبدعت · وتبدو هذه الباقة كالطلل المتبقى عن عصر بائد · وكان هذا الطائر يشبه « كوكبة » الحمام ، ولكنى لم أستطع أن أقطع اذا كانت هناك علاقة بينه وبين الجزء الثالث من « كليلة ودمنة » الذى يحمل نفس الاسم · وقد

شملت الطيور كل تصوراتهم • حتى غزت هذه الأفكار المساجد • وقدمت هذه الصور رؤوس أناس أو براعم الزهور • ويقال أن الطيور كونوا أمة (طائفة) أسسها ملكهم سليمان ويجتمع الدروايش مرة فى العام مع أمة الطيور هذه فى تكاياهم لمدة أسبوع ، حيث يأكلون ويشربون ويتحدثون سويا •

ـــ انهم يحبون الطيور ، لأنها تصور الروح ، ان من يلمسه ظـــل طائر « الحما (١) ، فانه ينتقل الى مقام « بادى شـــاه (٢) •والحـــاج بين الطيور ، هو طائر اللقلق » ، ويأتى هذا الطائر ، من مكة ويلبس أحيـــانا قلنسوة ، على رأســـه ، ويقال ان طائر « الكركى » (٣)• قد ورث صوته ، عن « على » ، وأن « الحاج بيكتاش الولى » أتى الى بلاد الأناضول على هيئة حمامة ، وأن الديك يطرد الأسد والبرق ، وطائر الكروان لا يزال يبحث عن الوصـــل مع الله •

وورد فى احدى قصائد « ارزيفر » قوله « شـــارع أغانى طيـــور العرعر » (٤) وعندما أهدانى اللوحة ، سألته ، اذا كانت لديه علاقة خاصة تربطه بالطيور • وكان رده بأن الطيور لا يشق عليها شىء • فالطيور تطأ أجساد الموتى التى تغطى وجه الأرض بأقدامها ، دون أن تلقى أى عنـــاء أو مشقة •

وكان من رأيى ألا أمكث فى « حانوت » أرزيفر أكثر من نصف ساعة • فكثير من الناس كانوا يترددون عليه كل الوقت لحاجة يبتاعونها • ولما كان الحانوت كغيره من حوانيت البازار صغيرا فقد جعلنى هذا أنصرف مبكرة ، حتى ولو طلب منى « ارزيفر » أن أبقى معه •

وضربنا موعد تلاقينا فى مقهى « الشط » فى ضاحية « بيبك » وكانت هناك مناضد ومقاعد مصفوفة فى صفوف متراصة فوق ممر مفروش بالزلط ،

---

(١) من طيور التصوف ، وقد اعتقد الفرس قديما أن من يطير اليه هذا الطائر فانه سيتولى الملك •

(٢) كلمة فارسية معناها كبير الملوك •

(٣) طائر كبير الحجم ذو سيقان طويلة ، يعيش فى مناطق البحيرات على النباتات• ويتصف بجمال ريشه • وموطنه فى افريقيا والشرق •

(٤) طائر نسب اسمه الى نوع من النبات ، ذو رائحة طيبة ينمو فى الاناضول •

وتمر على أحد جانبيه السيارات وعلى الجانب الآخر السفن • وحين وصلت المقهى ، وجدت « سيفيم » « وآيتين » هناك جالستين • وكان النهار يزحف نحو الغروب ، ولذا كانت الطرقات على جانبى شارع الشط غاصة بأناس قد خرجوا للنزهة ، وكانوا يتهادون فى سيرهم من كل جانب ، ضاحكة ثغورهم ، ومستبشرة وجوههم وممتلئة قلوبهم غبطة وحبورا ، وكأنهم يغادرون بيوتهم لأول مرة فى يومهم ترافقهم دراجات أطفالهم التى تحدوهم السير ويتسرب دوى أجراسها الى أحاديثهم •

وهناك فى تلكم المقهى كانت جلستنا ، فى البرودة الدافئة التى تهب الينا من المضيق • والحرارة الباردة التى تتصاعد من الأرض • وسرحنا بأبصارنا الى صفحة الماء التى كانت تمتزج بألوان مختلفة بشكل دائم ، كلما كانت الزاوية التى يقابل فيها الضوء صفحة الماء أكثر انعطافا • وقالت لى « سيفيم » أننى ربما يحل بى التعب والضعف ، حتى أنى لن أقوى على قضاء الأمسية معهما ، وأن علامات النوم ترتسم على محياى فى كل لحظة ، وأن البثور قد أخذت تظهر على رجلى مرة ثانية وأضافت :

— انك تهيمين على وجهك كثيرا على غير هدى • ما أظن أن قد بقى شيء فى المدينة كلها ، لم ترينه الى الآن ؟ ان الأوان الذى نحن فيه الآن ليس بالوقت المناسب ، حتى تتفرق بك السبل هكذا ، وانبرت « آيتين » أيضا تقول :

— يجدر بك أن تلبسى حذاء حديديا ، وتحملى عصا من حديد أيضا ، أو تركبى حمارا وتتظللى بمظلة ذات أهداب طويلة ، فالسماء من نحاس وتغنى •••

وانفجرتا ضاحكتين ، ثم ربتتا على كتفى ، وقدمتا لى الطبق المليء بالفستق • وخيل الى أن حركة المياه تؤثر على طريقة حديثهما • وجعلتا تقصان على أطرافا من عطلتهما المنصرمة التى قضياها سويا فى منطقة « الايجايس » ، وقالتا « انهما تقطنان بيتا لا يبعد عن البحر الا بمسافة خمسين مترا • وأن البيت كان غاية فى النظافة والنقاء • وبه حجرة كبيرة لطيفة • وأنهما كانتا تمكثان فى فراشهما حتى وقت متأخر من النهار • ثم تخرجان بعد الاستيقاظ مع « أورهان » ـ أخى « آيتين » ـ الى منطقة

الصخور ، لكى يغوصوا فى الماء وراء أسماك « أم الحبر » (١) و « قنديل البحر » (٢) ٠

وكان ما يندردون من طعام هو من الخبز والفـــاكهة ٠ كما كانوا يســـتزيدون بالبطيخ ٠ وأنمتا الى أنه كان بقاربهمــــا موقد كحـــولى ، استطاعتا أن تطهيا عليه الشاى ٠ أما فى المساء فكانوا يدلفون جميعا الى أحد المطاعم ، وهناك يتناولون عشاءهم ، عندما تنحدر الشمس الى المغيب ، كما يفعل الصائمون فى أيام الصيام ٠ ثم يخرجون بعد ذلك للنزهة والتريض، أو يذهبون الى « سينما » فى الهواء الطلق ، وقالتا لى أيضا ، ان ثلاثتهم حملهم الصيادون معهم ذات مرة ، وكان الوقت ساعتئذ ليلا ، ورأوا كيف تطرح شباك الصيد ، ثم تجمع مرة ثانية ٠ وبعد هذا الطرح ، وذاك الجمع ، اخذ الصيادون يقصون عليهم الأساطير والأقاصيص ، لأن ارسال المذياع كان ضعيفا جدا ٠ واذ هم هكذا ، حتى تبين أنهم قد توغلوا عبر الميـــاه الاقليمية اليونانية ، بلا ضوء معهم ، ولا موتور بقاربهم ؛ ولم يعودوا الى البيت الا وقد انبلج الصبح ٠ وعندما وصلوا البيت ، اعتقدوا جميعا أنهم يرون عقربا يجلس فوق شجرة التين أمام نافذة حجرتهم ٠ وتسلق أورهان « الشجرة » وأسقط من عليها هذا العقرب المزعوم ٠ وما ان اســـتقر الى الأرض ، وجدوا أنه لم يكن عقربا قط ، وانما كانت ثمرة جافة بـــدت فى مظهرها مع سماء الصباح وكأنها عقرب ٠ ولما هوت الثمرة الجافة أمامهم الى الأرض ، صاحوا فى جزع وهلع ، حتى استيقظ أهل المنزل من سباتهم ٠ ولما رأوا منهم هذا ، لم يلوموهم أو يعنفوهم وانما قالوا لهم ، أنهم كانوا سيستيقظون على أى حال ٠ وختمتا بأن هذه كانت المرة الفريدة التى كانوا فيها سويا على البحر ٠ ثم طلبتا منى أن أكون معهما فى هذه المرة ، فى شهر أغسطس أو نحو هذا ، فان أتيت معهما ، فلسوف أبقى وقتا أطول ٠

وأخذت الشمس تنحدر ناحية الغرب ، وتختفى تحت طبقات السحب ٠ ونطق شخص ما من ورائى بكلمة « كوما بارا » ، وثقلت على مسامعى ، وأحسست فى أذنى بدوى ، كمن يسقط قطعة نقود معدنية فى فتحة حصالة ٠

---

(١) ضرب من الرخويات سريعة التطور ٠ تتزود رأسها بأربع أو خمس أذرع ولها قدرة على الامتصاص لكى يسهل عليها الايقاع بفريستها ٠

(٢) نوع من الاسماك أيضا ٠

فقمنا لننصرف ٠ وقطعنا جزءا من الطريق على طول شارع الشـــط ، ثم انعطفنا بعد ذلك في سيرنا وارتقينا سفحا جبليا يؤدى اليه شـــــارع غير مسفلت ، حتى انتهينا الى مجموعات من الوحدات السكنية ، والتى تبـــدو جديدة نسبيا ٠ وفى أحد هذه المساكن الكبرى كانت شقة « آيتين » فلقد ورثت عن أبيها نقودا ، كانت كافية لشراء هذا المسكن ٠

وكانت الشقة مجهزة بالأثاث الفاخر ، كهذا الذى يرى فى شـــبابيك العرض فى كل مكان ، فضلا عن احتوائه على سفرة فى حجرة الطعام تتكون من قرص نحاسى كبير عليه نقوش ، وحامل خشبى منخفض يمكن طويه ، وبجانب هذا كله كانت توجد أرائك ٠

واقتعدت الأرض أنا و « سيفيم » ، بينما أخذت « آيتين » ـ بعد أن أعدت السفرة ، تحضر الخبز والزيتون مع ضروب مختلفة من الكعك والفطائر ٠

ـــ فيم أنت والشراب ؟

وأحدقت النظر الى « آيتين » لأسبر أغوارها ٠ وكانت تقف بالباب ، وتخفى شيئا وراء ظهرها ، ولم أستطع أن أفهم مقصدها ٠ وجعلت « سيفيم » ترسل طرفها خارج النافذة ٠

وأخرجت « آيتين » من وراء ظهرها زجاجة من « الفودكا » ، فأغربت فى الضحك بصوت عال ، ثم وضعت الزجاجة فوق المائدة وردت أقـــداح الشاى المعدة الى مكانها ثانية ، وعادت بكؤوس أخرى وأشطار من الليمون ٠

وصبت « سيفيم » كئوسنا ٠ وتلاقت مع بعضها ، كما يفعل الندماء ٠ وبعد الرشفة الأولى أخذت أتنفس بصوت عال ، وذلك لأنى لم أكن قد احتسيت « الفودكا » منذ أمد بعيد ٠

ـــ لتتناولى كثيرا من الليمون ، عندئذ لا يضيرك الشراب شيئا !

وقدمتا لى على التناوب ، بعضا من أشطار الليمون ٠ وكأنى لا استطيع أن أتناولها بنفسى ٠

ـــ ما عليك الا أن تأكليه ، كلى فقط ، والا فلن تقوين على احتمال الشراب ٠

ودفعت « الفودكا » بالحرارة الى وجوهنا · وأحسست بقطرات العرق وهى تتكون فوق الشفة العليا · ولكن « آيتين » حالت دون فتح احـــدى النوافذ ، فقد خشيت أن يسمعنا الناس ، عندما نكون فى غمرة الشراب ، وأنه لن يخطر ببالنا عندئذ أن نغلق النافذة · ورحنا فى عناق حار ، وتبادلنا تهانينا بالحفل · وانبريت أقول أنه من المعتاد عندنا أن نشرب فى صحبة من الندماء · فأجابتا قائلتين أنهما أيضا تشربان منذ سنوات عدة ، وان كان شربهما ليس مطردا ، لكنهما تشربان بانتظام ، حتى أدمنتاه ، مع تقدم سنى عمرهما · اللهم الا أنهما تشربان بحذر بالغ واحتياط شديد ، فليس لأحــد أن يعلم من أمرهما شيئا · وأردفتا أنهما تثقان بى بعض الشىء ·

وأخذت آيتين « تقص كيف أنها كانت تحضر الزجاجة تلو الأخرى الى شقتها لأسابيع طويلة ، دون أن تدع لجيرانها فرصة أن يلاحظوا عليها شيئا · فكانت تشترى كل زجاجة من « محل » يختلف عن المحل الآخر · وفى أغلب الأحيان من حى « الجالاتا » · وأثناء الشراء كانت تحتاط من أن لا يراها أحد من معارفها ·

وكانت – وهى تقص كل هذا – قد انخرطت فى الضحك حتى اغرورقت عيناها بالدموع · وكانت « سيفيم » – وهى على دراية أيضا بكل هـــذه الأقاصيص – تقاطعها مرات عديدة ، لكى تقوم لها خطأ ، أو تدفعها الى سرد أكثر تفصيلا ، كلما تصورت أنه سيفوتنى شىء ·

ولما انتهت هذه الأقاصيص – وكان على أثناء سماعها أن أنهى بعضها بنفسى ، عندما كانت « آيتين » تسأل على سبيل المثال عما أعتقد فيما فعلته بعد ذلك · وكنت أقول لها ما ظننت أنها فعلته ، فتعقب « آيتين » « وسيفيم » بقولهما اياى « أصبت ! أو أخطأت ! » ، ثم تلقيا على بسؤال جديد كنت أرد عليه ، من باب التخمين ، أحيانا ، وأحيانا أخرى فى ضـــوء الحكاية المنصرمة · ثم رأيت أمامى الزجاجات ، على المنضدة كما هى – عندما انتهى كل هذا ، وعدتهما بأنى سأساعدهما فى تدبير الشراب فى المرات القادمة ·

وانسابت – فى أرجاء الحجرة – أنغام موسيقى أناضولية · وأشارت كل من « آيتين وسيفيم » الى ايقاع ونغم الموسيقى ، وأخذتا تطرقعان بسبابتهما

على راحة الأيدى ، تستخدمانها بمثابة « الطبلة » وما انفكتا تنبهانى الى خصوصيات هذه الموسيقى • وما كان بى أن أفطن اليها وحدى • وقبعتا على كعوبهما تترنحان برأس مائلة الى الوراء ، تبرز من منكبيهما وتتهـــاوى ذراعيهما • وشاركت بدورى ، بأن نهضت واقفة وأخذت فى يدى منديلا ، وانخرطت أحاول تقليد الخطوات القوية للرجال الراقصين • ثم أخذت أدور فى دائرة حول الاثنين فى هيئة من يذب عنهما الخطوب • وكنت فى شكلى ، وكأنى سألصق على جبهتيهما أوراقا نقدية • وفجأة انقلب كل شىء رأسا على عقب • فقد تدحرجنا جميعا على الأرض ، وأغربنا فى الضـــحك فى وسائدنا التى بقينا نحتضنها • ثم امتدت أيدينا الى الكؤوس ، وسكبنا ما فيها من شراب فوق السجادة • ووجدت نفسى راقدة مع « آيتين » ذراعا بذراع ، وساقا بساق ، وأخذت « آيتين » تتحسس مواضع فى جسدى •

ـــ يجب أن تزيلينه فى الحال ! هلم معى الى الحمام • فنحن كذلك يجب أن نزيل شعرنا • وهذا يتم بسهولة كبيرة • فنحن نغلى الســكر مع عصير الليمون حتى تتكون منه عصيدة • وهذه نضعها على الذراع والسيقان• ولا تتوقعى أن هذا يسبب آلاما كثيرة • وعندما ننزع عنك العصيدة ، فسوف نغنى لك • وبعدها ستصيرين ملساء وجميلة • أما المواضع الأخرى ، فسوف نحلقها لك •

ثم انتصبنا واقفين ، وأمسكتا بى من يدى ، ورجلى ، وسحبتانى على الأرض صوب الحمام • وهنا فهمت ما كانتا تضمران بين أحشـــائهما • وحاولت عبثا ، أن أصرفهما عن هذا الأمر ، بيد أنهما لم تعيرانى آذانا ، وشرعتا فى الغناء • وفى الحمام جعلتا تبحثان عن منشفات ومناطق • حتى تغلانى بها • فندت عنى ضحكة تهوينا للموقف • وجعلت أذود عن نفسى فى الوقت نفسه أيضا • وهمت « آيتين » بأن تضع العصيدة ، بينما كانت « سيفيم » تحمل فى يدها شفرة الحلاقة بالفعل • وأخذت أضرب الهواء من حولى على غير هدى ، وأتشبث بالبلاط • ووقفت آيتين « وسيفيم » على رأسى بأفواه فاغرة عن آخرها ، وأسمعتانى صياحا مروعا ، وعبثا حاولت أن أدفعهما دفعا ، أو أن أتملقهما ، لكنهما كانتا بعيدتين كل البعد عن الدفع والتملق •

ـــ سوف تصبحين جميلة نضرة ! سوف تصيرين صبيحة مليحة !

وبدأتا تشمران عني ثوبى ، ووددت أن أنادى بأعلى صوتى ، أكثر مما أستطيع • وأخذت أصيح :

ـــ ويحكم أيها الأوغاد ! سوف يسمع النـــاس هرجنا ومرجنا ، وسيعلمون كل شيء •

جعلت أكرر هذا القول عدة مرات ، حتى طغى صوتى على صـــوت غنائهما • وعندما رأتا هذا ، أطلقتا سراحى فى الحال • وملأنا كئوسنا مرة ثانية ، وافترشنا الأرض ، وجعلت أقذفهما بحبات البندق •

ـــ ان برأسيكما عصفورا ! ! (١)

ولم يبد عليهما أنهما فهمتا هذا التعبير ، اذ أنه لا يستعمل فى لغتيهمـــــا •

ـــ ان برأسيكما عصفورا كبيرا ضخما !

وأتيت بحركة من يدى ، أبين بها حجم هذا العصفور •

ـــ ان برأسيكما ديكا أبيض بدون أرجل ، انه الببغاء ـ الذى خلقت الدنيا منه ـ انه الملك الطاووس لليزيديين ، يجلس فى مخكما ويصيح •

ونقرت باصبعى على جبهتى ، فراحتا فى تضاحك طويل ، وانسابت أنغام الموسيقى من أركان الحجرة مرة ثانية • وأحضرت كل من « آيتين » « وسيفيم » فى هذه المرة « شماعات » من الدولاب ؛ وبدأتا ترقصان بها • وكانت الموسيقى تتراسل من اسطوانة قديمة ذات طـــابع من نوع رقصـــة « التانجو » • وبعد هنيهة ضمتا « الشماعات الى صدورهما » ، وجعلتا تقفزان فى ركض وتواثب ، وبسحنات مقلوبة ، ووجوه ممتقعة • وأخذت مكانى بالقرب من الاسطوانات • وظللت أضع « اسطوانات جديدة » دائما ، فانسابت الموسيقى متجددة دائما ؛ وكانت فى مجموعها اسطوانات أناضولية •

---

(١) هذا ما يقابل فى العربية المصرية الدراجة « أنتم داقين عصافير » كناية عن الغباء والتهور •

وجعلت أصفق بيدى ؛ وأصيح بين الفينة والأخرى فى « سيفيم » وآيتين لكى أستثير حميتهما ٠

وعلى حين غرة ـ بدأتا فى الاستدارة ، على طريقة الدراويش (١) المولاويين ، وهما تبعدان الشماعات عن جسديهما ٠ وأخذتا تسرعان فى استدارتهما رويدا ، حتى اذا بلغ السيل الزبى صاحتا فى صيحة طويلة : « هو وو » !

وملكنى الحماس أيضا ، وعندما هممت بالقيام لكى أستدير مثلهما كسرت « سيفيم » الشماعة ، التى كانت تحملها ؛ وانفجرت بالبكاء ، وتهالكت الى الأرض منتحبة ٠ وقمت أنا و « آيتين » بمواساتها والتخفيف عنها ، بل وملاطفتها ٠ وأمسكنا بيديها وسألناها اذا ما كان ينبغى علينا أن ننقلها الى الحمام ٠ غير أنها لوحت بيدها ، أى لا ٠ وواصلت بكاءها فى صوت عال ، الى أن حملناها عن الأرض ، ونقلناها الى الفراش حيث راحت فى سبات عميق وسط نحيبها ٠

عندئذ ـ نقلت الكؤوس أنا وآيتين الى المطبخ كرة ثانية ٠ وقمنا بغسلها بعناية حتى تزول منها رائحة الكحول ، ثم دلفنا بعد ذلك الى الحمام، ووقفنا سويا تحت « الدش » ٠

الآن ولوا أيها البائسون ولوا !
وليكن فى علمكم
أن الديوان العالى قد أرجىء حتى الغد !

ان ما أعرفه حتى الآن عن « البكتاشيين » كان جد يسير ، فلم أعرف أن النسوة كن يشتركن أيضا فى شعائرهم التى كانوا يقيمونها سرا ، أو كانوا يشربون « الخمر » أو أنهم تجاوزوا القول بتحريم الصور ٠ وقد اتهموا بتدنيس الحرمات والسعى الى قلب نظم الحكم فضلا على سوء استخدام السلطة الذى فرضوه على فيالق الانكشاريين ابان عهد « الوصاية » دون وازع أو ضمير ٠ وكان لديهم تعبير خاص بهذا ـ عهدهم فى هذا كعهد الشيعيين ـ وهو أن

(١) نسبة الى طائفة مولانا جلال الدين الرومى (مات سنة ١٢٧٣ م) ٠

الانسان يحب أولئك الذين يحبون محمدا وسبطه ، ويصادق من يصادقهم ٠

وتعود نشأة هذه « الطريقة » (١) ـ كما يزعم ـ الى القرن الثالث عشر ٠ أما طوائف العلويين فيحتمل نشأتها قبل هذا بوقت طويل ٠

وقد سعى « البكتاشيون والعلويون » ـ على نقيض من بقية الطرق الصوفية ـ الى الاحتفاظ فى آدابهم بلغة تركية صرفة ، كما شاعت فى علومهم ومواعظهم تصورات عديدة ، تسربت من العقيدة التكهنية البالية ٠ وعندما أسست هذه الطريقة انضوى تحت لوائها أعضـــاء من طوائف الحرفيين ، التى نشأت أصلا فى اطار اتحادات من الرجال ٠ وانضمت اليها الجماعات البابائية الثورية من أجل اصلاح المجتمع ٠ وقد ترك هذا المزيج من معتنقى الطريقة بصمات على شكل الطريقة ذاتها ٠ وفى عام ألف وتسعمائة ثمانية وعشرين صدر « فرمان » بحل جميع الطرق الصوفية فى البلاد ٠ وردا على مبدأ الولاء والطاعة للشيخ فرقت السلطات فى البـــلاد بين الطريقة وبين مشايخها ٠ ومنـــذ ذاك الحين وهنـــاك مجموعة من المطبوعات ، صدر بعض منها عن بيكتاشـــيين ســـالفين أخذتهم النخـــوة ، فحملوا على عاتقهم مهمة تفسير جوهر الطريقة وتحليل أسرار شعائرها ٠ وقد قرأت أحد هذه الكتب ، عملا بمشورة « انجن بك » ، ولكنى لم يخامرنى الشعور قط ، بأننى قد توصلت بقراءتى هذه الى معرفة شىء فى الحقيقة ٠

وعكفت على الاشتغال بتاريخ الطريقة ٠ بيد أنى كلما حاولت جهدى أن انطلق من الناحية التاريخية ، ما ألبث أن يمتلكنى شعور بالنفور والعزوف عن الاستمرار والمواصـــلة ٠ فأعود كـــرة أخرى أهيم على غير هدى فى قراءاتى ، وأدهى من هذا أن « سيفيم » كانت تهز برأسها استنكافا ، كلما رأتنى أدلف الى فناء المنزل وأحمل بين يدى خمسة من الكتب على الأقل ٠

لم أكن لأتصور أن تنظيما كتنظيم « البكتاشية » يمكن أن يمحق من على قيد الوجود بمجرد قرار حكومى ٠ ولم أكن لأستسيغ أن يلغى هذا التنظيم بهذه السهولة وهذا اليسر ، دون أن تتمخض عنه بقايا وأذناب تواصـــل حياتها فى الخفاء ـ وهذا التعبير كان يستعمل أيضا فى صدد الحديث عن

(١) تعنى الطريقة البكتاشية ٠

« الامام المهدى » الثانى عشر ـ • لقد كنت أسمع الناس يتهامسون فيما بينهم ما فحواه بأن هذا أو ذاك يعلم شيئا عن هذا التنظيم « أو على اتصال به من قريب أو بعيد • غير أنى ما أن اقتفيت أحد هذه الآثار لم أجد شيئا سوى الافتراضات الواهمة والاشاعات الكاذبة وسوء الفهم • وقد نصحنى « انجن بك » بالانصراف عن مواصلة البحث فى هذه الناحية • وقال لى : ان هذا البحث لن ينجلى عن أمر قط ، ولا سيما بالنسبة لى • وقد كنت أسائل نفسى فى كثير من الاحيان ، أليس من الأفضل ان أطرق عملا آخر ، غير هذا الذى أعكف عليه هنا ؟

وكنت دائما أفهم جزءا واحدا ، وأما ما تبقى ، فقد كان قائما على مزاعم ومظان ، بنيت على هذه الأسرار المزعومة ، التى كانت لا يمكن ان تنكشف قط ، ولو تطلب الذود عنها الحياة • وهى بدورها لم تنل حظا وافرا من البحث فى المطبوعات الحديثة • ويبدو أن الأمر كان على شاكلته هكذا ، وهو أن المعرفة كانت توصل الى « مريديها » على مراحل ، حتى ادى الأمر الى أن من السالكين من اعتبروا انفسهم شيئا آخر يختلف تماما عما ينبغى أن يكونوا عليه • ولكن الأدب ظل حكرا على الطقوس الدينية ، فكانت تغنى أشعارها مصحوبة بموسيقى المعازف • وقد كان هذا تقليدا جاهليا ، بقى فى الخفاء ووصل الينا فى الخفاء أيضا •

وكان يوجد بالمدينة أربع عشرة « تكية » للبيكتاشيين • وقـــد تحطم معظمها فى عهد السلطان « محمود الثانى » (١) ، بعد أن قضى على ثورة الانكشاريين العظيمة ، ودك معاقلهم • ولكن على أية حـــال بقيت المراكز الرئيسية للبكتاشيين فى اقليم الأناضول وشبه جزيرة البلقان •

وجعلت أتساءل من حين لآخر ، ترى ما سيكون عليه الأمر لو شوهد بالعين المجردة • فأخذت أنظر الى ما فى حوزتى من صور • وكانت صور المشايخ المتأخرين التى عثرت عليها فى أحد الكتب تبدو مخيفة مروعة • ربما كان السبب فى هذا هو نوعية اللقطة نفسها • اذ كانت الوجوه تبدو شاحبة واجمة ، وذات لحى كثة • ولكن كان يبرز من فوق تقاطيعها تعبير اتخذ مأخذ الجد ، ألا وهو تعبير الجشع والنهم •

---

(١) السلطان « محمود الثانى » : سلطان عثمانى (١٧٨٥ / ١٨٣٩) • تولى الحكم عام ١٨٠٨ ، وقضى على الانكشاريين فى ثورة ١٨٢٦ •

وقد ادعى أحد (١) الأساقفة السويديين وهو « لوترى » (٢) المذهب فى كتاب حول التصوف الاسلامى ، أن زعيم الطائفة المتصوفة - وهو الشيخ - يعتبر نفسه التجسيد الحى لروح الألوهية ؛ وأنه يأخذ « مريديه » بالبأس والقوة أحيانا ، وبالتعذيب النفسى الوحشى أحيانا أخرى ، وتارة ثالثة يلجأ الى الخداع والتلفيق • وأكد هذا الأسقف أن هذا واحد من النماذج الاجرامية التى وافانا بها تاريخ الأديان على الاطلاق •

والقضية - هى الى أى مدى كان تميز « البكتاشيين » فى سماحهم لأنفسهم التطاول على علاقتهم بالله بما لا يعتبر تعويضا عن الطاعة المطلقة فى مقابل تجسيد روح الألوهية • أليس سبق التنبؤ بالتطورات الاجتماعية التى تجد داخل الطائفة الواحدة ، أو الطريقة الواحدة بديلا عن الامتهان وازدراء من هم خارجها ؟

ان أول مرة سمعت فيها عن « البكتاشيين » كانت فى مناسبة تقول فيها بعض الناس عنهم بعض الأقاويل ؛ ومنها أنهم كانوا يغلقون براميل نبيذهم بسدادات منقوش عليها آيات من القرآن ، وأن اسم « العلويين » أو « كازل باش » وتعنى شيئا كالرؤوس الحمراء - يثير فى نفوس « السنيين » (٣) تقززا واشمئزازا ، ولكن لا علاقة لهؤلاء «باليزيديين» (٤) - عبدة الشيطان - لأنهم ينحدرون من منبتهم فى سلسلة متتابعة من « يزيد » الذى أجهز على حفيد الرسول الحسين بن على •

وفى كثير من الأحيان تبدو المصطلحات جلية واضحة • فاكرام مثوى

---

(١) تعنى الكاتبة هنا المؤلف السويدى « تور اندرى » Tor Andrea ومؤلفه « متصوفة الاسلام » • وقد نشر فى « أوبسالا » بالسويد عام ١٩٤٧ ، وترجمه « كانوس كريدى Kanus Crede » الى الالمانية ، ونشر فى شتوتجارت » عام « ١٩٦٠ » بعنوان Islamische Mystiker

(٢) نسبة الى مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) وكان راهبا المانيا تزعم حركة الاصلاح البروتستانتى •

(٣) أهل السنة •

(٤) نسبة الى يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، قاتل الحسين بن على فى موقعة كربـــــلاء •

الضيف يأخذ صورته فى أن كلمة « ضيف » تترادف تمام الترادف مع اسم « على » ، الذى يعد تجسيدا لروح الله وتجسيدا للنبى محمد · كما أن للضيف رخصة دخول منزل ، ليس به الا نساء · لكنه لا يجوز له أن يسبب أضرارا براحتيه أو بصلبه أو بلسانه ·

جلست وحدى لهنيهة الى احدى المناضد فى مقهى بالشارع أمام مسجد « السلطان أحمد » · وبعد قليل دلف أمريكى وصاحبته وقعدا الى ، ثم أخذا يتبادلان معى الحديث ، وكانت جلستنا فى مواجهة فضاء فسيح ، كان فيما مضى حلبة لركوب الخيل · وأخذ « الأمريكى » يسألنى : هل صحيح أن الأعياد الكبرى كانت تقام هنا أيضا فى العهد العثمانى ؟

وأومأت بالايجاب :

ـــ نعم ! كانت تخرج طوائف الحرفيين ومعهم أهل المجون والهرج والدراويش والنساك والراقصين على الأحبال والحواة ، ولاعبى البهلوانات· فكانوا يتصارعون مع الدببة ، أو يودعون الصبية الصغار فى برميل ملئ بالثعابين السامة ، فيخرجون منه أصحاء سالمين · وكانت القردة تمتطى ظهور الحمير ، والحملان الصغيرة تتراقص طربا على عمود يحمله الانســـان فى راحته · وكان لاعبو البهلوانات يحملون على كل ذراع طبالا ، بجانب ثالث على عصا يثبتونها فوق الجبهة · أما اللاعبون المقلدون من اليهود فغالبا ما استطاعوا الترويح عن جمهورهم بأن لبسوا ثيابا على الطريقة الغربية ·

وضرب الأمريكى على ساقه العارية ضاحكا مبهوتا · وقال : أين نحن من تلكم العهود ، ثم استأنف يقول انه لا يدرى الكثير من هذه الأمور ؛ ولكن لا ريب فى أن ما يعرفه أمر عرضى · وأخذ يقص ما كان من أمر « محمــــد الفاتح » و « ارينا » الحسناء · يحكى أن وزراءه قد أطلقوا عليه السنتهم تعريضا به ، لأنه كان يضيع وقته فى مجالس الفسق والمجون ، ولم يعد يهتم بشئون ملكه · فلما علم منهم هذا ، أمر « بارينا » أن تمثل اليه ، فلما دخلت عليهم ، سألهم جميعا ، هل رأوا فتاة تفوقها جمالا · نفوا بطبيعة الحال أن تكون هناك من هى أجمل منها · فاســـتل سيفه من فوره ، وهوى به على رقبتها ، ففصلها عن سائر جسدها ، هكذا فى سهولة · وأخذ الأمريكى يمرر

اصبعه حول رقبته عدة مرات تمثيلا لهذه الحركة ، وأثناء هذا أنطلق لسانه يقول : « أوخ ٠٠٠ خ ٠٠٠ خ !

فطوقت صاحبته حول رقبتها براحتيها فى خوف ٠ وندت عنها ضحكة مشوبة باضطراب ورعشة ، ولاح أن الأمريكى اعتبر هذه القهقهة مداعبة له من صاحبته ، فأخذ يرفع راحتيها عن رقبتها وراح يلعقها بلسانه ٠

واتفق أن رآه الصبى الصغير الذى يوزع المشروبات فى المقهى ٠ فألفت اليه نظر « صانع القهوة » ، وهو يصيح فى نفسه بقوله : « عديم الحياء » ٠ فأخذ صانع القهوة يسب ويشتم أمامه بصوت عال ٠ ولم يبد على « الأمريكى» وصاحبته أنهما فهما ما كان يقوله الرجل ٠ وكنت أعرف بعض الأجانب الذين يجلسون حولى ، غير أن معظم الوجوه كانت تتبدل وتتغير باستمرار ٠

وكان الأمريكى وصاحبته يقصدان الى « كهوف الصخور البركانية » (١) فى « أورجيب وجوريمى » (٢) ، ثم يواصلان رحلتهما الى « قونية » ، وذلك لأنهما قرءا خبرا فى احدى المجلات المصورة عن « الدراويش الراقصين » ٠ وأزمعا أيضا على رؤية « المولاويين » الذين عادوا يكشفون عن أقنعتهم أمام الرأى العام ، واصلين الى « الحال » التى يتغيبون فيها عن الوجود ٠ فضلا على هذا فان مقبرة « مولانا (٣) موجودة فى قونية » ٠ واستطردا يقولان انهما سوف يواصلان رحلتهما من « قونية » صوب أى اتجاه آخر ، ولا ضير أن كانت نقودهما شحيحة ، فالناس كرماء فى كل مكان ٠

واذ نحن بهذا الأمر ، حتى دلف الينا ماسح أحذية ، يعلق صندوقه على كتفه بواسطة حزام جلدى ،ويحمل مقعدا صغيرا على الكتف الآخر ٠ وكان يدس فى واجهة صندوقه عددا من المناظر الملونة ٠ وكان واحدا منها قد مال عن موضعه ، فبرزت عليه صورة امرأة ذات ثديين كبيرين عاريين ٠ وقدم الأمريكى لماسح الأحذية « حذاءه الموكاسين » (٤) الذى خلعه من رجله ٠

---

(١) كهوف لجأ اليها بعض المسيحيين هروبا من اضطهاد العثمانيين فى العصور الوسطى ٠

(٢) أسماء مدن فى وسط الاناضول ٠

(٣) تعنى هنا مقبرة مولانا جلال الدين الرومى ٠

(٤) حذاء لا كعب له مصنوع من جلد ناعم ، وذو نعل رفيع ٠

وانبريت أتسامر مع صاحبته دون أن نلوى على شيء · وشرع ماسح الأحذية فى عمله ، ولكنه ما انفك يطلع « الأمريكي » على عدد من صـــور أخرى عاريات · وكان كلما غمس فرشاه فى طلاء الأحذية ، أزاح باصبع يمينه الصغير منظرا من هذه المناظر · وصاح فيه الأمريكى :

ـــ يالهول والطول !

ثم انخرط يقهقه من تلافيف حشاه · ويبدو أنه اعتبر ماسح الأحذية هذا واحدا من أولئك الذين يتجرون بأعراض الناس · فتكلف حركة من يستجير من شيء ·

ــ كفى يا هذا ! كفى !

وزاد كلماته تاكيدا وتثبيتا بحركة تنم عن الاكتفاء والامتعاض · فأعاد ماسح الأحذية الصورة فى موضعها مرة أخرى ، وأخـــذ ينظف الحـــذاء فى صمت ·

وعندما انصرف ماسح الأحذية ، سألت الفتاة صاحبها :

ــ ما خطب هذا الرجل ؟

ولم يستطع « الأمريكى » أن يتمالك أعصابه :

ـــ لا بد أن شكلى كان يبدو كشكل من لا يقوى على سبر الأغوار والوصول بالأشياء الى القاع ·

وقرص صاحبته فى ذراعها فى لطف ومداعبة · وبعد قليل جاء الينا « تورجوت » · ولم أشعر بمقدمه ، الا عندما لمست راحة يده منكبى ، وكأنه يستند الى شيء ، وبسط يده الأخرى ليلتقط مقعدا خاليا · ثم أزاحه تحته وجلس · وهتف بالأمريكى مرحبا به هو وصاحبته ، ولكنه جلس موليا لهما ظهره ، فأبان بهذا عن عدم رغبته فى مشاركتهما الحديث · وصار على مقربة منى ، ثم التقط نظارتى الشمسية من على المنضدة ، وعند وضعها على عينيه أخذ يتفرس فى وجهى فى خيلاء :

ــ هكذا الحياة ياعزيزتى !

الكلاب تعوى والقافلة تسير !

ودفع الأمريكى وصاحبته ثمن ما شربا ، ثم انصرفا أخيرا ٠

وودعتهما بعد أن تمنيت لهما التوفيق ، وقضاء رحلة طيبة ، وسارا ، وقد تشابكت أيديهما ناحية « توباكابى » ٠

ورفع « تورجوت » العوينات الزجاجية من على عينيه ، وأعادها مرة ثانية الى موضعها ٠ ثم نأى بمقعده عنى من جديد ٠

وما فتىء يؤرجح رجليه ، ثم أخرج لفافات التبغ من جيب قميصه وقدم لى واحدة ٠ وأخذتها منه ، ثم انتظرت هنيهة حتى أعطانى نارا لأشعلها ، ولكنى ما لبثت أن أطفأتها كرة أخرى ، وذلك لأنى لا أستمرىء مذاق هذا النوع من التبغ الذى يدخنه « تورجوت » ٠

كان ينبغى أن أقول شيئا اثر هذا حسب العرف والعـــادة ٠ ولكنى أحجمت ، وفتحت فمى فى تثاؤب ، وقطعت الأمر دون أن ألوى على شىء ٠

ولم يتفوه « تورجوت » بشىء أيضا ، وانما جعل يمسح بمنديله المطوى على جبهته عدة مرات ٠ دون أن يسيل منه العرق فى الحقيقة ٠ وأحسست اغراء فى نفسى بأن أكتم أنفاسى لبرهة ، ولكنى لم ألبث أن دفعت بالهواء دفعا عن طريق الأنف ٠ وكنا فى مجلسنا هذا نولى وجوهنا شطر اتجاه واحد ٠ وبعد هنيهة أحسست بثقل الهواء ، وخشيت أن تجمد ساقاى فى مكانهما اذا أنا لم أحرك نفسى ٠ فرفعت رجلى من على ســـجاف الكرسى ، ووضعتهما على الأرض ثانية ، ثم جعلت احداهما فوق الأخرى ٠ وظـــل « تورجوت » يتفرس فى وجهى طيلة هذا الوقت ٠ وكان يسدد الى نظراته من طرفى عينيه ٠ وعرفت أنه ليست ثمة فرصة كبيرة أقتنصها ٠ ولكى لا أتعرض لمواقف حرجة أكثر ، أخرجت قلمـــا من جيبى ، ونزعت ورقة من مفـكرتى وسجلت عليها المكان الذى كنت فيه ٠

وراح يقول ان « أبوا سيفيم » ربما يبقيان فى « بورصة » وقتا أطـــول ، وقرأ « تورجوت » ما كتبت على الورقة ، ثم أخذها ودســـها فى جيبه ، ان الاستحمام يمنحهما شعورا بالرضا والهناء ، ولذا فهما يودان البقاء هناك فترة من الوقت لأنهما يشعران بالراحة بقربهم من حمامات الاستشفاء ٠ أنه من الأفضل لهما أن يوطنا نفسيهما على عدم البقاء فى المنزل لأن مآله الى الهدم بدون شك فى المستقبل القريب ٠ فيم عندئذ المجىء ؟

واستطرد يقول ان « سيفيم » سوف تتدبر الأمر مليا ، اذا كان يمكن أن ترسلهما الى « طراقين » (١) حيث يقطن بقية الأقارب ٠

— وماذا عن « سيفيم » ذاتها ؟
— سوف ترحل « سيفيم » الى القرية وتعمل معلمة بمدرستها ٠
— ثم ماذا عنك أنت ؟

وارتسمت فى مخيلتى صورة « تورجوت » و « سيفيم » معا ، وهما فى القـــرية ٠ أراهما من وراء الحجب فى حالة لا بأس بهـــا ٠ فجعلت أتصورهما ، وكل منهما يخلع على صاحبه صفات الوقار والهيبة ، ففى الوقت الذى تقف فيه « سيفيم » أمام السبورة وتكتب بالطباشير المتعـــدد الألوان حروفا أو ترسم الكرة الأرضية سيقوم « تورجوت » بجمع التلاميذ ويحيط بهم فى حذر وعناية كالكلب ، ويجذبهم الى مقاعدهم من آذانهم كلما حاولوا الهرب ٠ وبعد الفراغ من الدراسة ، سوف تقوم « سيفيم » بزيارة نســـوة القرية ، وتقول لهن كيف ينبغى عليهن أن يربين أطفالهن ، وأنه يجب عليهن أن يراعين صحة صغارهن ؛ أما « تورجوت » فأراه يدلف الى مقهى القرية ، ويلعب الطاولة مع رجالها ، ويحـــاول أن يشرح الحماقات التى ترتـــكبها الحكومة ٠

وأجاب « تورجوت » بعد صمت ٠
— ان القرية تضيق على بما رحبت ٠ فالقرية لن تعدم الامكانات والتدابير ٠ وحقيقة الأمر أنها لم تستغل الى الآن ٠

---

(١) الجزء الاوروبى لتركيا والواقع جنوب شرق أوروبا ٠ ويشمل أجزاء من اليونان وبلغاريا وتركيا ٠

ـــ هل لانك نفسك تنحدر من القرية ؟

وأخذت الآن واحدة من لفافات تبغه ٠

ـــ لا ! لم أنحدر من قرية ؛ بل من مدينة تقع فى أقصى الشرق ٠ ولكنى أعرف القرية جيداً ٠

وأعطانى « تورجوت » نارا لأشعل لفافتى ، وأخذ يهز يده بعود الثقاب ، حتى أسودت رأسه ، وهوت الى الأرض ٠

ـــ أواثق أنت مما تقول ؟

ـــ أجل ! من عندئذ ان لم أكن أنــا !

وانتصبت قامته ، وزفر « تورجوت » زفرة طويلة ، حتى بدا كالبهلوان ٠

ـــ ليست المدينة بالمكان المناسب الذى يركن اليه الانسان فى مثــل هـــذه الأمور ٠

ـــ لا تتحدثى بما ليس لك به علم !

ثم زر أجفانه مضطربا حديثه ، حتى لاح لى كالذئب ٠ وهتفت به فى خشونة ٠

ـــ بلـــى !

وأخذت أقص عليه :

فى ذات يوم من الأيام كانت تعيش فى احدى القرى فتاة ريفية ٠ وكانت هذه الفتاة من أجمل جميلات القرية ٠ فقد خلعت الدنيا عليها من الجمال ، ما لم تخلعه على واحدة أخرى من بنات جنسها ٠ وكانت تقع فى حبائل غرام واحد من خيرة الفتيان فى القرية ٠ ولكن حبها لم يكن مقصورا على هذا الفتى المتميز وحده ، وانما كان يصبو اليها ساذج أبله من بلهاء القرية ٠ وكانت هذه الحسناء ذات قلب طيب رحيم ٠ فأخذتها الشفقة على هذا الأبله الساذج ، فكانت تأتيه بالزاد من وقت لآخر ، وهو يرعى أغنامه ٠ واستغل كذاب القرية هذه الفرصة لصالحه ، ووشى بالحسناء المسكينة عند فارسها المميز ٠ فأتاه يقول له :. لقد رأيت عروسك وهى تطارح ساذج القرية مطارحات الغرام ٠ وقد اختبأ عن أعين الناظرين وراء أجمة فى أدغال القرية ! ولم يكد يتم كلامه ، حتى انقض فارس القرية فى اندفاعة شديدة الى هذا الدغل ، وقد استعرت به نار الحمية كأترابه من الأشداء ٠ وهناك عثر على الحسناء ،

التى كانت تحضر من ساعتها للساذج المسكين طعاما ، وهى تفترش الحشائش وتصيخ السمع ، والمسكين يشدو على قيثارته · وألقى فارس القرية بنفسه عليه ، وصب عليه جام غضبه ، ونزع القيثارة من فمه ، وانهال عليه بهـا ضربا ، حتى ترنح وسقط بلا حراك · وأما حسناء القرية ـ وهى عروسه ـ فقد أمسكها من شعرها ، وكرها وراءه كرا عائدا بهـا الى القـرية · فافتضح أمرها أمام الملأ الأعظم من الناس ·

ومن المفارقات الطيبة أن تدخل عجوز القرية فى الوقت المناسب ، وأجلى الخطأ · فقال لفارس القرية الحانق : ان هذا المسكين ما هو فى الحقيقة الا أخو حسناء القرية ، على الرغم من أنه تربى ونشأ فى بيت أناس آخرين · انه نداء الدم الذى أيقظ فى الحسناء والمسكين هذا الحنو الأخوى العميق · ثم خرجت القرية عن بكرة أبيها الى الحقول والمراعى ، حيث عثروا على المسكين لا يزال نائما ، ولكنه كان قد أفاق من غشاوته · فأهداه فارس القرية قيثارة جديدة وقطيعا كبيرا من الحملان ، وقدموا له الطعام فى المساء وسط حفل كبير أقامته القرية لهذا المسكين · أما كذاب القرية الذى بلغ سيله الزبى ، فقد طرد من القرية شر طرده ، ولم يسمح لنفسـه بالظهور فى القرية مرة ثانيـة ·

وحدجنى « تورجوت » فى ذهول ، كأنى كنت أتحدث اليه بلغة غريبة لا يستطيع فهمها · فانبريت أخبره أن « أيزل نور » كانت تلعب الدور الرئيسى فى هذا الفيلم ، وأن لقطات المناظر الطبيعية كانت تبدو غاية فى الجمال ، حتى أنى أشعر فى داخلى بالرضى عنها ·

لا تنثرى حبات القمح لطائر الروح ، فكلما ينفث ريشه سوف ترين وجهك على صفحة أعمالك ···

كنت أحمل الآن معى دائما مفتاحا لمسكن « أكسو » · وبات بمقدورى أن أذهب اليه فى أى وقت من النهار · وهذا ما كنت أفعله فى أغلب الأحايين · فكنت أستلقى على فراشه ، أريح جسدى من وعثاء السفر ، وأقرأ وأدخن من لفافات تبغه ، واذا شعرت بظمأ ، كنت أشرب من المياه الموضـوعه فى الثلاجة · وأحيانا كنت أغط فى النوم غطيطا ، ولا أصحو الا عندما يعود

« أكسو » من المستشفى • وكان هو لا يوقظنى ، بل يتحرك فى بطء شـــديد كيفما استطاع ، ولكنى كنت أحس بوجوده بمجرد أن يلج الباب ، على الرغم من مبالغته الشديدة فى الهدوء • غير أنى أظل مستلقية فى الفراش بعينين مغمضتين ، وقلبى يرسل دقاته فى قلق وانتظار ، حتى يمدد جسده بجوارى ، ويضع وجهه فوق وجهى • وعند هذا الحد ، كنت أفتح عينى فى عينيه تماما ، متظاهرة بأننى لم أصح الا الآن فقط • وفى كل مرة يحدث هذا ، كنت أحس من أعماقى بما يمكن أن يحدث فى مثل هذه المواقف •

ولكن عناق « أكسو » لى كان مشبوبا بحـــرارة وشغف ملآنى دفئا وحنانا ، حتى غبت عن الوعى ، ورحت أحلق بعيدا عن واقعى ، وكأنى « أنا » لست « أنـــا » • وأخذت أتساءل فى هذه المعمعة ، ترى من أو ماذا كان محل هواه وعشقه هذا ؟

لا سبيل لى الى أن أقطع ، اذا كان « أكسو » ينام نوما حقيقيا فى الوقت الذى يرقد فيه بجانبى،أم أنها كانت مجرد حالة فراغ كامل ، تجعل من المستحيل عليه ، أن يرفع ذراعه أو عضوا آخر من جسده مجرد الرفع ! فكانت أنفاسه تخرج وتدخل فى دعة واطمئنان ، ولا تصدر عنه أية حركة ، كلما طرحت الغطاء على جسده لئلا يزعجه الذباب الذى يتواثب الى الحجرة من كل فج ، بالرغم من اتخاذ كافة تدابير الوقاية •

وكنا نحتسى شيئا من الشراب ، قبل أن أنصرف من عنده • وفى هذا الوقت كنت أرى وجه « أكسو » أمامى ، كما أراه ، كلما تمثلته فى أحلامى • وما انفككنا نتبادل الحديث معا ، وكان « أكسو » يتحـــدث الى بانشراحة صدر ، حتى سحرنى حديثه ، وان من البيان لسحرا ، وبات الاستسلام له مجرد أمر سهل خفيف يملأ القلب غبطة وحبورا • ولـــم أمنى نفسى بشىء عندئذ أكثر من أن أقوى على كبح جماح نفسى • ولكنى ما ان حاولت هذا ، شعرت بفمى يجتر مرارة • وشعرت بعد ذلك — على حين غرة أننى أحس بشىء من التقزز والاشمئزاز مع كل لمسة من يد « أكسو » حتى ولو وقعت منه عفوا بمحض الصدفة •

وظل هذا الاحساس فى نفسى غير معلل ، حتى أننى وددت البكاء •

وبت أحلم فى ليلى ، ألا ليتنى كنت أنا التى تميل اليه ، وصرت أرى طيف وجهى يرقد تحتى ، وقد انغمس فى فيضه وجه « أكسو » ٠

وشعرت بسعادة غامرة بلا حدود ٠ لا يعدلها الا الشقاء الذى يلفنى مع يقظتى ٠

ما كان لى أن أبقى يوما واحدا فى المدينة ، لولا وجود « أكسو » ٠ وربما سأرحل من أجله يوما ٠ ولكنى لا أعتقد أنه يمكن أن تتبدل الأدوار وتتغير ٠ وبت أوقن فى قرارة نفسى أننى لن ألحق به ابدا ٠

وكنا نتحدث عن « سهيلة » أيضـــا فى بعض الأحيان ٠ وتوقعت أنه سيحثنى على زيارتها ٠ ولكنه لم يعلق بشىء ، وأقصى ما كان ينفرج عنـــه ثغره ، هو أن يسألنى ، عما اذا كنت عندها بالفعل ؟ وعندما ألححت عليه باصرار ، وأخبرته بأننى سوف أذهب اليها بالتأكيد فى الأيام المقبلة لم يعلق الا بقـــوله :

ـــ طالما أنك هممت بالذهاب اليها ، فسوف تذهبين :

وشعرت بالتبرم والاستياء من أنه كان يعتبر هذا الأمر مشكلة شخصية تخصنى وحدى ٠ وهذا هو ما حدا به الى أنه لم يكن على استعداد ذات مرة لأن يتخذ موقفا ازاء ذلك الأمر ٠

ولم ألبث أن تعودت على شدة الحر رويدا ٠ فبدأت أتقبلها كما لو كان أمرا عاديا ٠ وكنت أشعر برعشة تسرى فى أوصالى ، ما ان تعرضت للفحة هواء باردة ٠ وحقيقة أننى لا يمكن أن أفاجأ بطقس بارد ، فلقد ألفت فى نفسى شعورا باللامبالاة ، وأنست روحى بهذا الشعور ٠ فبعثت فى نفسى نوعا من الهدوء الموفور ٠

وكلما مثلت أمام عينى هـــذا القـــدر اليسير الذى أتفاهم به أنا و « تورجوت » و « سيفيم » دون أن أستشعر هذا على أنه نقص منى ، كلما قوى اعتقادى ، بأننا يمكننا تقليل مطالبنا بطريقة متشابهة ٠ وكنت أعثر فى جيبى أحيانا على نقود ، فأوقن فى نفسى على الفور ، أنهـــا لابد آتية من

« أكسو » ٠ وعندما عثرت عليها فى أول مرة حاولت أن أردها اليه ، ولكن سرعان ما بدا لى أن اصرارى وتشددى معه كانا أمرين مضحكين ، تماما كخوف « أكسو » أن أكتم عنه كلما أعوزنى شىء ضرورى ٠ وأحجمنا عن الحديث حول هذا الأمر ٠ وعندما خرجت مع « تورجوت » الى سوق السمك فى المرة التالية ، بات باستطاعتى أن أشترى « الأصداف والاسكامبى » أو أى سمكة أخرى نادرة ، وغالية الثمن ٠ وصنعنا وليمة ، واستضفنا اليها « أيتين » أيضا ٠

كانت السماء فوق رأسى تبدو بعيدة جدا ٠ وبسبب تغيير فى رطوبة الجو جعلت المرء لا يستطيع أن يدركها ببصره ، على الرغم من أديمها الأزرق الفضفاض ٠ وكانت الريح تحمل بين نسماتها عبق المطر ، ولكن لم تكن ثمة سحب تكدر صفو السماء ٠ وكل ما كان هنالك هى أبخرة من الضباب لا تنبىء عن طقس مشابه ٠

وشققت طريقى الى « مسجد سكولا محمد باشا » الذى يقع بين حلبة السبق ومرفأ « كاديرجا » الأسبق ٠ وكان صحن المسجد خاليا ٠ فقصدت مورد الماء الذى يتوضأ فيه المصلون للصلاة ٠ وجعلت الماء يسيل على يدى وساعدى ، ويحيط بهذا المسجد من جوانبه الثلاث بهو من الأعمدة ، تقوم وراءه مقصورات حفظة القرآن ٠ أما الجانب الرابع فتكونه واجهة المسجد ٠ وكان المدخل مسدلا عليه ستار أخضر من البلاستيك ليقيه قيظ الشمس ٠ ووضعت « صندلى » فى « المجرى الخشبى » بالمسجد بجوار المدخل ، حيث يضع المصلون أحذيتهم وأمتعتهم ٠ ثم تقدمت الى المنتصف ، وكان الفراغ الداخلى يبدو صغيرا ، عما هو عليه من الخارج ، بيد أن « القيشانى » على كلا جانبى المحراب ذو جودة نادرة ٠ ولا زال يدل على أنه آت من « ورش أزنيك » القديمة ٠ وكانت تحمل ألوانا قديمة أيضا قد نسى المرء انتاجها منذ أمد بعيد ٠ وكان « انجن بك » قد حدثنى سلفا عن أحجار صغيرة سوداء ، يزعم الناس من أمرها أن شخصا ما قد جلبها من الكعبة فى مكة الى هنا ٠ ولما وقع نظرى على أولاها — وهو حجر محاط باطار من ذهب — فوق زخرف الهوابط بالمحراب ، أحسست بأن شيئا يلمسنى من كتفى ٠ ولم أكن قد سمعت بمقدم أحد ٠ فارتعدت فرائصى من فورى ، وأوجست خيفة فى نفسى ، حتى انحنيت بجسدى من شدة الهول ، على الرغم من أن اليد التى وضعت فوق

كتفى لم تؤثر أدنى أثر ، ولكأنها جناح حمامة هشنى هشا ٠ ولم أكن لأجرؤ على أن أستدير خلفى ٠ وما لبثت أن سمعت همهمة وابتســـاما متخابثا ٠ ثم ابصرت بعد برهة خادما من خدم المسجد ، وقد بدا على سحنته وكأن به وهن وخبل ٠ فأغضضت الطرف ٠ وكانت راحتـــاه نحيلتين وخفيفتين ، وأصابعه طويلة بها بياض ضارب الى الزرقة ٠

وصاح الخادم :

— الكعبة ! الكعبة !

وأخذ يشير الى موضع به حجر ٠ وكنت قد اكتشفته قبل أن ينبهني اليـــــه ٠

وصاح مرة أخرى مهللا :

— ها هنـــا ! ها هنـــا !

وأشار الى مواضع أخرى تبرز حجارة سوداء ٠ وأخذت أتبع يده فى طاعة وانقياد ٠ ولم يكن الرجل قـــد أطلق سراحى بعد ، وشعرت كيف أن اليد النحيلة الطويلة أخذت تزداد ثقلا فوق كتفى ، وكيف أن أصابعها تقبض على ساعدى ، وشعرت بجسده الخفيف اللون وهو يزداد قربا من جسدى ، واستأنف يقول بلغة ركيكة :

— اتبعينى ! اتبعينى !

وجرنى بالقرب من المدخل جرا ، حيث يرقى من هناك درج سلم الى « مقصورة » علوية ٠ وقد شيدت هذه المقصورة ، اما لتكون موضعا يصلى فيه النسوة ، أو لتكون تبجيلا واكبارا لمن أمر بتشييد المسجد ٠

ولم أعرف لماذا كان الخادم يتحدث معى بهذه اللهجة ، ربما لأنه رأى فى أنى أجنبية ، أم لأنه نفسه كان لا يقدر على التحادث حديثا مترابطا ٠

ومتى دنونا من باب الخروج ، راودتنى لهنيهة فكرة الفرار والفكاك منه ، ولكن ما ان كادت هذه الفكرة تمسك بتلابيبى ، وتختمر فى ذهنى حتى أقلعت عنهـــا ٠

كان السلم الذى ارتقيناه ضيقا جدا ٠ وسرت أمامه ، وسار هو من ورائى ، دون أن يفك عنى قبضته ٠ فقد كان يدفعنى أمامه بيده دفعا ، درجة بدرجة ٠ ولم أبد له أى اعتراض أو أتعرض له فيما يفعـــــل بأى طريقة ٠ واستدرت خلسة ورائى ، فرأيت أنه بدأ يتصبب عرقا ٠

وعندما ارتقينا الى أعلى أخيرا ، ساقنى بالقرب من « الدرابزين » ، وعاد يشير من جديد الى أحجار الكعبة بأصبعه ٠ وكانت خمسة أحجار ، ولم يشعر الرجل بكلل أو ملل ، وهو يشير اليها بأصابعه طيلة الوقت ٠

واستطرد يقول :

ـــ الرجل ٠٠٠ من مكة ٠٠٠ القادم من مكة ٠٠٠

ولم أفهم مقصده ، ولما لم أجد شيئا أرد به ، أخذت أردد : مكة٠٠٠ مكة ! ، فانشرح صدر الرجل ، وشعر بالارتياح لأنه تصور أنى فهمت ماذا كان يريد أن يقول ٠ وأضاف :

ـــ الرجـــــل !

وعندما أطلق سراحى ، وأطبق بيد على مخنقه وجعل من اليد الأخرى سيفا وأخذ يمررها على نحره جيئة وذهابا ، ثم أخذ ينخر وينخف بصوت عال ، وأخيرا ندت عنه ضحكة متخابثة ٠

ـــ أتعنى أنهم فصلوا رأسه عن جسده ؟

وصاح وتهلل ٠

ـــ نعم ! رأسه : رأسه !

وفاضت نفسه رضا ، لأننى فهمت ماذا يقصد ٠ وأتى الرجـل بحركة أيقظت فى أعماقى تصورا ، لكأنه يلعب أمامى الكرة بهذه الرأس المفصولة عن جسدها ، ولكأن هذه الرأس تركض وتتواثب أمامه ، حتى تصـــل الى مستوى ركبته ، ولكأنه يدكها فى الأرض دكا ، كى تزداد بهذا ركضا وتواثبا٠ وانقلبت ابتسامته المتخابثة الى ضحك مسموع ، لكن ضحكه بدا وكان شيئا اعترض سبيله ، فصار كالغصة فى الحلق ، فاغرورقت عيناه بالدموع ٠ وعلى حين غرة لم أجد فى جعبتى شيئا سوى أن أشاركه الضحك ٠ وتقدم نحوى مرة أخرى ، وأظهر لى رأسه ٠ وجعلت أمعن النظر فيها دون أن أصدق

عينى • ومال الى براســـه ، فأمسكتها ولكنى ما لبثت أن ألقيتها اليه كرة ثانية ، ولكنه ما ان تحسسها مرة أخرى ، اقشعرت يداه ، وبدا ، ولكان هذه الرأس قد عضته فى يده • واشتعلت فى نفسه جذوة الغضب منى • وترك الرأس فى حنق • وعاد يشد على ساعدى من جديد • وحاولت عبثا أن أبرىء نفسى وأقول أن لاذنب لى فى هذا ؛ ولكنه ما فتىء يظهر لى يده الجريحة ، ودفعنى بالقرب من حافة « الدرابزين » • وسدد الى ضربة ، كـــدت أترنح وأهوى الى الأرض بسببها • لولا أنه انتشلنى فى اللحظة الأخيرة • فقفلت فى توســـل :

ـــ لا تضرب ! حنانيك !

كنت أقول هذا ، ووجهى يلامس وجنته ، وأنا أميل الى الوراء بعصبية• وارتد الرجل الى الخلف ، وراح يقهقه ثانية ، لكأن ما حدث بيننا لم يتعد عن كونه مزاحا ، ولكأنه اغتفر لى كل ما وقع • ولكى يظهر لى تصـــالحه معى ، قدمنى الى السلم أولا • فعدت أسير أمامه مرة ثانية ، وكما فعل من قبل كان يقودنى بقبضة يده على عضدى •

وأخذ يسجع ويتمتم أمامه ببطء • وبينما أنا أضع قدما أمام قدم على مهل ، أحسست بشىء يسرى فوق منكبى • ورأيت أن حبلا رفيعا من لعابه يسيل من فمه ، ويتساقط فى التجويف ما بين الرقبة والترقوة • وكانت لاتزال أمامنا درجات قليلة حتى نستقر على الأرض ، فتذرعت بالشجاعة واستدرت ورائى ، لكى أنبهه الى هذا السائل فقط ، مذ عرفت كيف أنه سريع الغضب لأتفه الأسباب • وعندما استقر بنا المقام على الأرض ، أخذت أتنفس بانتظام• وأدرك الرجل ما حدث ، فراح يمسح بكم جلبابه بقعة اللعاب باهتمام شديد : وقلت دون أن أرفع صوتى :

ـــ يجب على أن أنصرف الآن •

فلم يعرنى سمعا ، وصاح يقول فى صوت متهدج :

ـــ هيا ! أقبلى ! هيا ! أقبلى !

ودفعنى الى الخارج • وتشبثت فى مكانى عند صندلى •

وأشار الرجل الى بأن أنتظره قليلا • ثم هرع عبر بهو الأعمـــدة ، واختفى عن ناظرى فى واحدة من المقصورات • لم يكن هناك الآن ما يحول

دونى والهروب · ولكنى كنت من التعب والانهاك ، حتى أنى وجدت مشقة كبيرة فى انتعال الصندل · وعندما عاد مرة ثانية مثل أمامى فى انكسار ، وقد امتقع لون وجهه وصاح :

ــ خــذى !

واعطانى شيئا فى يدى · وكان قطعة حجرية سوداء صغيرة تبدو وكأنها مصنوعة من زجاج · ووضع أصبعه على « فيه » ، ثم مثل مرة أخرى حركة فصل الرقاب ، ونخف ونخر ، وضحك فى خبث ·

وأطبقت يدى على هذا الحجر ، وأشرت له مرات عديدة بالرفض · ولكنى أخذته ، ثم أقفلت خارجة من المسجد ·

وارتطمت « بامام المسجد » تحت الستارة البلاستيك الخضراء · وانطلق يعدو مارا بى دون أن ينبس بكلمة ، حتى وصل الى هذا الخادم المأفون ـ الذى كان لا يزال يتخابث فى ضحكه ، وجأره بالصياح ولم أفهم منه الا أنه قال أن يبقى فى الداخل كما هو · وحزمه الخطيب من ذراعيه · وأخذ المأفون يدافع عن نفسه ، ولكن عبثا ما استطاع الفكاك منه · ودفعه الخطيب بقوة مارا بى الى الصحن خارجا ، دون أن يستطيع الالتفات وراءه ، ولو مرة واحدة واختفى الاثنان عن ناظرى ، واستطعت أن أسمع المأفون لهنيهة وهو يثرثر وينفخ فى تبرم ·

وبعد ذلك ـ قمت بلف « الحجر » الأسود فى منديل · وأقفلت راجعة فى خطى وئيدة اتجاه طريق الديوان ·

وقابلت « تاتارية » عند أحد بائعى الكتب فى شارع « أنقرة » · وكانت قد أتت لتحضر كتبا ، قد طلبها سلفا « انجن بك » · ولكن الكتب لم تكن قد وصلت بعد · ودلفنا الى أحد المقاهى لنحتسى القهوة · ولما كنا وحيدين هذه المرة ، أخذت تستفسر منى عن أمور تخص « أكسو » · فأرادت أن تعرف ، منذ متى وأنا أعرفه ، وعما اذا كنت أراه باطراد · وسألتنى اذا كنت قد فكرت من قبل فى تطويل اقامتى فى المدينة ، أو أن أبقى فيها أبد الحياة · ولم أعلق من جانبى على شىء ، ولكنى أظهرت لها « الحجر الأسود » ، وحكيت لها ما وقع بينى وبين الخادم المأفون فى « مسجد سكولا » · فعقبت

« تاتارية » تقول بأنها قد سبق لها أن رأت هذا الخادم سلفا ، فقد كانت ذات مرة فى المسجد هى وزوجها « انجن بك » فى اصطحاب جماعة من الأمريكان ، وأتاهم هذا الخادم آنذاك ؛ وأراد أن يدلهم أيضا على أحجار الكعبة . وسألت :

— وفيم يكون هذا الحجر ؟

— زجاج أسود اللون .

وتناولته فى يديها ، وراحت تقلبه فى أشعة الشمس ، ثم سألت :

— كم طلب منك فى مقابل هذا « الحجر » ؟

ودار بخلدى أننى لا أذكر أنى أعطيته شيئا ثمنا له .

ولما شاهدت « تاتارية » ما أنا فيه من ربكة واضطراب ، أخذت تضحك وهى تقول :

— لا بأس ! فالانسان معذور فى مثل هذه الأحوال . ان هذا الخادم لمجنون ، وليس على المجنون من حرج ، فقد رفعت عنهم الأقلام .

وشق على أن أفهم ما تقول ، فأخذت تضيف :

— ان الملائكة الكاتبين لا يكتبون زلات المجانين ، فهم لذلك يرتكبون من الآثام ما يرتكبون ، ومع ذلك يدخلون الجنة . ودفعت الى بالحجر مرة أخرى . وقبل أن ألقى اليها بأسئلة أخرى ، أخذت تحكى لى حكاية « تاسليم طاش » (١) :

— فى ذات مرة أرادوا أن يدسوا السم للولى « الحاج بيكتاش » (صاحب الطريقة البيكتاشية) فى طعامه . فأجمعوا الأمر فيما بينهم ، ووضعوا ما سولته لهم أنفسهم . ولكنه تدارك الأمر فى الوقت المناسب ، وتقيأ كل ما فى جوفه مرة أخرى . فنزل هذا على هيئة حجر منتوء أسود . ومذ ذاك الحين ، قام البيكتاشيون بنحت أحجارذات اثنى عشر ضلعا ، من هذا الحجر . وهذه الحجارة هى ما تسمى « تاسليم طاش » والتى علقوها حول رقابهم . ولم يكن حجر « تاسليم طاش » فحسب ، وانما كان

---

(١) ومعناها حجر « تاسليم » ، وهو يرمز للعلاقة المميزة لكل اتباع الطريقة البكتاشية .

الكأس الذى امتلأ بالنبيذ أثناء حفل القبول منحوتا من هــذا الحجر ٠

وقدمت الى « تاتارية » قهوتها ، فلم تشعر فجأة برغبة فى احتسائها ٠ وطلبت بدلا منها قهوة معدة باللبن ٠ فقال لها « النادل » أنها ربما ستضطر أن تنتظر مزيدا من الوقت ٠ ولكنها ألغت طلبها مرة ثانية ، واستعاضت عنها بكأس من « الليموناده » ٠

وأخذنا نتبادل الحديث عن ابنها ، وعن حاضنته العجوز ٠ ثم أبلغتنى بأنها صارت حبلى من جديد ، وأخبرتنى بأنها تفكر فى ارسال ابنها بعيدا عنها ، ولكنها لم تقو على هذا الأمر احتمالا ؛ فكيف تفرق بين نفسها وبين فلذة كبدها ؟ على أن الولد أيضا ينبغى أن لا يتربى بعيدا عنها ٠ ومن جانب آخر تشعر بالأسى لأنها لن تستطيع بعد ذلك ـ كما تنبىء النذر ـ أن تعود الى الجامعة مرة أخرى فى الموسم القادم ، وأنه سيعهد بوظيفتها الى شخص آخر بصفة نهائية ٠

وســـألتها :

ـــ وكيف كانت حالك أثناء الحمل الأول ؟

ـــ لم تكن حالى على ما يرام ، ولكنه كان أمرا محتملا بمزيد من الصبر والتجلد ٠ وأود أن أخبرك بأن كل شىء سوف يكون أسهل فى هذه المرة من سابقتها ٠ فلقد تعود جسدى على آلام الحمل ٠

يجب أن أعترف بأننى لم أتبين عليها علامات الحمل قبل الآن ، واذ أخبرتها بأنى لم أحسبها بحبلى ، انبرت تعقب على عــــدم ملاحظتى اياها بقولها :

ـــ انك ليست لديك النظرة الثاقبة فى هذه الآمور ٠

وأضافت تقول ، ان احدى صويحباتها همست لها فى أذنها تسر اليها هذا النبأ منذ أسابيع ماضية ٠ وقد كان هذا فى وقت لم تكن فيه العلامات واضحة وحتى يمكن طلب قهوة باللبن ٠

وشعرت فى نفسى بالخجل والجهل ٠ لا شك فى أن « اكسو » سوف

يقول لى فيما ينبغى على أن أدقق فيما أنظـــــر ، ما أردت أن أرمق امرأة ما ، كى أتعرف ان كانت حاملا ، أو كانت غير ذلك ٠

كانت الليالى دافئة ، وكانت من الدفء ممـــا حدا بنا أن نمكث فى الفناء حتى بعد هزيع من الليل ٠ ولم يكن انصرافنا الى النوم الا لأن التعب كان قد أنهكنا انهاكا ، أو لأننا أحسسنا بأن الطقس قد عاد فعلا يبرد من جـــــديد ٠

وهناك فى الفناء جلسنا ، نتبادل أطراف الحديث ، ويحلو لنا السمر ، واحتسينا أقداحا كثيرة من الشاى (الثقيل) الذى حال دوننا والنـــوم ، وجعله يفارق جفوننا موليا ٠ وكنا نلهو ونلعب أيضا لعبة الورق فى أغلب الأحايين ٠ وكانت لعبة يسمونها « بالرومى » (١) ٠ ولكننا ما ان بدأنا بها ، لم نستطع أن نبرح لها مجلسا بعد ذلك ٠

وكان يحـــدث كثيرا من « تورجوت » أن يسند رجله على رجلى من تحت المنضدة ٠ واذا أبعدت رجلى عنه وتأملته فى شذر ودهشة ، أخذ فى الاعتذار ، ثم يضع رجلا فوق الأخرى فى خيلا ء كى يتذرع بعد هذا بذريعة ليمسك يدى أو يلمس ذراعى ، ويتظاهر كما لو أن هذا كله يحدث عفوا ٠ وأغضبنى أنه احتفظ لنفسه بهذه اللعبة تقريبا ٠ ولكن غضبى لا يلبث أن يزول غير أنه يتبقى من جرائه توتر يزداد يوما بعد يوم ٠ وعندما قاومت ضغط رجل « تورجوت » ، ورددت عليه الصاع بالصاع ، كان هو الذى يبادر بشد رجله ، ويحاول أن يغطى علامات الضيق التى بدت عليه بالضحك والتلويح باليد ٠ ولو دلفت « سيفيم » الى المنزل لبرهة ، كان ينهال على بالحديث دون أن يلتقط أنفاسه ، وكأنه كان ينتظر أن تحين فرصة الحديث ٠ وكلما أعرضت عما يقوله ، زاد فى الكلام الحاحا ولجاجة ، حتى اذا عادت « سيفيم » ثانية ، وامتد الحوار الذى بدأناه بيننا نحن الثلاثة ، أو استعضنا عنه بلعب الورق ٠

لم أكن لأعرف ، عما اذا كانت « سيفيم » تعلم أى شىء عن هـــذا ، ولكنى أكاد أقطع أن هذا التوتر الذى تزداد حدته باستمرار لم يــكن ليمر ويذهب أدراج الرياح ، تماما كشعورنا برفع الكلفة بيننا ، الذى أخذ يلفنا رويدا ٠ فما انفككنا نتقاذف بكلمات معينة وتعبيرات مقذعة غير مهذبة ،

---

(١) تشبه لعبة الشايب » ، حيث أنها تعتمد على شد الورق ٠

والتى ما كنا لنفوه بها فى حضور « تورجوت » من قبل · وكلما انتقل الحديث الى عملى كنت أعقب :

— اياكم والشباب الذين لم تنم لحاهم بعد ! فان لهم لونا كلون الله (١) !

وردت « سيفيم »

— ثلاثة أشياء يمتعن النظر : الخضرة والماء والوجه الحسن ·

وعندما أغربنا فى الضحك بعد ذلك ، قال « تورجوت » فى لهجة صـــارمة :

— « ينبغى ألا نتحدث عن الله » ، كما نتحدث عن « سعدى ولبنى » ، لمجرد أن نستثير حمية السامعين ، حتى لكأنهم سيمزقون ثيابهم بدون هـــذا !

وهكذا كنا نمضى أمسياتنا · وكنت أتساءل فيما بين نفسى لم لا أهم بالنهوض والدخول الى البيت لعلى أقرأ شيئا ! أو أمدد جسدى لأستريح قليلا فى أقل تقدير ، فأنام مرة فى عمرى نوما عميقا طويلا · واذ أنا بنفسى أسائلها هذا ، كان يخامرنى شعور ، كما لو أنى أستحث الآخرين على البقاء وقتا أطول ، عندما أقوم باشعال لفافة تبغ مثلا ، اذا ما رأيت أن « سيفيم » تهم بالنهوض ، أو اذا لاحظت عليها أنها تعلق على كل ذريعة يتذرع بهـــا « تورجوت » ·

أما فى الأمسيات التى كنت أقضيها مع « أكسو » وكنت ـ فى حسبان « سيفيم » و « تورجوت » مدعوة فى « *القنصلية* » ، لم يكونا يدلفان الى الفراش مبكرين ـ كدأبهما ـ انما كانا يبقيان فى المطبخ وينتظران عودتى ، حتى يحتسيا معى قدحا آخر من الشاى فى أقل تقدير · وعند عودتى كنت أقص عليهما الأقاصيص المختلفة ، أصور فيها أبناء وطنى ، مثلما تود أن تراهم « سيفيم وتورجوت » ، اذا أرادوا أن يتحدثوا عنهم بشىء يضحك · وكنت أشعر فى أعماقى أنهما لم يعودا يثقان فى موضوع القنصلية هذه منذ وقت طويل ، ولكن على الرغم من هذا فقد سارت الأمور بعد خلطها بالنوادر والملح على نحو مرضى ·

---

(١)تقصد الكاتبة أن عليهم مسحة من نور الله ·

وفى الغد التالى - عندما جلسنا فى شمس الصباح ، نتناول الافطار ، والنوم ممسك بتلابيبنا بعد أن أضنانا السهر ، قررنا فيما بيننا ، أن لا خروج بعد اليوم الى الفناء ، اذا أمسى المساء ٠ بيد أننا ما ان جلسنا فى المساء التالى فى المطبخ مرة ثانية وانطلق أحدنا يقول ! « كم أن الجو هنا فى الداخل خانق جدا ! عندئذ حملنا ابريق الشاى والاقداح الى الفناء ٠ وعاد كل شىء سيرته الآولى مثل ما كان عليه فى المساء الماضى ٠

لم أكن لأشك لحظة قط فى أننى قد افتقدت « صورة سهيلة » دون أن أقع لها على أثر ٠ فلم أعثر عليها فى حقيبتى ولا فى أى ركن من أركان البيت ٠ ولم يكن بحثى عنها ، لأن أمرها ذا بال عندى ، ولكنى كنت أشعر بحيرة من أمرى وبلبلة فى خاطرى ، كانسان يشعر بفقدان شىء ٠ فعقدت عزمى على أن أزورها فى الغد القريب قبل أن تندثر معالم صورتها التى رسمتها فى مخيلتى ٠ وخشيت أن أتخلف ، فيعفى على رسمها كر الآيام ، فلا أستطيع التعرف عليها ما ان جمعت بيننا الأقدار ٠ وهكذا جعلت سمتى اليها ، فأخذت الأتوبيس الذى يقصد « ششيلى » ٠ ولكن ما ان اعتلينا أولى الهضاب الشاهقة فى « ماتشيكا » ، أخذ « الموتور » فى الأزيز والصرير ٠ وما انفك ينخر وينفث دخانا حتى رأيت أن من الحكمة أن أنزل من هذا الأتوبيس ، وأقطع ما تبقى من الطريق سيرا على الأقدام ٠

وبينما أنا أسير ، جعلت أتطلع الى كل ما يحيط بى ٠ فرأيت أن هذا الطرف القصى من المدينة ليس مما ينتمى الى المدينة ، أو فى أقل تقدير ليس مما ينتمى الى تلكم المدينة التى أجوبها كل ساعة وأطوف أرجاءها فى كل وقت ٠ رأيت انه تقام هنا - بدلا من الباعة الجائلين والأسواق - الحوانيت الفخمة ، التى تشبه حوانيت المدن الكبرى الأخرى ٠ ورأيت المنازل هنا من طراز معمارى مختلف ٠ فهى مقسمة الى « شقق » ، وتحمل كل واحدة لوحة خاصة باسم قاطنها ٠ وأمام هذه المنازل يقتعد البوابون كراسى خشبية ذات طلاء أزرق ، ويؤرجحون أحذيتهم فى خيلاء ويحملقون فى كل من يدنو منهم من المارة أكثر مما ينبغى ٠

وكلما كان بناء المنازل عظيما وشامخا ، كلما أحس الانسان فى داخله بالعظمة ، وازداد القلب اليها ميلا ٠ وداهمت نفسى رغبة ملحة فى أن أقطن

هنا ، ولو لهنيهة فى أقل تقدير · ورحت أستجيب لأحلامى الوردية وجعلت أبنى صرحا فى الهواء ، وطمأنت نفسى بأننى ان قطنت هنا ، سـوف أرى المدينة أمامى بوضوح ، وسوف أسبر أغوارها · واتسعت دائرة أحلامى ، فسمعت صوتا فى نفسى يقول : وسوف أستطيع هنا أن أرجع وحـدى الى المنزل بعد هبوط الظلام أيضا · ولسوف تكون لدى غرفة خاصة بى ، ولن أعود فى حاجة الى ان أتقلب فى فراشى بهدوء شديد ، كى لا أوقظ « سيفيم » التى تنام بجوارى ·

كان الطريق الى شقة « سهيلة » أطول مما كنت أتصور · فحـل بى التعب وأضنانى المسير ؛ وأمسكت بتلابيبى حبات الغبـار · فانعطفت الى « كافيتيريا » ، وكانت هى الأولى من نوعها التى رأيتها فى المدينة ، وطلبت قدحا من القهوة ، وتركته قليلا ودلفت الى المرحاض ، فسكبت سيدة على يدى ماء الليمون من ابريق معها ، ثم مدت يدها الى بمنشفة ، كما أعطتنى مرآة أخرى · وتملكنى شعور غير مفهوم بالحنين الى نوع معين من الراحـة ، أحسست بين جنبات نفسى بأنى لا أعتقد بأنى مدركته ·

واحتسيت قهوتى « الأسبرسو » على الطريقة الايطالية · وجعلت أقلب الأمر فى رأسى ، ترى ما أنى فاعلة ، هب أن « سهيلة » طلبت منى أن أقطن معها ؟ فلقد كتب لى « محمود » ذات مرة أنى استطيع أن أقطن عند أخته فى أى وقت تطأ قدماى المدينة · وها أنذا الآن فى طريقى اليها ! وما فتئت أدبر هذا الأمر وأفكر فيه كيفما اتفق · وأسرفت فى تدبيرى وغاليت فى تفكيرى ، حتى أخذت أبحث عن الكلمات التى سأعلل بها « لسيفيم » كل شىء ورحت أقول فى نفسى :

« سوف أقول لها أن هذا من صالحها ، وسوف أقول لها أيضـا أن ضيافتى عندها قد طالت بما فيه الكفاية » وكلما أنست روحى بهذه الفكرة ، بدت لى ، وكأنها ـ الحل المنطقى الوحيد ـ ولسوف أقول لـ « سـيفيم » أيضا : ليس معنى هذا ، أن كلا منا لن يرى صاحبه بعد اليوم » · وفى الوقت ذاته كنت موقنة تمام اليقين أن كل هذه الحجج التى اصطنعتها لنفسى لن تجـدى ولن تنفع بمثقال ذرة · طالما أن الأمر كله يتعلق بانفصـالى عن « سيفيم » و « تورجوت » · ولاح لى أن كل شىء انما يتوقف على « سهيلة »

وحدها وعلى أنها سوف تشجعنى وتشد من أزرى كى أبقى عندها ٠

وبينما أنا مشغولة بكل هذه الأفكار - أضرب أخماسا فى أسداس وأقدم قدما وأؤخر الأخرى ، كنت قد قطعت البقية المتبقية من الطريق ٠ فعرجت الى «مقهى» ، وطلبت احتساء شىء آخر ، ثم جلست قليلا بعد أن دفعت ثمن مشروباتى ٠ وعندما استأنفت المسير من جديد قفلت راجعة مرة ثانية ، لأنى كنت قد نسيت حقيبتى حيث جلست ٠

وأخيرا - ألفيت نفسى أمام باب « سهيلة » ولشدة ما حل بى من اضطراب وربكة ، قرعت الباب بشدة أكثر مما أردت ٠ فغضضت الطرف عن الباب ، وتراجعت الى الوراء قليلا ، كى لا يبدو على ما بى من اضطراب ٠ ولم أسمع شيئا لبرهة : ثم دنا عما قليل وقع أقدام ٠ وسمعت مفتاحا يدار فى القفل ، وفتح الباب نصف انفتاحه ، وكأن هناك صفدا معلقا به ٠

وأبصرت أمامى وجه امرأة عجوز ، فسألتها عن « سهيلة » ٠ فأجابت العجوز :

- لقد سافرت العائلة الى « قونية » ؛ سافروا جميعا منذ ثلاثة أيام ٠
- ومتى سيعودون ؟
- لا أدرى ! انهم جميعا فى « قونية » - كما أسلفت ولا يستطيع أحد أن يقطع بالمدة التى سيمكثونها هناك ٠ ربما يعودون بعد أسبوع ، وقد يمكثون هناك شهرا كاملا ٠
وأضافت العجوز :

- انهم فى كل مرة لا يأتون كالمرة التى قبلها ٠

وقبل أن ألقى اليها بأسئلة أخرى ، كانت قد أوصدت الباب دونى مرة ثانية ٠ ورحت أسمع وقع خطواتها لهنيهة ، لكأنها تجوس عبر بهو طويل ٠ وهممت بقرع الباب مرة أخرى ، لكى أطلب الى العجوز أن تنقل تحيتى الى « سهيلة » فى أقل تقدير ٠ ولكنى عدلت عن هذه الفكرة ٠ فنكصت على عقبى ، وراحت رجلى تطأ درج السلم من جديد واحدة بعد واحدة ، حتى

انتهيت الى الشارع • ونادانى البواب الذى رأيته من قبل ، ويبدو أنه كان يعرف أين كنت • فناشدنى قائلا أنه ينبغى على أن أرجع ثانية فى غضون أسبوعين لثلاثة • ثم استأنفت سيرى على الأقدام ، حتى وصلت الى الشارع الرئيسى الذى يؤدى فى خط مستقيم تقريبا الى ميدان تقسيم (١) »•

ومن هناك ركبت احدى العربات ، وشعرت بموجة غضب عارمة تجتاحنى وكنت فى حالة كئيبة ، لا يخفف وطأتها الا انسان أعرفه أجلس معه الآن •

كان المرور كثيفا نسبيا • وأخذت العربة تسير بنا الهوينى • وعند تقاطع قريب ازدادت حدة المرور ، فعيت السيارات عن مواصلة السير • وأخذت السيدة التى تجلس بجوارى تحرك الهواء لنفسها بمنديل يدها • وعلى حين غرة دخل رجل بالباب فى اندفاع شديد ، وتهالك على المقعد الخالى بجانبى ، وصاح بالسائق فى لهفة يستحثه على السير • وكنا لا نزال محشورين فى معمعة السيارات • ورفع الرجل يده معرضا ويستحلف السائق المسير ، فلاحظت أن الدم ينزف من كتفه • وبعد هنيهة هرع مطاردوه بين العربات الواقف بعضها ، والذى ابتدأ المسير بعضها الآخر • وما أن لمحوه حتى ضربوا الباب فى بأس وقوة وحاولوا أن يجروا الرجل خارج العربة • وأخذ المسكين يصيح فيهم صيحة الملهوف الذى دهمه الخطر ، وراح يستنجد :

— دعونى وشأنى !

كان يستغيث ويتوسل وهو يتشبث بمقعد السائق — كغريق يتشبث بطوق من الفلين — وكان السائق قد بدأ عندئذ يتفطن لما يجرى • وتمهل حتى جروا الرجل ، وأنزلوه من العربة ، فأوصد الباب خلفهم ، دون أن يلوى على شىء • ثم استأنف سيره من جديد • وتلفت ورائى ، فلم أر أحدا ، لا الرجل ، ولا مطارديه • فلم يكن ثمة شىء سوى العربات التى تمر بنا عن كثب • ولم يعلق أحد على ما حدث بشىء ، فيما عدا السيدة التى كانت تجلس بجوارى ، أخذت تترنح برأسها وصاحت فى صوت حزين متباك :

---

(١)أكبر ميدان فى مدينة استانبول الحديثة •

ــــ الله ! الله ! الله !

ونزلت فى ميدان تقســـيم · وبينما كنت أدفع ثمن ركوبى ، سمعت السائق وهو يسب ويلعن أمام بقية الركاب بسبب لطخات الدماء التى سالت على مقعده · فرأيت وجه الرجل ماثلا أمام ناظرى ، ترتسم عليه كل ضروب الحيرة ، عندما تقطعت به السبل وأيقن أن لا سبيل الى الهروب الآن · وأثار ضعفه وقلة حيلته فى نفسى الغضب والامتعاض ، وأحسست أن موجة عارمة من الغضب تسرى فى كل أوصالى · شعرت بهذا الغضب فى نفسى دون أن أستطيع له تعليلا ·

وبينما كنت واقفة فى ميدان « تقسيم » ، يتفطر داخلى ، وكنت أنتظر عربة أخرى لتقلنى الى « أكسراى » ، تقابلت مع « آيتين » · وكانت تحمل ملء يديها لفائف وحقائب التبضع ، ففرحت بلقائها وضممتها الى صدرى فى عناق حار ، حتى أنها أخذت تتطلع الى بعين الخوف والوجل · واستمالتنى الى أن أصطحبها الى بيتها · فركبنا بأمتعتنا الكثيرة فى عربة « تاكسى » · وما ان اقتعدنا المقعد الخلفى جنبا الى جنب ، حتى انبريت فى البـــكاء · فضمتنى « آيتين » اليها وأخذت تهدىء من روعى بلهجة حانية ، ولـــكنى انخرطت فى البكاء · وكان غضبى ودموعى دليلين قاطعين على ضعفى فى أن أقدم على صنع شىء · وبعد لحظة استدار السائق هو الآخر يتساءل : ترى ما الخبر ! · ولا زلت أتذكر تماما ما قاله :

ــــ هل أصاب الموت عزيزا لديكم ؟

وعندما وصلت الى مسكن « ايتين » ، تهالكت من فورى الى « الآريكة » فى اعياء شديد · وقد ألم بى صداع حاد ، فأوصدت « آيتين » النوافذ ودلفت الى المطبخ ، فجهزت لى قدحا من القهوة بدون سكر ، ثم مزجته بعصـــير ليمونة ، وقالت ان هذا سوف يساعدنى على تخفيف وطأة الآلام · وقد ساعد أيضا ؛ ولكن بعد وقت متأخر ·

وعندما كنا فى التاكسى · كنت أجد فى نفسى استعدادا ، لأن أقص على « آيتين » ما كان من أمر « سهيلة » · ولكنها عندما جلست بجوارى ، وراحت

تعبث بشعر ابطى بأظافرها الحمراء الطويلة ـ فكنت « أحك » الموضع نفسه اثر هذا ـ عندما حدث منها ذلك ، تطاير الكلام من رأسى ؛ فلم أعرف من أين أبدأ . وعندما اعتدلت فى مضجعى ، سألتنى « آيتين » :

ـ ـ ماذا ألم بك ؟

ولما لم أحر جوابا ، استقر ذهنها أننى لن أتحمـــل وعثاء الطقس . ورأت أن هذا ليس بعجيب على انسان مثلى ، طالما أنى أهيم على غير هدى طوال الوقت فى المدينة ، بدلا من أمكث فى الحجرات الرطبة . فحكيت لها بعد ذلك حكاية الرجل ومطارديه ، وأن سائق العربة بدا فى تصرفه ، وكأن الأمر لا يعنيه من قريب أو بعيد . والأدهى والأمر من هذا أنه غضب بسبب لطخات الدماء ، وراح يسب ويلعن .

ونظرت الى « آيتين » فى استخفاف ، وقالت :

ــ ان هؤلاء أقوام نزحوا الى بلادنا قادمين من الأناضول . ولم يأتوا ومعهم عائلاتهم فحسب ، وانما جاءوا بعداوتهم وبغضائهم . وطالما أن شأنهم هكذا ، فلا يجوز للانسان أبدا أن يتدخل فيما بينهم . فهذا قــد لا يروق الضارب والمضروب ؛ والا فسينقلب الاثنان معا ضد من يتدخل . وان سائق العربة قد أحسن التصرف أيما احسان ، وان انغلق فهم هــذا عليك ، على الرغم من أنك تقطنين فى المدينة منذ وقت طويل . واستأنفت تقول : لو أنى طالعت حالات الأخذ بالثأر فى الصحف كل يوم ، فلسوف تتغير نظرتى الى الأشياء . وان هذا لأمر يحتاج لوقت طويل جدا ، وانه ليس من المقطوع به ما سوف ينجلى عنه مثل هذا الأمر فى النهاية .

وعند هذا الحد ـ تحولت « آيتين » فجأة عن الموضوع . وأرادت أن تعرف كيف نعيش نحن الثلاثة ، وعما اذا كنت لا أشعر بالضيق فى بعض الأحيان ، وأنا أعيش مع « تورجوت » تحت سقف واحد . وأرادت أيضا أن تعرف ، اذا كنا نتعرض أحيانا لمواقف حرجة ، ولا ســيما أثناء استعمال الحمام بصفة خاصة ، أو ابان الليل حيث ننام ، الحائط بجوار الحائط . وأضــافت :

— ان الجدران فى منزل « سيفيم » رقيقة نسبيا ٠

ولم أكن أعرف الى الآن علام ترمى ٠ فهى تعرفنا جميعا حق المعرفة ، وتعلم أيضا كيف نعيش ، وشعرت فجأة برغبة ملحة فى أن أتحـــدث عن « تورجوت » حديثا مستفيضا ٠ وددت أن لو أصفه كما آراه على سجيته ، وودت أن أصف فيه كل صغيرة وكبيرة تتصل به ، حتى طريقته فى ازدراد الطعام وأنه يعطس مرات عدة فى تتابع ، أو أنه فى أثناء لعب « الورق » يضع ورقة على المنضدة يعلم عنها أنه سوف يكسب بها ٠ فقلت :

— ليست لدينا أية صعوبات ٠ فلقد تعود كل منا على صـــاحبه وآلفه ، اننا نعيش كالعائلة الواحدة ٠ وعقبت « آيتين » ٠

— انها تهتم به كثيرا !

وامتقع لون وجهها بطريقة عجيبة ، وكأنها تسعى جاهدة فى أن تضفى على ما قالته موضوعية كبيرة وصـــدقا مصطنعا ، كيفما اســـتطاعت ٠ واستأنفت تقول :

— طالما كان « تورجوت » يقطن فى المدينة الجامعية ، لم يكن هذا مما يستلفت النظر فى شىء ؛ أما الآن ، فما بالهما وهما يخرجان سويا كل صباح من منزل واحد !

— أتقصدين « سيفيم » و « تورجوت » ؟
وأغربت فى الضحك بصوت عال ٠ وفى الوقت نفسه أخـــذت تحلق فى سماء خيالى عدة صور معينة ٠
فردت « آيتين » :

— أنت تعلمين أنها مدرسة ٠ وقد أطلق الناس ألسنتهم عليها فى المدرسة ٠

— وفيم يطلقون ألسنتهم ؟

ـــ تعلمين أن « سيفيم » ليست متزوجة ، وأن « تورجوت » ليس قريبا لها من الدرجة الأولى ، وأن « أبوا » « سيفيم » قد سافرا الى « بورصة » الى ما هنالك ...

ـــ وما عسى أن يتقول الناس عنى ؟

نظرت الى « آيتين » فى دهشة واستغراب :

ـــ ان ظلال الشك لا تسقط عليك ، فأنت بمأمن لكونك أجنبية .

ـــ أجادة أنت فيما تقولين ؟

وحاولت أن أضحك فى سذاجة وصفاء قلب ما وسعنى .

فردت « آيتين » وقد زاد لون وجهها امتقاعا :

ـــ قد يقع لها بسبب هذا ما لا تحمد عقباه !

ـــ ولم لا تقولين لها هذا تبصرة لها ؟

ـــ لقد تغيرت كثيرا ! تغيرت منذ أتى !

وانعكست الآية ، وكان على الآن أن أقوم بدور المواسى لـ « آيتين » لكى أخفف عنها ما بها . وأضافت تقول فى صوت متهدج :

ـــ وكلما قلت لها شيئا ، ترمينى بالغيرة دائما .

وطفقت « آيتين » تنتحب فى صمت ، وترسل عبراتها وزفراتها أمامها . فقبلتها من خديها . ثم قلت لها لكى أسرى عن قلبها أن « سيفيم » تحبها حبا جما ، وأما كونها لا ترى منها هذا ، فهذا ذنبها وحدها . وأن « سيفيم » تثنى عليها مرة كل يوم فى أقل تقدير ، ان لم يكن طوال اليوم . وليس هناك ما يدعوها الى أن تتصور أنها مهملة . واستأنفت أقول : ان فيما يتعلق بـ « تورجوت » ليس هناك ما يدعوها للقلق ؛ ان « تورجوت » « وسيفيم » يعيشان معا كالأخ والأخت . وخليق بالناس أن يطلقوا ألسنتهم على أنا و « تورجوت » . فان هذه الفكرة لم ترد لها على خاطر .

ـــ فردت « آيتين » :

ـــ ولكن « سيفيم » لن تسمح بشىء مثل هذا يحدث فى منزلها .

فأغربنا فى الضحك سويا ، أو ربما تظاهرنا بهذا على الأقل ، بلغ بنا

الاسترسال فى الضحك حتى بدا ، وكأننا لن نستطيع أن نكف عنه بعـــد هذا أبدا ٠

وبعد ذلك _ وضعنا « اسطوانات » ٠ وشربنا زجاجة من النبيذ الوردى ثم أحضرت « آيتين » ألبوم صور فوتوغرافية يحتوى على صور لأفراد أسرتها وصور لها أيضا ، عندما كانت لا تزال صغيرة ، وعندما كانت تذهب الى المدرسة ، ثم عندما كانت تذهب الى الجامعة ٠ وكذا فيما بين الفترتين كانت توجد صور أخرى لـ « سيفيم » ٠ وعلى الرغم من هذا التغير الذى جلبته السنون فقد بقيت « آيتين » هى « آيتين » و « سيفيم » هى « سيفيم » ٠

لقد رفعت عنهم الأقـــلام ٠ فالملائكة الكاتبون لا يكتبون أقوالهم ولا أفعالهم ، فقد رفع عنهم التكليف وليس عليهم حـــــرج ٠ فهم غير مناطين بالالتزام بأحكام التشريع ٠ فكثير منهم يتخبط هائما على غير هدى ، وآخرون مقرنون فى الأصفاد ويودعون البيتوتات المعدة لهم ٠

ـــ « لتدع الجنون والنزق ، وأترك عقلك ينفلت من عقاله ، عندئذ لن يتعرض لك أحد من أهلى بسوء عندما تجىء الى قريتى » !

هكذا قالت « ليلى للمجنون » (١) ٠

غير أن لكل قاعـــدة استثناء ؛ فهنـــاك طلقاء أذن لهـــم أن يقولوا ما يحلو لهم وعندما يتدفق سيل الحديث حتى حد التجرؤ والاستطالة وكان المتحدث مجنونا ، فلا تزجره ولا ترشده ! فقد كشـــف عنه الغطاء ، ولذا فحديثه متصـــل ٠

ويقترب الافتراض من الترجيح ، أن هذه الشخوص ما هى الا قصص وأساطير أدبية ٠ ولما كانت تروى حكايات مشابهة عن دراويش « البيكتاشية » حتى أمسنا القريب ، انتهى هذا المستشرق المذكور الى أن هذه الحكايات قد وقعت بالفعل ٠ ان « المجانين » يعرفون ربهم حق المعرفة من واقع خبرتهم

---

(١)تقصد أسطورة الغرام العربية « قيس وليلى » على أرجح الاقوال ، ولمزيد من التفصيلات انظر : يوسف صلاح الدين عبد السلام ، ليلى والمجنون ، مجلة كلية اللغات والترجمة ١٩٨١/٥ ص ١١١/١٢٤ ٠

المضنية . لقد نزل « لقمان سراخسى » (١) الى حومة الوغى على ظهر حصان مدجج . فعاد الى المدينة خجلا ومخضبا بالدماء . ولما سئل عن النصر أجاب :

— أنظروا الى ثوبى الملطخ بالدم : انه (٢) نفسه لم يجرؤ على أن يمسنى بأذى ؛ ولذا استعان بأحد الأتراك ، فلم أستطع أن أدافع عن نفسى .

ان « أبدال » (٣) كلمة تعدل كلمة « غبى أو ساذج » . وأمر هذه الكلمة هو أنه فى القرن الثانى عشر والثالث عشر كانت تعيش طائفة دينية ، أطلقت على نفسها اسم « روم أبدا للر » أو سذج الأناضوليين » . وكان لأتباع هذه الطائفة أمارات يعرفون بها فكانوا يحلقون رؤوسهم وحواجبهم ولحاهم بشفرة الحلاقة ، ويطوفون الآفاق بالمضارب والطبول . وثمة واحد من أعظم شعراء « البيكتاشية » الأول ، وهو « كايجوزوز أبدال » يحمل فى اسمه السذاجة وخلو البال . وكان يتعاطى الأفيون . وورد شىء كهذا فى قصائده . وكان من ادمانه بحيث أن سمى « الأفيون » منذ ذاك الحين باسمه « كايجوزوز » . ونادى « كايجوزوز أبدال » ربه متحديا :

— لو كنت بطلا ، فسر بنفسك فوق الصراط المصنوع من الشعر والذى يهوى من عليه الآثمون الى التردى !

وتبدو معظم قصائده فى وقعها على السامع غير مقفاة ، كترانيم وأشعار قدامى الكهنة (٤) — التى وصلتنا فى صورة أساطير .

ومنها على سبيل المثال :

---

(١) لقمان سراخسى : من كبار المتصوفة الذى جاهد كثيرا فى سلوكه الطريق ، وفجأة أنعم عليه بالكشف وولى منه العقل ، وأعتق من التكليف ، قارن : أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد ، لمحمد بن أبى سعيد ، ترجمة اسعاد عبد الهادى قنديل ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٤٠/٤١ .

(٢) مرجع الضمير ليس على الثوب ، وانما يقصد به « الله » .

(٣) من العربية « بدل » و « أبدال » تعنى فى التركية تولى درويش محل آخر بعد موته ؛ واتسع معناها عند البكتاشيين حتى سمى بها بعض كبار متصوفيها ، أمثال : كايجوزوز أبدال الذى عاش فى القرن ١٥ الميلادى ، وزار مصر ، وكون تكية بجبل المقطم ومات ودفن به .

(٤) فى النص الاصلى « تكر له مه » وهى تركية ؛ وتعنى أشعار الاطفال والسجع المقفى الذى لا معنى له ، وكان يردده بعض الدراويش فى أحاديثهم .

ـــ في سالف الزمان ، وغابر الأوان ، عندما كان الغربال مدسوسا في القش ، وكان يبصر الأعمى ، ويسمع الأصم ، وكنت أهدهد مهد أبى ، كانت تعيش امرأة مع بناتها الثلاث ، وكانوا يعيشون في فقر مدقع ٠٠٠

ويقولون أن اختيار « كايجوزوز » ـ وهو ابن لأحد البكوات ـ « قد تم أثناء رحلة للصيد ٠ فأطلق ذات مرة سهما نافذا الى أحد الوعول ، فأصابه فى كشحيه ٠ فولى الحيوان هاربا وقد ارتعدت فرائصه ٠ وأخـــذ يلاحقه « كايجوزوز » ـ وكان اسمه وقتئذ لا يزال « غيبيا » ـ الى أن وصل حتى منطقة « المالى » فى تكية الشيخ « أبدال موسى » الذى أخرج سهما من تحت ابطه ، وسأل « غيبى » اذا كان هذا الذى أمامه سهمه ٠ فخر « غيبى » ساجدا له ، وظل فى خدمته أربعين حولا ٠

ولما أتم الأربعين ، أرسل كشيخ الى مصر حيث أسس تكية بها ، وعمل على انتشار الطريقة ؛ حتى وافته المنية بعد أن غربت شمس حياته ٠

وقد بذلت همتى فى أن أترجم قصائد من « كايجوزوز » ، ولا سيما تلك التى يصنع فيها للسلحفاة جناحين ، وتتجمع فيها السحالى لكى يخرجوا الى « القرم » (١) ، وهى قصيدة ذات سبعة مقاطع ٠ومـــا ان عرجت فى دروبها ، وجدت النص وقد انسلخ عن الأسطر ، وأضحت الحكاية ممقوته ٠ وعز على « سيفيم » و « تورجوت » أن يفهما كيف أن قصيدة بسيطة كتلك تسبب فى ترجمتها مثل هذه الصعوبات ، وقالا ان هذا لشىء عجاب ٠ وظنت « سيفيم » أنها سوف تكون لى خير معين ، عندما تقول لى الكلمات الألمانية متى عرفتها ٠ فأخذت تكرر بأستمرار :

ـــ « آى ديك سى » (٢) أى هناك كلمة ذات أربع مقاطع أو كلمتين بمقطعين تتفقان مع الوزن الشعرى ٠ وأخذ « تورجوت » يبحث عن الكلمات التى يحس أنها ذات وقع ألمانى ٠

---

(١) شبه جزيرة القرم وهى تابعة للاتحاد السوفيتى حاليا ٠

(٢) كلمة ألمانية ومعناها السحلية

كنت قد فكرت بالفعل أن أركز كل عملى على « كايجوزوز » هذا ٠ ولكن سرعان ما تناثرت قصائده بين يدى وتفرقت ٠ وأصبحت طريقة عملى تشعر « سيفيم » بالامتعاض وهياج الأعصاب ٠ والآن حيث بدأت بالعمل - حسب زعمى - طفقت أهب كل نصف ساعة واقفة فأدلف الى المنزل ، أبحث عن كتاب ما فى درج « الكومودينو » أو فى « السحارة » تحت الفراش ، ثم أكر عائدة به الى الفناء ، وغالبا كان لا يقع الـكتاب المعنى تحـت يدى ، اللهم الا بالشراء ٠ وكان ينقضى وقت كثير حتى أعرج فى دروب الكتاب ٠ وقد تطوعت « سيفيم » تكرما فى أن تبحث معى عن المواضع التى أحتاجها ، ولكنها لم تكن أوفر حظا منى فى الوصول اليها ٠ فتأخذ طوال الوقت وهى تحملق فى صمت خلال السطور القليلة التى كتبتها فوق رقعة من الورق ٠ وكنت أكتب أحيانا سطرين قبل النوم تطييبا لنفسها كى أهدىء من روعها ٠ وكلما مثلت أمامها للكلام ، كنت أردد دائما :

— ان الاعداد هو كل شىء !

ومررت أثناء عودتى من الجامعة بميدان « باى زيد » وجعلت سمتى عبر صحن المسجد الى المقهى الواقع خلفه ؛ حيث طمعت فى لقاء « تورجوت » هناك ٠ وكان أحد رقاة الثعابين قد نصب سلاله أمـام الدرج المؤدى الى المسجد ٠ وصنع حوله بعض من الفضوليين نصف حلقة ٠ وكانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها رقاء ثعابين فى المدينة ٠ ولكن معظم الناس الذين يمرون بالميدان لم يعيروه اهتماما ، حتى الأطفال أنفسهم كانوا يشـترون حلواهم وأسماطهم دون أن يلووا على شىء سوى « السقا » ، والذى يبدو أنه يتعاون مع هذا الرقاء ٠ فقد حاول أن يستلفت الأنظار اليه ؛ ومن ثم الى صاحبه أيضا ٠ فأخذ يصيح فى الناس بصوت عال مدعيا فى تفاخر أنه يستطيع أن يتعامل أيضا مع هذا النوع من الثعابين ٠

ودارت فى ذاكرتى مجموعة من اللوحات الفنية المرسوم عليها رقاة الثعابين وهم يعرضون على الناس فى حلبة السباق ألعابهم العجيبة بغرض تسليتهم أثناء الاحتفالات بختان واحد أو أكثر من الأمراء العثمانيين ٠ أما هنا - أمام مسجد « باى زيد » كان الرجل فى جلبابه الطويل والقلنسوة التى يضعها فوق رأسه ووقوفه وسط أناس يلبسون ثيابا أوروبية - تبدو عليه سمة من أتى من الهند الى هنا سيرا على الأقدام ٠ فقد كان منظره جـد

عجيب مدهش ٠ وكنت ذات مرة قد تابعت سير أحد رعاة الدببة بين « آيا صوفيا » و« سراى توبو كابى » ٠ وكانت سحنة الرجل تدل على أنه غجرى ٠ وما انفككت أسير وراءه ، حتى ضلته عيناى فى احدى الحوارى الكثيرة الغارقة فى عجيج من المنازل ٠ وتخيلت اذ ذاك أننى ما فتئت أسمع ضربات دفوفه ، دون أن أستطيع تحديد الوجهة التى يبتعد صوبها ٠

ولو كنت قد سلكت الطريق المختصرة عبر صحن المسجد ، لكان لزاما على أن أمر بالرقاء عن قرب شديد ٠ وقد سعيت ما وسعنى الى تجنب المرور به ، خشية الثعابين التى تتحرك فى حرية الى حـــد ما ، وتتمطى وتتلوى على أديم الرصيف الذى جلعت منه الشمس القائظة نارا موقدة ـ هذا بدلا من أن تتراقص فى طاعة وانقياد ـ كيفما تطلب منهم موسيقى الرقاء ، كما توقعت ٠

وقمت بدورة حول المسجد ٠ وقصدت المقهى من بعد ، واستطعت أن أرى فى الحال ـ دون أن ألفت نظر أحد الى أننى أبحث عن انســـان ـ أن « تورجوت » ليس موجودا ٠ وسرت الى صاحب المكتبة القديمة ، كما لو كانت هذه هى بغيتى من أول الأمر ، أقصد الى صاحب هذه المكتبة الذى سجلت اسمى عنده من قبل ٠

ووجدت أن أحد الكتب التى طلبتها قد وصل ابان الوقت المنصرم ، وهو كتاب حديث الطبع فوق ورق ردىء يسوده الغموض ، يحتـــوى على رسوم عجيبة ، أعيد طبعها فأصبحت أقل وضوحا وتذكرنا لقطاتها بأمور مجسدة ، تفسر بسبل مختلفة وتراها العين فى ضروب عديدة ٠

وكررت عائدة الى المقهى متأبطة الكتاب ٠ وأجلست نفسى الى واحدة من المناضد الخالية تحت شجرة « الدلب » (١) ، وان كنت لم أبصر « تورجوت» حتى تلك الفينة ٠ وكنت أجنح دائما الى استشعار البرودة ، لو لم ترسل الشمس أشعتها على صفحة وجهى ٠

---

(١) الدلب : شجر العيثام : مثل شجر الصنار ، وهو بالصنار أشبه ، قال أبو حنيفة ان الدلب شجر يعظم ويتسع ولا نور له ولا ثمر ، وهو مفرض الورق واسعه شبيه بورق الكرم ـ واحدته دلبه « لسان العرب » صفحة ١٤٠٦ ـ (د ل ب) ٠

وكان « تورجوت » متغيبا عن المنزل فى تلكم الليلة . ولذا فلم تقع عيناى عليه منذ صبح البارحة . ولم أدر ما تفسير الرغبة الجامحة التى تدفع بى الى مقابلته . وقد أشعرتنى خيبة الأمل التى أصابتنى بسبب غيابه بالدهشة والروع . لقد كان من الممكن أن تسير اللعبة الى غير ما صارت اليه : كأن يكون « تورجوت » جالسا هناك بالفعل عندما أتيت . ولئن كان الأمر كذلك ، كنت سأحدجه بنظرى فى غير ما اكتراث ، كيفما استطعت . وكنت سأسبر أغواره ، وأقرأ ما يرتسم على صفحة وجهه ، واذا كان لى أن أجلس اليه أم أتظاهر وكأنى لم أره البته . بيد أن الآية قد انعكست الآن ، وكان عليه أن يلعب اللعبة كيفما تطيب نفسه ، لو اتفق أن أتى . ولم أكن لأعرف ما طواه الغيب .

وأتى « تورجوت » على حين غرة ، بعد أن قطعت الأمل فى مجيئه . وجلس بجوارى دون أن ينبس ببنت شفة . وجعـــل يؤرجح رجليه جيئة وذهابا ، وهو يحملق أمامه فى اللامتناهى . وكان به جرح تحت صدغه الأيسر ، نجم عنه تورم يسير فى حمرة ضاربة الى الزرقة ، أضفت على وجهه تعبيرا غريبا . وبدلا من أن يجيب على سؤالى ، من أين له بهذه الجراح ، كشف لى عن ذراعه الأيسر ، الذى كان مشدودا بجبيرة ، ثم لوح لى فى نفس الوقت بايماءة تنم عن أنه يعنى أن هذا أمر غير ذى بال . وقد صدرت عنه هذه الايماءة فى لهجة عدوانية ، لم آلفها من قبل . وأماتت فى نفسى كل رجاء ، ولكن يبدو أنها دفعتنى دفعا الى معرفة هذا الأمر برمته . فعزفت عن الكلام لبرهة ، جعلت أقلب ابانها صفحات كتابى ، وانتظرت السؤال المرتقب الذى لم يطرق مسامعى الى الآن . ولما كان هذا السؤال لم يكن ليأتى على أى حال ، جعلت أرسل الى « تورجوت » وابلا من نظرات طويلة حادة ، حتى ألقى فى روعه أنه قد فاته أن يسألنى :

« أين كنت ؟ » . فأغرب فى الضحك اغرابا حتى صرت أشاركه ضحكه. واذ نحن على هذه الحال من الاسترسال فى الضحك ، اذ يمسك « تورجوت » يدى على حين غفلة ، وجعلها نصب وجهه ، وطفق يلعب بالخاتم الذى كنت قد ابتعته منذ وقت قصير من أحد الحوانيت لما يحمله ، من نقوش غريبة . ثم خلعه من اصبعى ، وحاول أن يدسه فى اصبعه ، فما استطاع الى هذا سبيلا . وقد صنع هذا كله فى مزاح عجيب ، جعلنى أسىء الظن به ، وأضمر

فى ذات صدرى عدم الثقة منه . وما ان ناشدته استرداد الخاتم ، كان قد قذف به فى جيب سراويله فى سرعة البرق .

فأردف حثيثا يقول :

ـــ ليس الآن ! يمكنك أن تسترديه ، عندما تهذبى من نفسك ما يعدل استردادك اياه !

وخامرنى شعور بأنه لم يعد يفكر فى أمر هذا الخاتم بعد الآن .
ومضت فترة من الصمت ، لم ينبس أحدنا خلالها بكلمة ، ثم أخذت اسائله فى لطف ولين :

ـــ اذهبت الى الطبيب ؟

وعاد يرمقنى من جديد ، بعد أن حيا انسانا يجلس بعيدا عنا ببضعة مناضد .

ـــ أقول ، هل ذهبت الى الطبيب ؟

فأومأ مرة أخرى فى استكبار وتعال . ولاح لى أنه كمن يعجب بنفسه عندما يمثل دور من لا تكله الآلام . لقد بغيت أن أقول له أن لا يتوانى فى الذهاب الى « أكسو » . بيد أن نظرته عادت صوب وجهة أخرى من جديد . فصادف هذا هوى فى نفسى ، ورجحت أن لهذا الأمر وقعا مؤلما فى صدره . فلسوف يسأله « أكسو » أيضا ، من أين له بتلكم الجراح ؟

ـــ أتبحث عن أحد ؟

قلت هذا بعد أن نفد صبرى ، وأنا أطوى فى مكنونات نفسى ضـــيقا شديدا مبعثه انه يتلفت حوله دائما يمنه ويسره ، وكان يبدو فى صـــولاته وجولاته كمن يستحث انسانا كائنا عن كثب منا ـ ولكنى لا أستطيع رؤيته ـ أن يقبل اليه . والقى بتحية ثانية فى اتجـــاه عينه ، كدأبه مذ جلسنا ، دون أن أستطيع رؤية انسان ، عله يكون هو الذى يرد عليـــه بالتحية .
فأجاب :

ـــ كلا ! لا أبحث عن أحد ! لقد أتيت الى هنا بمحض الصدفة هل تودين احتساء شىء آخر ؟

ثم أومأ الى « النادل » أن يفعل ، فعقبت :

ـــ كلا ! لا رغبة لى فى احتساء شىء آخر ٠

وجعلت أقلب صفحات كتابى من جديد ٠

ـــ هلم بنا عندئذ !

ـــ الى أين ؟

ورشفت ما تبقى فى قدحى من شاى ، وكان « تورجوت » قد انتصب واقفا بالفعل ! وعندما أخرج النقود ليضعها على المنضدة ، كان خاتمى من بينها ٠ ولكن ما ان هممت بالتقاطه حتى دسه فى جيبه من جديد ٠

وقال فى استغراب !

ـــ الى المنزل ! سوف نعود الى المنزل ! فيما أنت ظانة عندئذ !

ودفعنى بشدة صوب محطة السيارات القريبة منا ٠ وغدا ، كمن على عجلة من أمر يود أن يدركه ٠ وعادت موسيقى الرقاء تقرع مسامعنا بوضوح من جديد ، عندما مررنا بميدان « باى زيد » ٠ ولكن فى هذه المرة كان قد ألتف حوله حشد كبير من الناس ، حتى لم يعد المرء يبصره وسط هذا اللفيف ٠ وحديت بـ « تورجوت » أن يرقب هذا الرقاء ، ولكن طرفه لم يسرح صوبه مرة واحدة ؛ بل انه أسرع الخطى وهو يتأبط ذراعى ٠ وبدا منظرنا كمن يولى فرارا اثر مشهد مروع ٠

وصعد « تورجوت » أولا ، كى يحول دون جلوسى بجوار المسافر الآخر ـوهو رجل بدين مترهل ذو رجلين مفلطحتين ٠ وطوقنى بذراعه وكانت العربة لا تسير الا الى شارع « الملة » (١) ثم تعود أدراجها ٠فكان لزاما علينا أن نقطع بقية المسافة سيرا على الأقدام ٠ وكان « تورجوت » لا يزال قابضا على يدى ٠ وكنت أسير فوق حافة الرصيف المتآكل الذى أبلى عليه الدهر ٠ وحاولت أن أحفظ توازنى فوق أحجاره العتيقة ، بينما أخذ

(١) أخذت فى التركية معنى الامة ٠

« تورجوت » يطلق فمه بصفير فى نغم رتيب ، زادت به نفسى أنسا ، كلما استرسل فيه • ولكن ما ان كدت أتوصل الى سره ، حتى نكص على عقبيه مرة أخرى • وعما قليل أيقنت فى نفسى أنه من ترانيم الأناشيد الوطنية التى تتضمن الأغانى القومية ، على منوال نشيد الثورة الفرنسية « المرسيلييز » • فملئت نفسى دهشة واستغرابا ، وزلت قدماى عن الأحجار • ولكن ما لبث أن تغير صفيره ، حتى تحول كل شىء فى دفعة واحدة الى صـــياح « جول بانك » (١) ، وهو نداء الانكشاريين قبل الهجوم ، وهو نفس شعائر التوحيد التى كان ينادى بها « البكتاشيون » أثناء طقوسهم الدينية •

ولم تكن « سيفيم » قـــد آبت لوقتها الى البيت ، وكان « تورجوت » لا يحمل معه مفتاحا • ففتحنا بمفتاحى • وكان جد عجيب أن أعود الى المنزل، أقصد أن أعود الى المنزل مع « تورجوت » دون أن تكون « سيفيم » هناك • ودلفنا للحظة وصولنا الى الحمام سويا لغسل أيدينا • ولما عدت الى أخذ « الصابونة » ، كان « تورجوت » قد التقطها بيده فى الحال ، ورفعها عاليا ، فلم أستطع الوصول اليها • وصادف فعله هذا هوى فىنفسى ، فانقضضت عليه لكما وركلا • ولما لم يثمر هذا معه جعلت أزغزغه ، فهبطت ذراعاه الى أسفل ، فانسلت « الصابونة » من يده فى دائرة عالية حتى استقرت على الأرض • فأردت أن أنحنى لالتقاطها ولكن « تورجوت » دفعنى بشدة وحزمنى من ذراعى بعنف ، حتى لم أستطع أن أقوى على حراك • وحاولت الفكاك منه دون جدوى ، فأخذنا نلهث سويا بعد أن أغربنا فى الضحك • ولكن عناق « تورجوت » لى ما فتىء أن ازداد شدة ، فتذكرت فى خاطرى مشاهد عدة قد شاهدتها فى الأفلام من قبل ؛ ومنها أن يحمل الرجل المرأة فوق أكفى الحب والحنين ، فينقلها مترفقا الى مكان ما ، حيث يطيب اللقاء ويسـود الصفاء • واستوحيت من نظرات « تورجوت » أن شـــيئا كهذا قـــد جال بخاطره ؛ اذ تراخت عضلاته واكتسبت ملامحه بشىء من الجد ودفعنى بمنأى عنه فى ترفق • أما ما فعله عقب هذا ، فقد وقع فى نفسى موقع المحـــاولة الفاشلة التى يقوم بها انسان أخفق فى فعل شىء ويعاوده من جديد • فسدد لى ضربة ، وانحنى وراء « الصابونة » ؛ ثم أخذ يربت على صدره بصوت

---

(١) « جول بانك » كلمة فارسية تعنى نداء العاشقين والمحاربين • وقد استعملها البكتاشيون كثيرا فى صلواتهم •

مسموع • ولما وضعت يداى تحت الماء دون أن أقوم بمحاولة أخرى لنزع « الصابونة » ، ألفيته يقوم بدور خادم الحمام الأريب ، فراح يصبن لى يدى ويدعكها بشدة حتى المتنى •

وعندما اخذنا مجلسنا فى المطبخ ، فى انتظار مياه الشاى حتى تغلى ، انبريت أسالة :

ـــ كيف أصبت بهذه الجراح ؟

ونهض « تورجوت » من مكانه ، وملأ الابريق الصغير بأوراق الشاى • وكررت فى لجاجة :

ـــ هل تشاجرت مع أحد ؟

ونهضت انا الأخرى من مكانى ، ووضعت الأقداح على مؤخراتها ، ثم ملأت قصعة صغيرة بالسكر من أحد الأكياس • ولـم يحر « تورجوت » بجواب •

ـــ أنت !

ولكزته بكوعى بشدة • ويبدو أن لكزتى قد أصابت الموضع الذى جرح فيه ذراعه تماما ، لأن وجهه امتقع لساعته • وتقطبت اساريره من شـــدة الألم ؛ ثم مسك الموضع اياه بيده الأخرى ، وصاح فى تأوه :

ـــ آه ••• ويحك أيتها الشقية ! فتعسا لاصرارك •••
لقد ضربت ! اكفاك ! ؟
ســـألته :
ـــ ولمـــاذا ؟
ـــ لا لشىء ••• لا لشىء البتة ! •••

وكانت مياه الشاى ابان هذا الوقت قد أخذت فى الغليان • فسكب « تورجوت » جزءا منها فى الابريق الصغير ؛ ثم جعل يقلب ، وسكب الجزء

الآخر فى الابريق الكبير الذى ثبت عليه الابريق الأصغر · ووضعت هـــذه الأشياء فوق صينية ، وحملتها ، وخرجت بها الى فناء الدار · وجلسنا سويا على المقعد الكبير المسنود الى الجدار ، بعد أن سحبنا المنضدة اليه · فأخذت اقـــــول :

ـــ لتقص على ما كان من أمرك !

ولكن « تورجوت » أرسل شكواه فى تذمر فجأة بسبب أوجاع فى الرأس المت به · فتمدد وتمطى ، وألقى برأسه فى حجرى ، وبقى مستلقيا هكذا ، بعينين مغمضتين دون أن ينبس بكلمة ، حتى قدمت « سيفيم » ·

وسألته « سيفيم » أيضـــا عن جراحه تلك · ولكنها لم تنعم بجواب مثلى · غير انها لم تكف عن القاء السؤال تلو السؤال · ولم يكن الحاحها عليه بالسؤال فحسب ، وانما لا حظت أيضا من طريقة تحركاتها أثناء اعداد الطعام أنها كانت تضمر فى ذات صدرها شيئا · وعندما اخـــذنا مجلسنا جميعا فى الفناء ، أخذت تكرر فى حديثها كلمة « عائلة » على غير العادة ، حتى أوغرت صدرى ، وشعرت بغضاضة · ولما فهمت ما كانت ترمى اليه ، انسحبت بحجة قوية لم يستطع أحد أن يدمغها ، بعد أن فرغنا من تنــاول الطعام · ووجدت فراشى معدا ومجهزا ، كما لو كانت « سيفيم » قد عمدت الى التعجيل بنومى · فتهالكت الى الفراش ، وحاولت بعد ذلك أن أقرأ شيئا متكئة على ذراعى · فأخذت أقلب الصــفحات تباعا · وسرعان ما غالبنى النعاس لأنى ما ان آويت الى الفراش ، حتى حل بى التعب فى شدة عجزت دونها مقاومتى ·

وعبر النافذة المفتوحة تناهى الى مسامعى همس دار بين « سيفيم » و « تورجوت » لهنيهة ، ولكنى لم أستطع أن افهم من همسهما شيئا ، وكأنهما يتناجيان بلغة اخرى لا تفصح عن مكنونات الشعور ولا تلمح لك بشىء عما تدور حوله المناجاة ، فما انتهى الى اســـماعى كان ذا وقع فى اذنى كما لو كانا يرتلان سويا نصوصا طويلة متواترة منذ القدم ؛ حيث كان ارتفاع وانخفاض الصوت لا يسير فى اتصال على نغمـــة رتيبة ـ كلغة حـــديثنا اليومى ـ وانما كان يمشى تبعا لقواعد موحدة مقدسة · على أى حال تصورت

هذا · ولعل النوم الذى غرق فيه الهمس كان سببا فى ذلك · فتصورت أنى أنام على أشلاء كلمات عديدة سوف يكشف لى عن معناها فى المنام ·

وعندما استيقظت من نومى ، اعتقدت أن الصـــبح قد ابان عن غرته الشهباء ، وتوهمت بعد ذلك أنى سمعت صرير الباب وهو يفتح · ولم يمض وقت طويل حتى ولجت « ســيفيم » باب الحجرة ، فخلعت عنها ملابســها واستلقت هى الأخرى فى الفراش دون أن تشعل النور · أما فى الحجرة المجاورة فقد لف الهدوء كل شىء · ولم أكن لأتصور غير أن « تورجوت » قد غادر البيت من جديد · ولكنى كنت من التعب ما صرفنى عن أن أسأل « سيفيم » عن سبب خروجه ·

احدى هدايا البشرية التى تعيش فى القرن العشرين :

الوجه الباطن للبكتاشية ، سبر أغوارها ، وتحليل تفرعاتها ، وفحص جوهرها ، وضمائرها المطلوبة ·

جزءان مجتمعان ، أولهما فى طبعته الخامسة ، قام بتأليفه درويش سابق أخذته النخوة ورأى من واجبه أن يتصدى لهذا السيل المتدفق من الشائعات والأكاذيب والتضليل الذى تفشى بين الاخوان « السنيين » · وقد تمزقت ستائر الأسرار بكاملها وتبينت أسباب الخلاف مع السنيين مشروحة جملة وتفصيلا ·

لقد عرفت الآن ـ لماذا كان « البكتاشيون » لا يأكلون لحم الأرانب البرية · فقد عزوا سبب عدم أكلها الى أنها تشبه مجموعة من الحيوانات ؛ فان رأسها تشبه رأس الهرة ، وآذانها تشبه أذنى الحمار ، وسيقانها تشبه سيقان الكلب ، وأنفها يشبه أنف الجرز ، وذيلها يشبه ذيل الخنزير · وثمة علامات تتشابه فيها أنثاه مع المرأة فى « دورة الحيض » على سبيل المثال · وليس من هذه الحيوانات ما يؤكل لحمه ·

فضلا عن هذا ، فهناك غرائب فى طريقة هـــذا الحيوان فى التناسل والتكاثر ، ولا يحمل هذا الحيوان على جسده جراما واحدا من اللحم المشفى

السائغ · ان كل ما يحمله على جسـده هى مجرد كتل من الدم المتجمد ، وكفى !

وكذب بعض الناس هذا القول ، وجعلوا تصديقه رهن التجربة · فجاءوا بهذا الحيوان ، وصبوا عليه ماء سلسبيلا ، ثم أثقلوه بحجر · وبعـد نذر يسير من الوقت ، عندما أطلوا عليه مرة أخرى ، تأكدوا أن كل ما كان عليه من لحم قد تفكك وذاب ، ولم يتبق عليه شىء سوى هيكله العظمى ·

ان الحوائج اللازمة لاعداد هذا الحيوان ؛ كالسلال الملأى بالبصـل والثوم فى حجم رؤوس الأطفال ، والدهن المصـفى الذى بدونه لا يستطعمه الذوق ؛ كل هذه الأشياء تتكلف أموالا كثيرة حتى يحصل عليها الانسان · وان حذاء باليا ليستمرئه الانسان هنيئا مريئا ، لو طهى بمثل هذه الحوائج · أليس من الحكمة عندئذ ورجاحة العقل أن نشترى « حملا صغير » أو « ديكا روميا » فنزدرده بشهية طيبة ازدرادا ؟ ؟

لقد صار « البكتاشيون » مضغة الأفواه ومرتعا خصبا للقيل والقال · فمما نسبته ألسنة الناس اليهم أنهم كانوا يعتبرون الأرنب البرى بمنزلة هرة الامام « على » · وبذا يكون من الحيوانات المقدسة ، وأن هذا هو السبب الذى دفعهم الى تحريم لحمه · غير أن هذا ليس بصحيح ! انهم لا يأكلون الأرانب البرية لأنهم عرفوا أن أكلها يضر بالصحة ·

ولو كلفنا أنفسنا نذرا يسيرا من عناء البحث والتدقيق ، فلسـوف يمكننا ادراك العلة السليمة لكل شىء · ان واحدا من الأسباب التى جعلت « البكتاشيين » لا يقربون لحم الأرنب هو أن رأسه تشبه رأس الهرة · أما لماذا لم يأكلوه من جانب آخر ، فانه يتعلق بالهرة مرة ثانية ـ فلدينا حينئذ دليل من الجانبين ·

وقد رسم سيد يدعى « طاهر زاده » في نفس الكتاب صورا لكل من : « الامام على » و « والحسن » والحاج بيكتاش الولى « وباليم سلطان » « وكيذل ديلى » ـ الملقب بالمجنون الأحمر ـ على شكل « الميداليون » · ولا يمكن أن يكون قد انقضى عليها سالف عهد طويل ، لأن امضاءاتها كانت باللغة

اللاتينية · وبالنظر الى الصور وجدت ما يلى : ان الرباط الأسرى الذى يربط بين « الحسن والحسين وعلى » لا يمكن أن يتطرق اليه الشك من أدنى سبيل · فالوجه واحد ، ولكن فى أحجام مختلفة أمام شمس لا ترسل ظلالا ، ينظر عن ذات اليمين تارة ، وعن ذات الشمال تارة أخرى ، وتارة ثالثة ، يسرح ببصره امامه · وانه لوجه حسن جميل تكتنفه لحية ســـوداء كثة ، ويتصدره حاجبان مقرونان كبيران · وتبرز الشفة الســـفلى فى غلظة الى الأمام · أما الرقبة وشعر الرأس فكانا ملثمين بالقفطان والقلنسوة · وفى صورة « الحسن » كان يمكن أن ترى أيضا الأذن اليسرى بجانب ما سبق · أما الامام « على » فكان يرى حتى عقبيه الذى يقبع عليهما ، وهو قابض على حسامه « ذى الفقار » ، والذى راح لسانه المبتور ضحية الجانب الأيسر من الصورة · وكانت تبدو الوجوه وكأنها رسمت عن صور أخرى غير واضحة المعالم · فكانت تقاطيعها مبهمة ·

وتختلف عنها تماما صورة « الحاج بكتاش » ، وان كان الرسام الذى رسم هذه هو نفسه الذى رسم تلك · ان صورته تذكرنى بصورة أحد السحرة الايرانيين ؛ القبعة ذات الشكل المخروطى والمرصعة بالحلى المنضـــورة ، وحافتها المرفوعة الى أعلى والموشاة بالزخارف أيضا ، والقبعة وحافتها تستقران فوق رأس ، شقت عيناه فى فتحتين متسعتين · وان اللحية الكثة البيضاء يعلوها فى شموخ شارب مدبب ، والتجاعيد التى تكســـو الجبين لتبعد فى كثير عن ملامح الأعرابى ؛ وحتى الأكياس الدمعية بالامكان رؤيتها ·

ولم تكن نظرته وحدها هى التى تتجه صوب اليسار ، بل ورأسه أيضا فى حين أن يده اليمنى التى دست أصابعها فى قفازات حديدية مدببة تستقر على صدره تحت تميمة « التسليم طاش » — « الحجر الذى به يسلم حامله ولم تكن الصورة ذاتها مستطيلة الشكل كبقية الصور ، وانما كانت مربعة ؛ أو بتعبير أدق كانت ذات زوايا قوائم · ولما كانت الجوانب الأربعة تغشيها جوانب مزينة أخرى ، بدت الصورة وكأنها ذات زوايا ثمان ·

أما « باليم سلطان » الذى يعتبر من وجه آخر — المصلح الذى ادخل نظام « الرهبنة » والتصوف الرمزى (١) وحلقان الأذن — فهو يشبه الى حد

---

(١) هو ما يعرف فى التصوف الاسلامى بحساب الجمل ·

كبير أعضاء العائلة المقدسة (١) ، وان كانت عينه تنظر الى اليسار نظرة شذراء أكثر من عين « على » ـ على سبيل المثال . ويظهر هذا عن طريق تجعيدة طويلة بين حاجبيه المقطبين والمرفوعين فى خط رفيع جدا . وغطاء رأسه ليس هو بالعمامة البسيطة ولا هو بالقبعة المدببة . وانما هو تاج من القماش يتكون من اثنتى عشرة عقدة وملفوف بشال ليحل محل حافة القبعة ويتهادى طرفى هذا الشال فوق صفحة الهواء ذات اليمين وذات الشمال ، ويعلق « حجرا مقدسا » فى عقد من الأحجار الكريمة يتدلى فوق قفطان من القماش الأسود . ومع هذا فقد بدا الرجل غير عظيم الأثر ، كتاجر أدار عمله التجارى حسب تصوراته الخاصة .

أما « كيذل ديلى » ـ هذا المجنون الأحمر ـ فانه على النقيض منه . اذ يعتبر مثالا للبساطة بنظرته الرقيقة الفياضة التى يخرج سناها من وجه وديع لطيف تخترقه العين اختراقا . ليس بيده حجر ولا سيف ، ولا ترى من أذنيه أذن واحدة . انه أقل الصور واقعية فى الرسم ، ولكنه أكثرها فيضا بالرؤية وبالرقة والحنان . ومن يتطلع الى صورته يخيل اليه أنه ينظر اليه بنظرة ملؤها الرضا والابتسام .

انها لتحمل بين جوانحها شيئا من المناوشة والاثارة ، تلكم الصور . أخليق بطريقة الرسم أن تصنع شيئا كهذا ؟ ؟ ان الصور تبدو للناظرين ، وكأن الشخوص المرسومة على أديمها لا يزالون على قيد الحياة فيها ، ،أكثر مما لو التقطتهم عدسة آلة فوتوغرافية . ان صورة « سهيلة » من هذا المفهوم أصبحت ماثلة فى خاطرى واضحة المعالم عن أى فترة مضت . وخيل لى ، وكأن المودة والألفة ـ وأسأل نفسى أى مودة وأى ألفة ـ سوف تنال منها .

وبعد هذا التصاول والتجاول ، كانت هناك صورة أخرى لـ « محمد » ، وهو فتى صغير ، فى رسم عربى شعبى ، يشبه فى طلعته « مريم العذراء » ، وهى بنت اثنى عشر حولا . الرأس فى هالة شيماء ، تحف حولها رؤوس الملائكة الصغيرة ، عليها أجنحة ؛ يستند الى حربة ، ويحمل فى يديه راية ،

---

(١) عائلة الامام على .

ويتهادى من جرابه سيف طفولى مطعم بالحلى · فليس ثمة شيء من غموض الحروف ، وليس ثمة شيء من محو الذنوب عن طريق الحلى ، ولا التوضيح المتحفظ بواسطة الخطوط الأفقية والرأسية · فأمام ناظرنا وجـــوه عارية ملموسة تقع من النفس موقع الاعجـــاب والتساؤل · وليس من بينها غير صورة « كايجوزوز أبدال » ، فان بها شيئا من التحفظ الذى يكمن فى ظلال « السذاجة » ، على الرغم من بعدها عن الأساليب المعروفة · وتظهر الصورة فى جوانبها أثرا منغوليا · اليدان « بالسبحة » مكفوفتان ؛ وكلا الرجلين ممدودتان صوب اليسار فى نظرة جانبية كاملة ، والعينان مغمضتان باطراقة الى أســـفل ؛ ومن الخلف ينبوع متفجـر · عين ماء مشـــيدة يقبع على حافتها ليث هصور ؛ « أعلى » هو ؟ ؟ أســـد الله ؟ ؟ والمناظر الطبيعية من ورائها ، خطوط تشير الى جبل وتشع هدوءا لا متناهيا ·

وابتدر « أكسو » قائلا :

ـــ ربمـــا ···

ولم يكد يتم قوله ، حتى ألفيت نفسى فى منتصف الحلم بالشاطىء الذى سنجوبه على طول امتداده ؛ متقين حر الشمس الملتهب ؛ حيث نسير مع اشراقة الصبح ، وعند ميل الشمس الى الغروب ، عنـــدما يحين الأصيل · وسيغمرنا طوال اليوم ظل جلاميد الصخور المتعانقة المتشابكة ، أو نضرب بأيدينا فى زبد الأمواج ، ونتضـــاحك كلما ســـبحت ساقينا مع قـــوة التيار ، تاركة جسدينا فوق الشاطىء ثم نترامى الى الشـــاطىء · ونتطلع الى الزبد ، وهو يتطاير من علينا ، ومعه أيضا من طحالب البحر والقليل من قطرات القطران ·· أقول القليل ـ لو أسعدتنا أقدارنا ، ولم تكن احدى الناقلات قد ألقت بمخلفاتها قريبا من الشاطىء ·

سنجوب الشاطىء ركضا وتواثبا ، حتى نصـــل الى « صامسون أو طرابزون » (١) كيفما وسعنا المسير بلا عجلة وربما يصـــل بنا الميـــير الى « رضا » (٢) حيث مزارع الشـــاى وحيث توجد هناك أقمشة أيضا

---

(١) مدن تركية تقع على ساحل البحر الاسود ·

(٢)مدينة أيضا ·

كالقطن . وسـوف ترين نوعا معينا من النسـيج ؛ ومثلت فى ذكراى صورة لعديد من القمصان والبلوزات المغزولة والمنسوجة من الكتان الخشن ، والتى ما كانت لتوضع فوق جسد ، الا بعد غليها مرات عديدة . رأيت هذه القمصان وتلكم البلوزات ؛ والنسوة يعرضنها للبيع ، وقد وضـعنها فوق مناضد وكراسى أمام منازلهن ، ولعـل هؤلاء النسوة من « اللازينيات » (١) فى ثيابهن المختلفة ، ضـاحكات من وراء طرف الخمـار المرفوع الذى لا يشبه الحجاب من أى سبيل .

وتأملت نبات العنب البرى الذى يمتد حتى صـفحة البحر ، وثلة الأشجار والأزهار ، كتلك التى يراها المرء فى أحضان « الألب » ، والتى تزداد انتشارا كلما اتجه صوب الشرق ، وأشـجار الصـنوبر الجاثمة على الطرقات ، والعرائش الخشـبية المقامة قبل تفرع الطريق فى انحداره الى البحر ، والخضرة اليانعة التى تحفظ نضـارتها من الذبول حتى فى الصيف ، وهطول الأمطار أحيانا أثناء الشهور القائظة ، والعواصف التى تزمجر طوال الليل ، حتى قبيل الشروق ، فتضع أوزارها ويخبو أوارها كما لو كانت اشراقة النهار قد أتت لتضع نهاية لها .

والمنائر والفنادق الصغيرة التى تعلوها قليلا أو تدنوها قليلا ، والتى طليت اطارات أبوابها ونوافذها بطلاء أزرق ، والشرفات حيث يحلو للمرء أن يأكل السمك ، وينظر الى البحر مشرئبا ؛ فالبحر بعمقه النسبى ولا خوف ولا حزن منه كلما أرسل زفراته الى الأرض فى ظلام الدجى ، وسلط عليها زبده فى عتو ونفور ، وأشجار البندق ، وأشجار التبغ ، وأشياء كثيرة مما تنبت الأرض .

ولسوف نمر فى طريقنا بقطعان الماشية وبالمنازل ذات الطلاء الأبيض والأسقف المقرمدة ، التى تتناثر تباعا فى بطون السـهول وعلى جوانب السـفوح ، لا يفصلها عن البحر شىء سوى الطريق ، ولكنها فى مأمن من سيله وزبده ، وحسبها أمنا وأمانا أنها تعلوه فى الارتفاع .

---

(١) لازينين نسبة الى اسم العشيرة التى ينتمين اليها فى شمال تركيا .

سوف نرحل بعيدا عن المدينة ، بعيدا عن قيظها ، وبعيدا عن ظروفها والتزاماتها ، سوف نرحل قاصدين البحر الأسود ، ولنشد ركابنا الى كل الأماكن التى عرفتها من حكايات « أكسو » ، والتى سحرنى بها ، وسنقيم هناك ، ما ان طاب لنا المقام ، وما ان أذعن الخليج لمطالبنا ، ما ان أحجم أصحاب الحانات ومرتادوها عن توجيه الأسئلة لنا ، وما ان بقى باب المقهى فى هذا المكان مفتوحا فى شىء من الحفاوة والترحيب ، أو باب الملهى على الشاطىء ، حيث تجلس زوجات المعلمين والضباط ، وفى أيديهن « أدوات التطريز » فى عرائش خشبية تقيهن النظرات وعصف الرياح •

سوف نرحل بعيدا عن « سيفيم » و « تورجوت » ، ونفيق من نعستنا بعد أن كنا راقدين لا يفصل بين جسدينا شىء ، ولسوف نبهت من الدهشة قليلا ، وسيزداد شعر « أكسو » بياضا من الشمس ، وبشرته اسمرارا ، وسيلفنى بعطفه وحبه ، كما يلفنى المعطف الذى أرتديه فى يوم قارس برده ، وسيلتم شعثنا ـ ونبقى معا ليلا ونهارا ، وسنلتقى هـــذه المرة لا لأنهض واقفة ، ثم أنصرف ! وسنبقى بالماء متطايرة ملوحته فوق اللســـان ، وننظر الى أعلى ، فنرى السماء ، ويتهدل شعرنا فى الرياح ، ونكتسب لونا كثيرا ما يسبب بعد ذلك فى الليل ألما ، ويتطاير شرره من خلاله كمادة مبللة •

سوف نسير ذراعا بذراع ـ ليت شعرى ان كان المرء يستطيع هـــذا هنـــاك ! ـ نســـير ذراعا بذراع على الطرقات المتشعبة ، ثم ننزل الى البحر ، ونبدل ما علينا من ثياب خلف المنشـــفات المرفوعة ، وننزع قشر الخوخ الذى أحضرناه معنا لنلتهمه ، ويتماس جســـدانا أثناء رقادنا اذا لم يكن أحد بالقرب منا ، وننقب عن حشرات الأحجار العجيبة التى تعيش فى ثقوب الصخور ، ونفرك الأعشاب بين أصابعنا ، ونتنادم الســـكر ، فنسكر رويدا رويدا ، ونشرب نخب النجـــوم التى تتدلى قريبة منا ، حتى تكاد أيدينا تلتقطها من عنان السماء التقاطا •

الا ليت حب « أكســو » ينمو ويزدهر ، الا ليتـــه يزداد يوما بعـــد يوم كالبرعم الصـــغير ، كلما وهبته الشمس عصارة الحيـــاة ، وخشيت الا أستطيع مجاراة هذا الحب ، عندما ينمو ويزداد ؛ فلســـوف تكون تلك هى فرصتى الأخيرة للحاق به •

وقال « اكسو » :

ــ بمجرد أن افرغ من عملى ...

ووضح لى اننى سوف أتشبث بالحلم قليلا ، واشكله حسب ما يصادف نفسى ؛ فصرت أحرك الجبال والأنهار الى كل اتجاه تتمناه نفسى ، فأصنع على يدى جمال الطبيعة الذى سوف ننغمس فيه ، شموس وأقمار تشرق وتغرب حسب هواى .

ولا مناص من التسليم ، بأنه قد شغلنى وقتا طويلا ؛ أقصد الحلم . ولا مناص من أن اقر بأننى خصصت له وقتا معينا وأحطته بالعناية والرعاية ، كمن يهدهد حيوانا ذا شعر طويل . ولا سبيل الا أن أقول أنى طفقت أغذيه بصور وأوهام أصبحت طوع يدى وأقرب الى نفسى .

أغذيه بتورايخ ومعلومات ، كأن اقول مثلا هطلت السماء هكذا ، او هكذا فى العام الماضى ، ويا لكثرة ما هطلت ! جعلت أغذيه بعدد السفن التى تمخر عباب البحر على امتداد الشاطىء ، والتى يمكن للمرء تغييرها بأخرى قاصدة وجهته .

وهذه الخميلة المكسوة بالخضرة فوق الجزيرة النائية المنيعة التى لم تطأها قدم انسان قط لا بد أنها معبد « الأمازونيات » (١) الشهير الذى بنى تقديسا لاله الحرب « المريخ » .

وددت أن أصل الى « جيريسون » (٢) فى اقل تقدير . اذ يزعم كثير من الناس أن « لوكوليوس » (٣) نقل ثمار الكريز الأولى الى « روما » من هناك ؛ تمنيت أن لو أنقل قدمى فوق هذا الطلل المكسو بخميلة خضراء ، وأن أرقب الجرذان وهى تتواثب من الجحور التى اكسبتها الشمس حرارة

---

(١) كلمة أغريقية أطلقت على النساء الفرسان المحاربات .

(٢) مدينة فى شمال تركيا .

(٣) حاكم رومانى مشهور بولائمه الكبرى التى تقدم فيها اشهر مأكولات العصر.

كقطرات المياه ، عندما تسيل فوق قرص التنور المستعر ، أو هى تكاد تتحول الى ثعبان ـ أقول تكاد ـ مثل ما حدث فى « ايفى سوس » (١) ـ سوى أنه لن يكون هناك ثعبان سام بسبب المناخ الأكثر برودة ٠

وسنجلس متشابكى الأيدى فى « أوتوبيسات » متعددة ، الواحد تلو الآخر ، ولن نكون فى حاجة الى أن نسير فى بكرة الصباح أو تحت شمس الأصيل ، وأنه لو قصدنا مكانا أبعد من « شيلى » ، فلسوف تصادفنا ساعات من الحر القائظ ، يلفحنا بناره ، حتى اذا ران علينا الجمود والتصـــلد ، فلا ننفض الغبار عن وجوهنا بعـــد ذلك منتظرين ، لعلنا نســتطيع ابان فترة راحتنا المقبلة من سفرنا شراء زجاجة ماء فى أقل تقدير ، أو شـــيئا يؤكل ، وســنحاول أن نسرع خطانا ما اســتطعنا الى هذا ســـبيلا ، ونلتهم الطبيعة بأعين نهمة التهاما ، وسنبقى ساعات طويلة ، تطمئن قلوبنا بحقيقة أن هذا الفيلم لن يتوقف وأنه ممتد ما انبســـطت الأرض ، تزينها الخضرة والزرقة ، والسمرة ، وأن ثمة حميرا ، وماعزا ، وحملانا ، وقطعانا أخرى من الدواب ، وأشـجار الجوز ، والأعناب البرية والتبغ ، والفاكهة التى تنمو وتزدهر ، دون أن يطوف برأسينا أنها تســـتطيع فعل هـــذا دون أن يطـــوف برأســـينا ، أنها ما انتهت من فعل هـــذا ، ولســـوف نراه بأعيننا ونقتنع به ٠

ولكننا بقينا تقر أعيننا بالبحر والرمـــل والشـــاطىء ، وتنشرح صـــدورنا بمشاهدة العوم والتأمل ، ونحن رقاد تحنو علينا الأرض ، والأكل فى المطعمين أو الثلاثة مطاعم المتشابهة ، وأحاديثنا مع صـــاحب الحانة ، ومع زوجتـــه ، ومع بقية رواد المطعـــم ، اذ لم يكن هنـــاك ما يحول دون ذلك ، ســـوف ترضى نفســـانا ببرنامج السينما ، وبالأربع أو الخمس من طرق الترنيض الممـــكنة ، وبالخمس أو الســـت من أدوار الشطرنج والورق أو النرد ٠ وكم سيكون جميلا أن أرى « أكسو » عندئذ ٠ ان الانسان ليستطيع أن يتحدث عن كل شىء حديثا مستطالا ، حتى يغدو أمرا قد خرج عن طور المألوف المعتاد ! اننا نتملق أنفسنا ونتزلف اليهـــا بكلمات وأوهام حول أشياء تبعث فى نفوسنا الراحة والحب والجمـــال ٠

---

(١) مدينة يونانية فى غرب الاناضول وبها كثير من الاطلال اليونانية القديمة ٠

وما ان أخذنا نتحدث عنها ، نراها قد فقدت جزءا من جوهرها ، جزءا باقيا للاستخدام ، طالما بقى للـكلمة أثر • وأخـذ يحادث كل منا صـاحبه ، وكأننا قد ولجنا بأحلامنا دنيا الحقائق ، وغدونا ، وكأننا قد أدركنا كل ما كان من مقاصدنا ، وازدادت مخاوفى ، من أن أستيقظ يوما ، فأجدنى وحيـدة مع « أكسو » ، وخشيت أن ألفى نفسى هناك حقيقة ، حيث كان مقصدى ، ولكن قد تكون زحزحة شريط ساحلى تجاه تصورى هذا مؤديا الى انتكاسة كبرى لحلمى هذا •

على أنى لم أبادر من جانبى بشىء ، كى أخرج من هذا الحلم • فقد طالما تخيلت أنى سأحب « أكسو » الآن أكثر من قبل ؛ وأن زمام الأمر قـد افلت من يدى مذ أحبنى ، وحاولت أن أتقرب اليه بعلامات الحب والعطف ـ وهذا ما لم أفعله من قبل ـ وقد فعلت هذا استجابة لرغبة جامحة استبدت بى ، ألا وهى الرغبة فى أن أمحو من نفسى آخر أثر من آثار الكراهية والنفور• فحاولت الاقتراب منه ، عندما لا يكون فى جعبتى سلاح مكافىء أقاومه به • وعندما أسترجع طفولتى الأولى ، ثم أتمثل نفسى فى دور المراهقة ، فيزداد لذلك شعورى بالاغتراب أكثر فأكثر ؛ فيسرى عن نفسى نوع من الرضـا والجوى الذى كلما أشتد ، كان من الصعب مقاومته • فكان يحدث أحيانا أن أتلقف يد « أكسو » ، فأخذ فى تقبيلها بحرارة بنفس الطريقة التى يعبر بها أطفال القرية عن احترامهم لآبائهم • وبعد تقبيلها أضعها فوق جبهتى • وكنت أعتقد أننى لن أستطيع الاتيان بهذه الحـركة ، ولكن ما ان أتممتها حتى اضطرمت فى نفسى نيران مشاعر عديدة ، فتندت مقلتاى بالدموع ؛ وسولت لى نفسى أن ألتهم يده بأسنانى • فأخذ « أكسو » رأسى بين يديه ووضعها على كتفه فى ترفق ، ثم قال :

ـ أنـا أعرف ! أنـا أعرف !

ولم أكن على يقين من أنه يعرف حقيقة ، ولكن شيئا فى صوته كان يوحى بهذا • ولم أجد غضاضة فى أن أستفزه بهذه الطريقة وأن أصرفه عن حبه ، وأجعله يلتفت الى ، وكرهت عجزى وقصورى فى أن أفعل مثلما فعل على الأقل • وقد طالما شعرت بأن « أكسو » غريب عنى ، كغرابته يوم أن رأيته أول مرة وهو يحتضن بين يديه رأس حصان مشـدود الى عربة من عربات الحنطور •

ربما يكون هذا الحلم قد لعب دورا كبيرا جدا ، وذلك لأنه لم يكن من المؤكد منذ البداية متى سنسافر • فلقد اضطر « أكسو » الى قضاء فصل الصيف كله في المستشفى ، وذلك بتنازله عن حقه في الاجازة لرفاق عمله ممن لديهم أطفال • ولو لم نسافر في وقت عاجل ، فلن يتبقى أمامي سوى الخريف فقط - هذا ان طال بي المقام في المدينة على الاطــلاق - واكتفينا بالحديث حول تحديد يوم سفرنا ، وأضحى الحلم وأمسى يملأ الفراغ بين يومنا الحاضر ويوم سفرنا المرتقب ، وتشبث الحلم بتلابيبي ، حتى جعلت أفكر فيما سوف أقوله لـ « سيفيم » و « تورجوت » ، وما قد يمكن أن أقدم لهم من علل وأسباب •

ألا ليت شعري أن لو استطاعت السيدة « تاتارية » أن تقف بجانبي ؟ ، وفكرت في أن أخبرها عن هذا الأمر ببساطة ، وأن أستنصحها فيما ينبغي أن أقول وأن أفعل ، وبما أتعلل • وقد كان هذا الجانب من الحــلم مبعث قلق وهموم أثقلت نفسي ، وسعيت الى أن أطرد هذا الجانب من مخيلتي ، وألا أقيم له وزنا في فكري ، ولكنني ما فتئت أعاود التفكير فيه ، فطفقت أقول لنفسي ، لن تبقى الأوضاع كما كانت عليه من قبل ، عندما أرجع مع « أكســو » من الرحلة • وكذلك بعد عودتي من الرحلة لن يصبح « أكسو » بالنسبة لي هو نفس « أكسو » الذي ألفته كسلاح في يدي أستطيع أن أواجه به « سيفيم » و « تورجوت » • ولقد احتاج الى « سيفيم » و « تورجوت » كي أتحمــل « أكسو » !

وفي غمرة هذه التصورات كنت كلما استيقظت في الليــل ولم أجرؤ على أن أتقلب في الفراش ، كي لا أوقظ « سيفيم » - كان يتملكني حنين كبير الى البحر ، على امتداد الشاطيء ، الى الألوان والنســيم العطر ، والى الحركات التي أمارسها في حرية والتي تحررني من قيد هذا الثالوث والتي تعفيني من كل وسائل الاحتياط التي على أن أتخذها عندما أتحرك في الفراش• ورأيت نفسي أهرول فوق الأحجار والرمال الى الميــاه وخصلات شعري تتطاير في الهواء بذراعين مبسوطتين ، وفي صياح ولغط ، ثم أضحك في الوقت نفسه من فرط الحركة وعلو الصوت وكثرة النظرات التي استسلمت لها بلا قيود •

أى أن هناك نوعا من « التثليث » (الله ـ محمد ـ على) الضيف ، الصديق · انه « التجسيد » (١) الذى يعتبر فى مقام الملأ من الصورة الأصل· ألا يعد هذا سرا ؟ بالتأكيد : ألف (٢) ، لام ، ياء · فالوجه كحرف يمثل مكانا للتجلى ، انها الحمية والاثارة التى تنتاب الانسان أثناء البحث عن الكلمات الأخاذة السحرية ، أثناء اكتشاف عوالم ذات تراكيب مختلفة ، وأثناء استخلاص الجمل من السياق ·

الكون يستقر فوق حجر أحمر من الجنة · ومن تحته ثور أصفر ، ومن تحته سمكة ، ومن تحتها بحر ، ومن تحته ريح ، ومن تحت الريح ظلمة · وفى جانبى الصورة الأيمن والأيسر يقبع ملكان يمثلان الصالح والطالح من أعمال البشر ، وجوه تنظر من بين الأجنحة · وفى الوسط ملك فى صورة بشر ، مرسوم من أحرف احدى سور القرآن ، ممثلا العلاقة بين الطبائع البشرية وما تنبىء به النجوم ، فى احدى يديه ليث هصور ، وفى الأخرى تنين ، وخلفه بحار وأشجار ، والملك فوق السمكة ، والصورة فى شكل آخر تبدو هكذا :

شجرة ، يجلس فوقها ديك ، والملائكة بلا أجنحة تحيط برؤوسهم اطارات بيضاوية ، تزينها ورود وأزهار · والملك الذى فى الوسط هو انسان يقف أعلى سمكتين · وتغطى جسده أوراد وتعاويذ ·

لم يكن الفضول وحده هو الذى يدفعنى الى هذا · وانما قد آليت على نفسى أن أقتفى كل أثر ، مهما كان ضئيلا · وتأكدت الآن من أنه ينبغى على أن أضع « انجن بك » فى الحسبان ، وان كنت قد بقيت وقتا طويلا وأنا أشك فى هذا ·

لقد كان « الأستاذ » متحفظا فى سلوكه معى · فكان لا بد أن أرجع اليه فى كل صغيرة وكبيرة ، وأن أخاطبه على انفراد ، وأن ألتقى به ،

---

(١) مفاهيم مسيحية لا يعرفها ولا يقرها الاسلام ، ولعله قد التبس على الكاتبة ـ من منطلق عقيدتها ـ فهم هذا التصور لدى الشيعة ·

(٢) تعنى الكاتبة حرف العين ·

وأن أخبره بما وصلت اليه ، وما ينقصـــــنى ، وما يحظى باهتمامى أكثر من غيره • فعلاقتى به تسير فى نوع من التوازى المضحك كالعلاقة بين المرشد والمريد - بين درويش وتلميذه (١) • وهذا من صميم المصطلحات التى صرت أتعامل معها ، والتى أعتقد أنى أدرك كنه عوالمها ، وقد طالما حاولت توسيع هذه العلاقة بعناية شـــديدة ، ولكن قلة المعلومات كانت تجعلنى أشك فى صبرى •

وقال لى « انجن بك » ذات مرة :

— ان الطريق الذى سلكتينه لجد صعب !
وعندما ضحكت ، أردف :

— لا أستطيع مساعدتك ، ولا أرغب أيضا فى أن أساعدك •

ولكنى شعرت بالهدوء وراحة البال لمجرد أنه مهد لى السبيل • فبعد خطوة واحدة بدا لى أن أتساءل ، هل أنا التى وجدت الموضوع ؟ أم أنه هو الذى وجدنى ؟ وحاولت متجنبه ارجاع جزء من هذا الكل على نفسى ، وألا أسمح لنفسى بالمثالة اللاهية والذى قال عنها « انجن بك » بأنها ضرورية للعمل أيضا • لقد رفض « انجن بك » أن يتحمل أية مسئولية فى هذا الشأن ، حتى ولو من باب التهكم • وان على أن أبحث عن شىء آخر اذا ما تتطلب الموقف منى ذلك •

وكثيرا ما كانت « تاتارية » تتحدث عن « أكسو » • وتذكره بأنه انسان طيب ، ولذلك فانه لا يستغل وظيفته فى الحصول على مركز أعلى ، ولم اقو على مجاراتها القول ، وان كنت قد قطعت على نفسى عهدا ألا أتحدث معها فى شأن من شئون « أكسو » ، ولكن هذا العهد أصبح فى عداد الماضى • وكنا لا نفعل هذا بالطبع أمام « انجن بك » ، وانما كنا نتخير الأوقات التى نكون فيها على انفراد • وقالت انها ضد هذه الأشياء بصفة عامة ، ولكن الأمر

---

(١) ألقاب يخلعها المتصوفة على أناس معينين من أبناء الطريقة الذين وصلوا لدرجة معينة من العلم •

يختلف معى ومع « أكسو » - فلا بأس بنا نحن الاثنين - وقالت أن هــذا ما يمكن أن تتصوره ، ولا شك فى أنى أعرف ماذا تعنى ، عندما تكون ضد هــذا ، فليست المسألة مسألة مبادىء ، ولكنها التجربة • فكم رأت من هذا القبيل ملء الأعين الفشل بسبب الجهــل ، النقص فى ملكة التأقلم ، والآمال التى لم تتحقق • وجعلت أؤكد لها أن ليس « أكسو » ولا أنا لدينا أدنى نية لنقبل على هذا الأمر ، ولكن لم يجد هذا معها ، وراحت تقول :

— سوف نرى • انها تشعر بهذا في داخلها • وضجرت أخيرا من مواصلة الاستماع اليها •

لم يعد « انجن بك » يشد من أزرى بأى شكل • وكل ما كان يبادرنى به هو أنه كان يعترف باهتمامى وصبرى ومثابرتى • ولم أعد أهتم كثيرا باقناعه بأننى أريد أن أنتفع بعلمه • وبدأت أشعر من لحظة معينة ، بأننى لم أعــد أقف مكتوفة اليدين ، وبدأت أشعر بأننى قد وضعت أقدامى فوق الطريق الذى بحثت عن بدايته وقتا طــويلا • فلقد بدأت ؛ أو بالأحرى ، لقــد بدأ كل شىء • واستطعت دفعة واحدة أن أرقب وجهات النظر المختلفة • فأخــذت أتحرك صوب اتجاه معين ، واستطعت الآن أن أفرق بين ما أردت أن أعرفه وبين ما لا يدخل فى دائرة اهتمامى • وقال « انجن بك » :

— هذه هى اللبنة الأولى فى جدار عملك • وسوف ترين كيف أنك ستتقدمين ؟

كانت « سيفيم » فى هذه المرة ترتدى « شالوارا » قديما ، وهو عبارة عن سروال فضفاض من القطن الموشى ، و « بلوزة » بلا أكمــام ، كانت تخصنى ولم أعد أرتديها • وكانت طوال يومها مكبة على غسل ثيابها ، حتى تجعدت أناملها وأبيضت ، وراحت تنشر غسيلها فى الفناء خارجا • وكانت قطرات الماء تتساقط من الثياب المغسولة فتسيل على طول ذراعها حتى ابطيها اللذين كانا حليقين حديثا • ودلفت الى الحمام فى الحال ، كى أغسل يدى • وكنت عندئذ قد وصلت الى المنزل لتوى ولحظتى • وبعد ذلك أخذت أناولها قطع الثياب • وانبرت تقول :

— أنظرى !

وأشارت الى شعرها الذى كانت تلفه فى عصابة بيضاء تزدان حافتاها بـ « البرق » (١) . وكان طرفا العصابة معقودين معا فوق جبينيها . وكانت تبدو فى مظهرها كفلاحة « طراقينية » (٢) وهكذا كان ملبسها دائما ، كلما كانت تقوم بأداء أعمال كبيرة فى البيت . ثم شرعت تنظف الفناء بمكنسة يدوية وهى قابعة على عقبيها بطريقة تقليدية . ولم أكن لأعرف ماذا تعتزم أن تطلعنى عليه :

— ماذا ؟ هل اشتريت عصابة جديدة لرأسك ؟

— وأومأت بالنفى وأضافت :

— الحناء ! لقد صبغت شعرى بالحناء !

وبدت منها اشارة ثانية الى رأسها المعصوب . ثم استطردت تقـــول :

— لسوف يتلألأ فى الشمس براقا . فضلا عن أن أحدا لن يدرك سر بريقـــه !

ورحت أضحك ، ثم حملت الاناء الصفيح العريض الخالى الذى توضع فيه قطع الثياب المغسولة الى الحمام مرة ثانية ، كى آتيها ببقية الغسيل . ولم يكن « تورجوت » بالبيت عندئذ . ولعله لن يعود الا بعد هزيع من الليل . فقد طالما حدث كثيرا فى هذه الأيام أنه كان يعود أدراجه الى المنزل فى وقت متأخر ، وقد لا يعود أبدا فى بعض الأحيان . وجلست بعد ذلك مع « سيفيم » وحدنا فى الفناء ، وأخذت أقرأ وأدون بعض الملاحظات بين الفينة والأخرى ، على حين انهمكت « سيفيم » تتعلم الألمانية .

وكنت قد حاولت زيارة « سهيلة » مرة ثانية ابان هذا الوقت المنصرم . ورجعت بنفس النتيجة التى منيت بها فى المرة الأولى ، غير أن أحدا لم يفتح

---

(١) شىء صغير براق كالترتر تزان به الملابس .

(٢) نسبة الى « طراقين » اسم مكان .

لى الباب هذه المرة مطلقا • فكتبت سطرين على قصاصة من الورق ، وقمت بوضعها فى فتحة الخطابات بالباب • ولكن ما ان هممت بهذا ، حتى شعرت برغبة فى استردادها ثانية ، لأنى رأيت أن لا جدوى من فعل كهذا • فانثنت الورقة عندما شددتها ولم يبق منها سوى قطعة صغيرة فى يدى ، بها جزء من العنوان • وبدلا من أن أكتب قصاصة جديدة ، تركت الجزء المتبقى فى يدى يندس فى الفتحة ، ثم انصرفت • وأخبرنى البواب بأن الأسرة جميعها قد أتت فى الفترة الماضية ، ولكنها رحلت من جديد ، ونصحنى بأن أعيد الكرة ثانية بعد أسبوع ؛ فلربما أكون أكثر حظا • لقد كان نوعا من العناد المصحوب بعدم التوفيق ، لقد كان الأمر الذى بدأ به ولم ينته بعد ، هو الذى يدفعنى دوما الى أن أحاول مرة ثانية • انها التجربة الفاشلة التى أصر على معاودتها من جديد • فلم أرد أن أكف عن الذهاب الى « سهيلة » ، على الرغم من أنها صارت بالنسبة لى الآن بعد هذه المحاولات شيئا لا يشغل من بالى قيد أنملة • فلم أعثر على صورتها فى أى مكان • ولم أكن لأقطع الآن اذا كانت قد بقيت صورتها فى مخيلتى صحيحة كما هى • اذ كان يحدث كثيرا أن صورة « أيزل نور » التى رأيتها فى عدة أفلام بعد ذلك ، كانت تمثل أمام ناظرى ، كلما فكرت فى « سهيلة » ، وان كنت موقنة فى قرارة نفسى من أن احداهما لا تشبه الأخرى فى أى شىء • دارت فى رأسى هذه الخواطر ونحن جالستان فى الفناء • ولاح على محيا « سيفيم » أنها لا تتوقع قدوم « تورجوت » الليلة •

فقامت تحمل الشاى الى الفناء ، وأحضرت أنا جبنا وزيتونا ، ورحنا نأكل ، ولم تكن الشمس قد مالت الى المغيب بعد • ورفعت « سيفيم » عصابة رأسها ، وهزت شعرها ، وعرضت رأسها لأشعة الشمس • وبدا شعرها وكأن ألسنة من اللهيب تندلع الى علياء السماء • فقلت لها :

— « كيزيل باش » (١) : انك من ذوات الرؤوس الحمر الأصليين ، تشبهين العلويين بعمائمهم الحمراء •

---

(١) تركية الاصل : وهى تعنى أصحاب الرؤوس الحمراء نسبة الى ارتدائهم زى رأس أحمر • وهم مجموعة من المتصوفين الايرانيين ، وقد أطلق عليهم الاتراك هذا اللقب •

فسارعت تجيب :

— حاشا لله ! اننا منذ أجيال ونحن مؤمنون ايمانا صادقا ٠ ولا أستطيع أن أفهم ، ما شأنك أنت ، وعبدة الشيطان أولئك !

— ليسوا هم عبدة الشيطان ، بل ان عبدة الشيطان هم اليزيديون !
وهزت « سيفيم » كتفها استنكافا :
وقالت :

ماذا تقصدين بهذا ؟ أعلم جيدا أنك تعجبين بقصائد البيكتاشيين والعلويين ٠ ولا أشك فى أن المرء يستطيع أن يعرف منها الكثير عن لغتنا الحالية٠ولكن كل هؤلاء « الأولياء وأحباء الله والحجاج والشيوخ ـ هؤلاء الملائكة والشياطين والعفاريت » ـ ترى لأى شىء ينبغى أن يكون هؤلاء أخيارا ؟

فقلت :

— لا لشىء ! سوى أنهم ينتمون اليهم ٠
— من الخير لك أن ترتدى سراويلى هذه ٠ ولكن هل يمكنك أن تقولى لى ، ماذا جنيت من جراء هذا كله ؟ لا يخامرنى شك قط فى أنك تعلمين الكثير عن « بير سلطان أبدال » (١) أكثر منى ٠ ولو سألتك من أين اشتقت كلمة « الشالوار » ، فسوف تشرحينها لى شرحا مفصلا ٠ أما أنا ، فشأنى غير ذلك ٠ انى أرتدى هذا السروال المضحك حيث أضطر الى الانحناء كثيرا أثناء غسل الثياب ٠ انى أرتديها لأنه لا ضرر فى هذا ٠ ولكنك لو ارتديتيها فسوف تشعرين فيها شعورا غير الذى أحس به ٠

فقلت :

— قد يكون٠٠٠ولقد أتصور أنى أعرف شيئا عن أمر لم يعد له وجود،

---

(١) واحد من أعظم شعراء البكتاشيين ودراويشها ٠ وقد شنق عام ١٥٦٠ م من السلطات العثمانية وذلك لعلاقاته المشبوهة بالصفويين فى ايران ٠

غير أنه بالامكان البرهنة على أنه قد وجد وأنه كانت له وظيفته ·
ولقد أسمح لنفسى للحظة بشعور جياش · ليس هذا فحسب ،
بل قد أعيش نوعا من الرضا والقناعة حيث قد يكون بامكانى
أن أجعل نفسى تتواءم ، وتحمل واحدة من سمات مفاهيم حضارة
أخرى ، ولو لفترة قصيرة ·

فردت « سيفيم » :

— انى لا أفهمك فى بعض الأحيان · لقد عرفتنا ، وعشت معنا وتهتمين بكل ما يتصل بنا ، أقصد كل ما كان يتصل بنا فى الماضى · وتتحدثين بلغتنا ، وتعرفين الكثير من تاريخنا ، ولكنك بالرغم من كل هذا ، لا تنظرين حولك النظرة الواقعية ، ولا تدركين كثيرا مما يحدث ويجد من حولك · ان لك نظرة خاصة تحسنين بها النظر الى ماضينا أيما احسان ، أما حاضرنا فانه لا يعنيك أمره من قريب أو بعيد · ما بالك لا تريدين أن تلتمسى لنا العذر لأننا نقوض منازل كهذه ، كى نقيم بدلا عنها منزلا آخر يمكن أن يقام فى كل مكان فى الدنيا · انك لا تريدين أن تفهمى أن ليس هناك من بديل ·

فقلت :

— انك بهذا تظلميننى !

على الرغم من أنى كنت قد ظننت أنى أعرف جيدا ما الذى قصدته ، وكيف أنها على حق فيما قالت ·
وانطلقت « سيفيم » تقول :

— معذرة !

ووضعت يديها على كتفى لتطيب خاطرى ، وتهدىء من روعى · وأضافت :

— انك تدورين كمن يدور فى حلم ، وأريد أن أحذرك ، ولا تتصورى انك سوف تحسنين فهم الأشياء ، كلما ارتددت بالزمن الى الوراء · ان التراث ليس وحده صانع ما تربنيه علينا الآن ·

وليس التراث وحده هو الذى جعل كل شىء كما هو عليه الآن ٠ أنظرى الى هذه المدينة مثلا ! فسوف ترين أنها صـــارت شيئا مختلفا !

ولم نكن قد تحدثنا سويا حديثا كهذا من قبل ، وشعرت بالغرابة لأنها ادعت بعمومية صحة ما ذكرت ، ولأنها كانت تتحدث عنا وعن المـــدينة ٠ وشعرت بأنها تريد أن تنبهنى الى شىء ، ربما أكون قد تغاضيت عنه حقيقة ٠ فلقد قالت فى سياق كلامها ، وأريد أن أحذرك ! » ٠ ولاح لى الآن حقا ، وكأن كل ما قالته انما هو مجرد تحذير فريد ، لم أتوصل الى تفسير له الى الآن ٠ واعتقدت أنى أحس بنوع من التغيير بشكل أوضح ٠ ليس شيئا محسوسا أو على الأقل ليس بالنسبة لى ٠٠٠ ، ليس بالنسبة لى الآن ٠ وبدأت أدرك وجود شىء ما تدريجيا ، على الرغم من أنى لا أنظر حـــــولى النظرة الواقعية ، كما عبرت « سيفيم » ٠

وقالت :

— اننا نعيش كعائلة واحدة ٠ فأنا أعرفك ، وأعرف « تورجوت » ، وأعرف « آيتين » ، و « انجن بك » ، و « تاتارية » ٠ وحسبى هذا ٠ انكم لا تتجشمون أى عناء فى أن تشرحوا لى أى شىء ٠ انكم تنتظروننى حتى أسألكم ٠ ولكن لا طاقة للانسان أن يجد نفسه مضطرا دائما للسؤال ٠ لقد شرعت فى البحث عن شىء ، ويبدو أنى أبتعد فى بحثى هذا عن الوقت الذى نعيش فيه ٠ والسؤال يلد السؤال ٠ ويشق على نفسى أن أجمع كل هـــــذه الاجابات المبعثرة ٠ اننى كالأسيرة فى وسط هذه التفصيلات ٠ ربما تكونين على صواب عندما قلت أنى لا أعى كثيرا مما يدور حولى ٠ ثم سألتها :

— وأين « تورجوت » ؟
— تسألين ، أين « تورجوت » ؟

ورفعت منكبيها فى عصبية ، وتغيرت تقاطيعها ،وكأن السؤال عنه لم يخطر ببالها الا الآن فقط ٠

ـــ ما المسئول بأعلم من السائل ؟ ربما يأتى فى وقت لاحق ·
ورحت أرمقها بنظرات ثاقبة ، ثم انبريت أقول :

ـــ ما بالى أسألك ، وأنت لا تجيبين ! لقد أملت ألو أخبرتنى عندما يجد شىء ينبغى أن أعلم به !

فقالت « سيفيم » :

ـــ هذا صحيح ! ولكن لم يحدث شىء الى الآن بعد · ينبغى أن لا أتحدث معك هكذا ! اننى أشعر بالضيق فقط عندما لا يكون الجميع بالمنزل ·

ـــ لقد غدا شعرك جميلا براقا !

وأخذت خصلتين من شعرها فى يدى ، ثم عرضتهما لأشعة الضوء · وكانتا ناعمتى الملمس · ولم أدرك كثيرا من اللون الجديد ، ومع هذا فقد بدا شكل « سيفيم » مختلفا · وقالت « سيفيم » :

ـــ لا بد أنك راحلة فى يوم من الأيام ، ولسوف تنسينا · فسوف تعودين كرة أخرى الى حيث كنت تعيشين من قبل · ربما تضعين صورنا فى علبة أو حتى تلصقينها فى مكان ما · ثم تذكرينا ، كلما فتحت العلبة ، أو تصفحت « ألبوم صورك » · ولن تنسى الجانب الآخر أبدا ، أو لن تنسيه سريعا فى أقل تقدير · وسوف تكونين قد فرغت من كتابة عملك ، وربما تصيرين بعد ذلك معلمة· ولكنك على أى حال لن تستطيعى أبدا أن تنسى الجانب الآخر · سوف تقبعين فى بلدك هادئة مطمئنة ، قريرة العين بما حصلت من علم ، ثم تفكرين مليا ، كيما يمكن تفسير هذا الرمز أو ذاك ؛ بينما نحن هنا نعيش نهبة الأوبئة والثورات المدمرة والحرب الضروس · ولكن لا ضير فى هذا ! أتسمعيننى ! أقول لا ضير فى كل هذا فلقد أحببناك ، فأحببتنا · ومنذ وقت طويل ونحن نعيش تحت سقف واحد · كونى خالية البال · فلا ينبغى على أن أتحدث معك هكذا !

وأسرعت تحضنني بشدة ، وتشبعني لثما وتقبيلا • وانعقد لساني؛ فلم أدر بما عساني أن أجيب • لقد غدا تحذيرها أكثر وضوحا من جملة الى جملة • وفجأة أخذت تضحك وتقول :

— سوف نجن جميعا • وستعيشين حتى ترين منا هذا !

ثم هبت واقفة ، ودلفت الى المطبخ ، وعادت بشاي طازج ، ثم أجلست نفسها الى ثانية • وفتحت كتابها التعليمي الألماني • وراحت تقلب صفحاته • ثم أنشدت منه كلمتين ، بعد أن اعتدلت في جلستها ؛ حتى بدت على سحنتها سيماء الارتجالية الخطابية • وعندما كانت ترفع احدى يديها في شجن ، أزاحت بمرفقها الكتاب من على المنضدة ؛ فهوى الى الأرض •

وانحنيت لألتقط الكتاب ، ولكنها منعتني ، وقالت :

— دعك من هذا الأمر ! دعك ! فهذا أمر لا طائل من تحته • ولا أدري حقيقة ، علام يكمن الخير في هذا !

فلسوف أرحل الى القرية ، عندما يشرعون بتقويض هـــذا المنزل ، وسيكون لدى عمل كثير في تعليم الأطفال القراءة والكتابة وكل ما أراه ذا أهمية لهم • فلماذا أتكبد المتاعب في شيء لن يعود علي بالنفع ؟

وظل الكتاب مطروحا على الأرض • وبدا لي فجأة أنها قد جانبت الصواب فيما قالت • ثم انبرت « سيفيم » تحكي لي بعد ذلك عن طفولتها ، وعن أخيها الذي مات ، وعن بلدة « طراقية » (١) ، وعن منزلهم الذي شيدوه في الحقول ، وعن الورد والأزهار التي غرستها أمها • وقالت أيضا : أنهم اعتادوا الخروج الى غابة صغيرة كل يوم سبت في عربة مزركشة تجرها دابتان • وكانوا يدفئون « غلاي الشاي » هناك ؛ ثم يفترشون غطاء ويخرجون الطعام من السلال • أما الأطفال الصغار ، فكان يشد وثاقهم الى الأشجار ! أجل ! كان يشد وثاقهم الى الأشجار ! كانت هناك أحبال مربوطة بقطعة من القماش ذات طرفين ، ثم تشد هذه الأحبال الى فروع من الشجرة • وبعدها

(١) مدينة تركية في الأناضول : وهي مقسمة الى قسمين طراقية الشرقية وطراقية الغربية •

يؤتى بـ « الصـــغير » ، ويوضع فى داخلها · وكلما بكى الطفل ، كانوا يقومون بأرجحته · ثم أخذت تحكى عن حفل ختان أخيها ، وكيف أنهم أناموه فى الفراش المزركش بأوشحته الزاخرة بالألوان وتاجه الورقى الصغير ؛ ثم أخذت الهدايا تنهال عليه من كل صوب وحدب ، وكيف أتى بعد ذلك لاعبو « الأراجوز » وعرضوا ألعــابهم الطريفة على مرأى من أخيها والأطفـــال الآخرين · واستمرت تحكى ، كيف أن عمتها التى لم تتزوج قد أسلمت روحها للسماء ، وكيف أن الجميع قد بكوها ، وحزنوا عليها جميعا حزنا شديدا ، لأنها لم توفق الى بعل ، رغم أنها كانت ذات خلقة حسنة ؛ وما من شك فى أنها كانت ستنجب أطفالا ذوى خلقة حسنة مثلها ، لو أنها تزوجت · ثم جاء الدور بعد ذلك على أخى « سيفيم » ، فأسلم روحه هو الآخر بعد قليل ، اثر انفجار الزائدة ــ وندت عن « سيفيم » ضحكة ــ ثم أضافت :

ــ هذا شيء لا يستطيع انسان أن يتصوره اليوم ، ولكن للحياة فى الريف شأنا آخر !

ولم ينقض وقت طويل بعد وفاة أخيها ، حتى أدركت المنية جدها · وبعد قليل لحقت به جدتها ، وهكذا دب الموت بين أفراد عائلتها ، حتى أنها وثقت صلتها بالنائحات و « المعددات » · فلم تعد وجوههن غريبة عنها · وكانت « سيفيم » تمتلك حملا صغيرا داكن اللون · ولشد ما كانت تود أن تفتدى به أخاها عن طيب خاطر ، لو كان الموت يفتدى ! واضافت :

ــ هكذا يفكر الانسان ، عندما يكون طفلا ، ولكن لقد أدرك الانسان أن الحياة أخـــذ وعطاء ·· فلم يختلف الأمر عندئذ فى حالة الموت ! ·

وكانت « سيفيم » تحكى كل هذا فى نبرات مهدجة ، كما لو كانت تتمنى أن لو تمحى كل هذه الذكريات الأليمة من رأسها ، وكانت تبدو ، وكأنها تهبنى ذكرى حياتها الأولى · وكان يشوب نبرات صوتها عدم اهتمام باد ، كما لو كان لا يعنيها أيضا كل ما ألم بها من نكبات ولكنها مع هذا كانت تبدو وقد أثخنتها الجراح لقرارها أن تنفصل عن ماضيها · ولم يكن الوقت متأخرا ، عندما ختمت « سيفيم» حديثها ، واضطجعت فى جلستها الى وراء فى حركة تنم عن تعب وارهاق شديدين · وبدا على محياها لهنيهة وكأنها قد أفضت

بكل مكنونات نفسها · وكانت عيناها خاليتين من أى تعبير · وأمسكت بالعصابة البيضاء ، وراحت تمسح بها مرتين على شعرها ، لكى ترى ما اذا كان لا يزال يحتفظ ببريقه · وهتفت بها :

ــ لتأوى أنت الآن الى الفراش ! سأقوم أنا باعادة ترتيب هذه الأشياء ·

فنهضت ودلفت الى الحمام أولا ، فأخذت دشا · وقمت أنا بحمل أوانى الشاى الى المطبخ ، وجعلت أغسلها · وتضرعت الى « سيفيم » لأن أعد شيئا من الطعام لـ « تورجوت » ·

وعادت نفسى تسألنى من جديد ! ترى لماذا غدا « تورجوت » يعود الى المنزل نادرا ؟ ما هو الشىء الذى بيت النية على فعله ؟ أيحق لى أن أسأله ؟

وعندما دخلت الحجرة ، كانت « سيفيم » تغط فى سبات عميق · فأويت الى الفراش ، دون أن أشعل النور · ولكن النوم هجر مقلتى لوقت طويل · وما ان تحايلت عليه بعد ذلك ، ألفيته نوما خفيفا مؤرقا ، لم يلبث أن تطاير من عينى ، عندما عاد « تورجوت » الى المنزل · وسمعته يعبث ويبحث فى المطبخ ، لعله يأكل الآن ما أعددت له من زاد !

ثم دبت فى مسامعى بعد ذلك أصوات المياه وهى تنساب فى الحمام · وبذلت محاولة أخرى على النوم ·

واستيقظت على حين غرة مسهدة الجفن ، دون أن أعرف كم من الوقت مضى ما بين رقادى واستيقاظى · وكانت أنفاس « سيفيم » بجوارى تخرج فى هدوء وسكينة · فلقد كانت تغط فى النوم غطيطا · وكان الظلام يلف المكان فى ثوبه المنسدل ، عندما نبضت ودلفت الى الحمام كى أشرب ماء · وشققت طريقى فى العتمة الحالكة بسرعة ، كما اعتدت ؛ أم يا ترى أن المكان غدا أكثر اضاءة ؟

هذا مالم أكن أعرفه على سبيل القطع · وما رأيته سوى مصراع باب حجرة « تورجوت » الذى بدا أمام عينى واضحا ·

وكان يتسرب من مصباح الشارع قبس من نور ضـــعيف الى حجرة « تورجوت » . واستطعت أن أراه أمامى منبطحا على الأرض . وقبل هذا كانت « سيفيم » تعد له كل مساء سريرا فى الحجرة التى كانت تســـتخدم للجلوس سابقا ؛ ثم يطويه هو بعد ذلك فى الصباح بنفســه ، ويدســه فى الدلاوب .

كان « تورجوت » يرقد هناك . وعيناه مفتوحتان . وأخــذ يرشقنى بنظراته . دون أن تصدر عنه أية حركة . وفكرت لهنيهة فى أن أعود الى الوراء من حيث أتيت ، طالما أن يدى لا تزال قابضة على المصراع ، ولكنى لم أستطع ، فرأيت نفسى أقبل اليه ، وأتســـمر بجانبه دون أن أقو على كبح جماحها . ورفع يديه ، وكأنه يهم بأن يشدنى اليه ولكنه لم يلمس ســـوى قصبة ساقى ، منتظرا ، أن ألقى بنفسى من نفسى بين أحضانه وهتف بى فى صوت متهدج عندما رآنى لا أزال واقفة أمامه .

ــ هيــا ! أقبلى !

وخامرنى شعور بأنه كان مستلقيا يقظا طوال هذا الوقت المنصرم . ويبدو أنه كان مطرقا فى التفكير فى شىء ما لا يمت لى بأدنى صلة . وكان صوته يتدفق رقة وتوددا ، عندما أنشد للمرة الثانية قوله :

هيــا ! أقبلى ! . كما لو كنا سنتقابل فى مكان ما بين الألوف من البشر ، ولكن ليست « سيفيم » من بينهم ؛ تلك التى تنام فى الحجرة المجاورة ويمكن أن تستيقظ فى أى لحظة .

وددت أن لو أنقض عليه فأوسعه صـــفعا وضربا ، حتى يفيق من سكرته ، ويفهم أنى قد أقبلت اليه ، قـــد أقبلت اليه بعـــد كل هذا الوقت الطويل الذى أمضيناه سويا تحت سقف واحد ، قد أقبلت اليـــه كى أضع حدا لهذه اللعبة .

لقد توقعت أنه سوف يجزع ويخاف من صوت أية حركة تقع . ولكن توقعاتى منيت بالخطأ الجسيم فى هذه الناحية . وانتظرت أن أسمع دقات قلبه المضطربة ، وتلاحق أنفاسه اللاهثة ، وأن أستنشق الهواء فى اعتراك

ونهم ، عندما أتهالك بين أحضانه فى أول عناق لنا · بيد أنه كان يستلقى فقط على أديم الأرض دون أن يلوى على شىء ، سوى أنه كان يرشقنى بنظراته بقدر ما استطعت أن أميز هذا فى عتمة الظلماء · واستطعت أن أرى أسنانه ، أى أن ثغره ينفرج مبتسما ! وكان قلبى ابان هذا يرسل دقات متوالية عنيفة · ويبدو أننى لم أنبس بكلمة واحدة طيلة هذا الوقت ـ وان كان هذا حقا هو ما كنت أريده ·

وأخذت أنزع عن جسدى غلالة النوم فى حركة بطيئة متثاقلة ، فرفعتها فوق رأسى فى روية وأناة ، وكأننى أريد الاستناد اليها لهنيهة · ثم اندفعت اليه دفعا · فجعلت أداعب رقبته ومنكبيه وأصلابه · ولاحظت عندئذ أن فمه يقفل ، وأن الابتسامة التى ارتسمت على شفتيه قد أخذت فى التلاشى والزوال· ثم استيقظت فى جسده غرائزه الشهوانية دفعة واحدة · فطاب لقاؤنا فى صمت ، بعد أن ذاب جسد كل منا فى جسد صاحبه ، حتى كدنا نغار على نفسينا من كل حركة صغيرة قد تبعد كلا منا عن خليله ·

ولما عدت أدراجى الى حجرة نومنا ، كان هناك نور يملأ أركان الحجرة· وكانت « سيفيم » تتقلب فى مخدعها فى التو واللحظة · ولكننى لم أستطع أن أبصر وجهها ، ولست أدرى ! هل كانت تنام فعلا ، أم أنها أحست بكل شىء وتتظاهر بالنوم فقط !

وعندما أيقظتنى « سيفيم » فى صبيحة اليوم التالى ، نهضت معها من الفراش ، ودلفت الى الحمام ، ولكننى آويت الى الفراش كرة أخرى · ودخلت « سيفيم » على الحجرة من جديد ، لكى ترى ماذا دهانى ؟ فقلت لها ، ألا تنتظرنى هى و « تورجوت » على طعام الافطار · وسرعان ما أحمر وجهى خجلا ما ان تلفظت بالاسم · وأنهيت الى مسامعها بأننى لست على ما يرام ، وأشعر بوعكة خفيفة ؛ لذا فسأحاول أنام ساعتين أخريين ·

وسمعتهما يتهامسان سويا فى الفناء ـ كدأبهما ـ بنفس النغمة الرتيبة ، كتلك التى ألفت بها سماع لغتهما ، عندما لا أستطيع تمييز الكلمات المفردة بالتفصيل · وخامرنى شعور للحظة بأنى كنت أعيش حلما · وفى غفوتى تنبهت لـ « سيفيم » أيضا وهى تضع لى ابريقا للشاى بجوار الفراش قبل أن تنصرف · وما ان استيقظت حقيقة قبيل الظهيرة ، ألفيت الشاى قد

صار مرا باردا ، حتى ما كان ليحتسى بهذه الحال • ووجدت رقعة من الورق بجانب قدح الشاى ، مضمونها أن « سيفيم » و « تورجوت » سيعودان اليوم الى المنزل قبيل المساء ـ وأحمر وجهى خجــلا مرة ثانية ـ لذا فليس من الضرورى أن أنتظرهما بالطعام • وأضافت « سيفيم» فى ورقتها : أن لدينا باذنجانا طازجا وأن هذا يمكننى أن اقطعه الى شرائح ، ثم أقليها ، وازدردها مع « الزبادى المثوم » ، لو تحاملت على نفسى ، وتطوعت ببذل جهد يسير •

ولم يحدث منذ وقت طويل أن بقيت وحدى فى البيت طوال نهار كامل • وغمرنى الهدوء ، وطابت لى الاقامة • فأخذت أجوس خــــلال الحجرات المظلمة • وحانت منى نظرة الى الفناء الذى تبدد منه كل ظل ، ورحت أجلس على مقاعد مختلفة ، ثم تناولت افطارى فى المطبخ وانا واقفة • ونظرت الى الأشياء التى عرفتها منذ وقت طويل بطريقة جديدة متغطرسة • وشـــعرت بنشوة غامرة ، حتى كدت أطير فرحا بكل ما يعنيه اللفظ ـ وكلما ورد على خاطرى ما حدث فى الليلة الماضية ، كانت تهزنى ضحكة صامتة •

وأخذت أنفض عن نفسى غبار الكسل ، فجربت كـــل ثيابى حتى وقع اختيارى على ثوب منها ، فوضعته على جسدى • وكانت بغيتى أن الحق بالباخرة التى تبحر الى جزيرة « هيبلى » (١) •

ـــ وهى واحدة من جزر الأمراء ـ فحزمت حاجيات الاستحمام ، وجعلت وجهتى الى هناك ، فلسوف أسبح طويلا ، وأشبع نهمى فى السباحة ، كما بيت فى نفسى منذ وقت طويل ، صحيح انه ليس من الأليق بى أن اسافر لمدة ثلاث ساعات الى جزيرة ، اخذ فى الطريق اليها ساعتين من الوقت ! بيد أنى أتحرق شوقا الى « المعدية » والى الجزر اليونانية بلغتها الصادحة الفرحة ، والى النسيم العليل الذى يتحسس طريقه تحت ثيابى ، ويجوس عبر شعرى ، وقبل كل شىء الى الميــاه ، انى أتحرق شـــوقا الى نباتات « الدفلى » (٢) وأشجار الصنوبر فوق جزيرة « هيبلى » ، والى الجزء الحجرى الذى لايزال ماثلا فى ذاكرتى،والذى يبدو وكأنه حافة بحيرة أكثر منه شاطئا،

---

(١) احدى الجزر الواقعة فى بحر مرمرة •

(٢) نبات سام جدا ولكنه عطر الزهر •

وازداد ما بى من سعادة ، فأسلمت روحى اليها ، بلا قيد ولا شرط وباستعداد ينبعث من يد طولى !

لقد أخطأ ظنى لفترة طويلة أهمية الاستيلاء على « المجر » وحصار « فيينا » • وقد اعتبرت أن العظمة والشجاعة ـ علامات الغنى والسيادة ـ من الأشياء المتأصلة ذات الجذور الضاربة فى أعماق البلاد • ومن وجهة نظر أخرى بدت الأحداث التى علمت « أوروبا » الخوف وكأنها مناورات الهاء على نطاق واسع ، أو وكأنهم أرادوا أن يمنحوا « الأناضول » التى أنهكت من قبل جباة الضرائب والحكام ـ شيئا من المجد والفخار مقابل الأموال التى ابتزوها منها لتعبئة الحرب الضروس • وفى ظل حـــكم « بايزيد الثانى » و « سليم الأول » (١) ـ الملقب بالجبار و « سليمان القانونى » (٢) اندلعت فى بلاد الأناضول الثورة تلو الثورة • وأصبح الصراع الذى قام من أجل العدالة الاجتماعية والذى كان بعيدا عن التصورات الدينية ـ يمثل فى ذات الوقت ـ موقف الدفاع عن النفس بالنسبة لأمراء « التركمان » (٣) وقبائلهم فى وجه سلالة العثمانيين وأنصـــــارهم فى الغرب الذين بدأوا يوجهون مطامعهم صوب البلقان •

ومن العجيب انه ـ فضلا عن « البيكتاشيين » بتصوراتهم الشيعية والعلوية ـ قد تكونت الحامية الانكشارية والتى نشأت أساسا لتكون بمثابة توازن ضد قوة الفروسية التركمانية • وكان نتيجة لتفاهمهم هذا لم يجرؤ « سليم الأول » على الاحتفاظ بأذربيجان بعد أن احتلها • وســـفكت دماء كثيرة دماء بكى فيها « البيكتاشيون » رؤوس الانكشاريين فى الخفاء •

ولم يمض جيل بعد منذ أن فشل الشاه « اسماعيل » فى بسط نفوذه على مشرق الأناضول بأسره ، وضمه الى الجناح الشيعى • وكذلك نشـــأ الصفويون « وهم سليلو « الشاه اسماعيل » ـ بادىء ذى بدء ـ كاحدى

---

(١) سليم الأول (١٤٧٠ ـ ١٥٢٠) سلطان عثمانى من ١٥١٢ ـ ١٥٢٠ فتح فارس وسوريا ومصر ويعتبر أول الخلفاء العثمانيين •

(٢) سليمان الأول (القانونى) (١٤٩٥ ـ ١٥٦٦)سلطان عثمانى من (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) بلغت الامبراطورية فى عهده أقصى اتساعها •

(٣) مجموعة قبائل تقيم حول بحيرة آرال وفى أجزاء من ايران وأفغانستان •

الطرق الصوفية » المصحوبة بأهداف عســكرية · ولا يزال يعتبر الشاه « اسماعيل » ـ المشهور باسم « حطائى » ـ الى اليوم واحدا من أهم شعراء « البيكتاشيين » ، و « العلويين » · لقد كان داعية لقضية تخصه ، ووجدت كلماته المنمقة آذانا صاغية بين أولئك الذين تربوا بعيدا عن البلاط ، وسئموا حياة الاهمال والاستغلال ، وأرادوا أن يدخلوا دائرة الضوء الدافىء لاهتمام رائع ، ألا وهو الاحساس بالذات · وكان تأثيره عظيما ؛ وكان من العظمة مما دفع بالمأسورين المحكوم عليهم بالاعدام أن يتضرعوا فى قصائدهم الأخيرة كى يفتح لهم الباب حتى ينفذوا الى « الشاه » (١) ·

ولم يمض جيــل كامل منذ أن اندلعت ثورة « الكالندر » ـ العظيمة بقيادة « كاليندر جلبى » ـ أحد خلفاء « ادريس خوجة » ، الذى تخاصم مع « اسكندر جلبى » وهو أحد أسلاف « باليم سلطان » فى تكية الحاج «بيكتاش»· وفى الوقت الذى استولى فيه « سليمان العظيم » أو « القانونى » كما يسمى فى الواقع ـ على منطقة « موهاكس » (٢) توحدت صفوف « البيكتاشيين » مع « العلويين » « عبدة الشيطان » من أمراء التركمان فى مناطق « أطنه » وقيصرية ، وملاطيا ، وساوس وديار بكير » · وغرقت الثورة فى دمائها ، ولكنها اندلعت فى مناطق أخرى من جديد ·واتسع الخرق ، حتى صــار ما بدأ فى صورة نزاع حول الولاية ، نوعا من التمرد الشامل ، يرمى الى أغراض اجتماعية ؛ صار نوعا من حشد كل تلكم القوى التى كانت تشعر بأنها مهملة ، ومستغلة ومقهورة ، فانضــــمت جميع قبائل التركمان الى « كاليندر سلطان » · ونودى بالمساواة فى المال والعقار ·

غير أنه بتجنيد كل القوى ، أضحى من الممكن سحق الثورة بعد عام من قيامها فى كل أرجاء الأناضول · وأوعز الى جزء من أمراء التركمان الذين كتبت لهم النجاة من المعارك العديدة ، كى يسقطوا « كاليندر سلطان » ،

---

(١) هو الشاه اسماعيل ـ الذى سبق الحديث عنه ـ ويعرف باسماعيل الأول (١٤٨٧ ـ ١٥٢٤) · وكان شاها لايران من (١٥٠١ ـ ١٥٢٤) وهو مؤسس السلالة الصفوية ـ كما سبق ذكره ـ ومعنى « ينفذ الى الشاه » أى يسمح له بلقائه ولينال رضــــاه ·

(٢) مكان يوجد حاليا فى المجر · وقد وقعت به معركة كبرى بين الجنود الأتراك والنمساويين عام ١٥٢٦ قبل حصار فيينا الاول من قبل الاتراك ·

بعد اصدار العفو الشامل عنهم وتأمينهم بالصفح الجميل ، ومنذ ذاك الوقت فصاعدا ، انقسمت ولاية العهد لخلفـــاء « البيكتاشيين » الى مجموعتين : « الجلبيين » والدادابائيين • فتـــوجه « البيكتاشـــيون » الألبانيون الى شيخ « مجرد بابا » ، وهو شيخ الآباء المترهبنين ذوى القرط فى الأذن ـ فى حين تحول « كيزيل » باشيون الأناضوليين » ـ ولا سيما العلويين منهم ـ الى الشيخ « جلبى » •

واسفر انقسام البيكتاشيين الى فريقين عن خلاف حول سيرة « الحاج بيكتاش الولى » • فأتباع « جلبى » يدعون أنه كان متزوجا من « قادنشك أنـا » وورد فى رواية أخـــرى أنه كان متزوجا من ابنتها « فاطمة نورية خاتون ـالملاك السعيد » ، وهم بالتالى ينحدرون من ابنه « سيد على تيمور تاج » • فى حين أن أتباع « مجرد بابا » ينفون هذا الكلام • ويؤكدون أن الولد هو ابن الطريقة ، وليس من صلبه •

وجعلت وجهتى الى « الحانوت » ، كى أزور « ارزيفير » (١) الذى لم أره منذ أمد طويل • وأحضرت له معى هذه المرة ترجمات لقصـــائده ، وأردت أن أستنصـــحه فى بعض الأمـــور ، لأنى عثرت على مجموعة من التجديدات اللغوية التى لم تستطع « سيفيم » ولا « أكسوم » أن يفسراها لى • ولم أجده هناك للحظة وصولى • ومضيت أنتظر قدومه لهنيهة ، أتانى أثناءها شريكه « الأرمنى » بالقهوة • وقدم لى لفافة تبغ • وهل علينا « ارزيفير » من الحجرة المقامة فوق الحانوت • فاعتذر وجلس قبالتى على المكتب • وكان التعب باديا على محياه • وكانت مسام بشرته متسعة ولامعة • وسعل بعد الشدة الأولى من لفافة التبغ ، ولكنه أخذ يدخن ، بعد أن تنحنح عـدة مرات بشراهة لم أعهدها فيه من قبل • وتعلق بصرى للحظة بوجهه غير الحليق وياقة سترته المتسخة • ولعله أدرك ما يجول بخاطرى فراح يخبرنى بأنه ظل طوال ليلته ساهدا يعمل ، والا فانه ، لن يستطيع أن يبر بالميعاد الذى حددته له دار النشر • وان لم يستطع أن يبر بهذا الميعاد ، فلن يظهر الكتاب الا فى العام التالى • وعندئذ سوف يكون الوقت متأخرا جدا • فهتفت به :

ــ علام يكون الوقت متأخرا جدا !

---

(١) وتعنى الرجل المحب ، أو المحب الواصل فى التركية •

ولم يكن سؤالى من واقع اهتمامى أكثر مما كنت أود أن أتشح بوشاح الأدب · وبدا ما قاله ، وكأنه يتمتم به فى نفسه فى تعبير ملؤه الدلال وخفة الروح التى يبدو أنه ليس خاليا منها ، والتى حاولت أن أستجيب لها ـ مراعاة لقواعد السلوك ··· فقال :

ــ ان الأيام دول !

فقلت :

ــ هل يمكن أن يسبقك أحد ؟

وضحكت وأنا واثقة أنه سوف يجيب بقوله :

ــ ليس هذا ، ولكن ···

ولكن ضحكى يبدو أنه قد دفعه الى أن يتلفظ بالجمل التالية فى نغمة حادة غريبة ، لم أعتد أن أسمعها منه من قبل · وقد حولت هـــذه النغمة الغريبة ضحكتى الى شعور بوجوب الدفاع وحماية النفس نحو ما سيقوله ·

وكنت قد علمت أن اثنين من أصدقائه ، أحدهما « شاعر » والثانى « كاتب » ، قد اعتقلا ؛ ثم قدما بعد ذلك لعدة تحقيقات بحجة أنهما متورطان فى اثارة الفتن والقلاقل ؛ وذلك عن طريق تأليف مطبوعات معادية للدولة · ولم أكن أعرف الاثنين ، ولكن أصابنى الذهول · وشرح لى « ارزيفير » أن هذه على أى حال ليســـت المرة الأولى التى يودع فيها الأبرياء فى غياهب السجون لمجرد أنهم قالوا رأيهم · ولطالما يحدث هذا فى الكتمان ، لدرجة أن سكان البلد لا يدرون شيئا عن هـــذه الوقائع · وتذكرت أن « سيفيم » « وتورجوت » كانا يتهامسان أيضا بشىء كهذا ، ولكنهما كانا يتناجيان بنغمة لا تسمح لى بأن أتدخل ، كما لو كان هذا الأمر لا يعنينى من قريب أو بعيد · أم هل أنا التى دفعتهما بسلوكى هذا فى عدم الرغبة باخبارى ·

ثم سألت :

ــ وما خطبك أنت ؟

ــ لا أريد أن أعظ أحدا الى شىء بعينه · وكذلك لا أريد أن أهدى

أحدا الصراط المستقيم ، طالما أن الحياة قد غدت هكذا كريهة بغيضة · فالأمر سواء عندى · فلا يعنينى من بيده مقاليد السلطة، أو من ذا الذى أودوا به على قمة طريق الفساد الطويل ·

وأخذت أسأل نفسى ، عما اذا كان هذا من طبائع الأمور ، مثل الهرر الجرباء ، والأطفال المتسولين ، والشيوخ المحدبين وآخذى الثـــأر غيلة ، والنسوة اللائى تغطين أنوفهن المجدوعة بالبرقع ، والجنود الذين يقبلون أيدى قوادهم ؛ تساءلت اذا كان هـــذا كله من طبـــائع الأمور التى تعنى المرء فى شيء ، والتى ما على الانسان كأجنبى أن يهتم بها ، والتى قد يحلو للمرء على أكثر تقدير أن يحاول تفسيرها ·

ثم قلت :

— انهم لن يأتوك يوما ، ويسوقوك أمامهم !

وابتسم « ارزيفير » ، عندما رأى علامات الاضطراب الذى لم أعهده أنا على نفسى ، تعترك على وجهى · وأضاف :

— ما أخالهم أنهم سيستعجلون الأمر هكذا !

لقد كنت أشعر حتى الآن ، أنهم يحمدون لى بالشكر ، عندما لا أتدخل فى مثل هذه الأمور ، عندما لا أعود نافرة الى المنزل ، وأخبر عن أشياء أثارت فى نفسى الغضب والاشمئزاز ، مثلما قد حدث منى فى بداية مقامى · وظنى بهم ، أنه لو بدر منى شيء كهذا فلسوف يفسرونه على أنه تطاول منى على طريقة حياتهم ووجودهم ·

وذهبت فى قرارى بأن أتأقلم مع المجتمع الذى أعيشه الى حد بعيد ، حتى آليت على نفسى أن أعرف الأشياء كما كانت عليه فى الماضى ، لا بمـــا يعتريها من تغييرات فى الحاضر ·

— وهل ستفضى هذه الحالة الى قضية ما ؟

وأخذت أبحث فى كلامى عن التعبيرات القضائية التى أقبض بها على

زمام الأمر فى يدى ، ولكن ناء بها كلكلى · فقلما كنت أستخدم هذا النوع من المصطلحات فى حديثى ولم تجد على الذاكرة بشىء ، ولكن لدهشتى ألفيت نفسى جاهلة جهلا تاما بالقوانين واللوائح التنفيذية فى البلاد ·

وأجاب « ارزيفير » :

ـــ قد يستغرق هذا أعواما طوالا !

ونظر أمامه ؛ وراح يرنو بعين الغيب عبر دروب مستقبله الخاص ، أكثر مما كان يود أن يسترسل فى حوار أطول · واجتاحتنى موجة من الخجل لجهلى · ولئلا اكشف عن جهلى أكثر ، لم أرد أن آتيه بالأسئلة التى تبعث اجابتها السخرية فى نفسه ·

وعلى الرغم من هذا سألت :

ـــ وماذا سيحد ث ؟

وبدا لى أن السؤال كان طفوليا يعوزه الترابط العام ·

وأطلق « ارزيفير » ضحكة بطريقة مسرحية ، بدت كما لو كان المرء لا يستطيع أن يتحدث عن أشياء من هذا النوع الا بمثل هذه الطريقة المسرحية· وأضاف يقول :

ـــ سوف يأكلون بعضهم بعضا · وبعد أن يمارسوا ذلك لفترة طويلة لا تلبث أن تتصارع شرذمة أخرى للوصول الى السلطة ، فيهدمون كل شىء من أساسه · ويعم الأرجاء هرج جديد ·

وكان صوته يدوى ، كما لو كان يلقى محاضرة · ثم استأنف يقول :

ـــ وبعد أن يعيشوا فى هرجهم ومرجهم وقتا طويلا ، سوف يرون بعدها أن الدم يملأ الشوارع لما فوق الأعقاب ، كما يحدث فى عيد الأضحى ؛ عندما يذبح رب كل بيت أضحيته · ولو عشت حتى ذاك الحين ، فعلى بأن أذكر نفسى بما مارسته من هرج ، والا فلن يعد لحياتى بقاء · ولا أظن أنى سأعمر حتى أرى هذا اليوم · وعندما أتوقف عن الهرج والمرج ، فلســـوف يأتوننى يوما ،

ويزجون بى فى السجن · وقد يحدث ذلك فورا ؟

فقلت :

ـــ ليس لديهم من الأسباب ما يجعلهم يعتقلونك ؟

فأجاب :

ـــ لا أدرى !

ثم أخذ يحك لحيته التى لم يتجاوز عمرها يوما واحدا ، حتى سمع لها صرير ، ثم أردف :

ـــ ان الأسباب طوع أيديهم · وما عليهم الا أن يبدأوا ·

ـــ وهل ستسوء الحالة ؟

ـــ تسوء أو لا ، فلا علم لى !

واشعل بعقب لفافة التبغ التى دخنها لفافة جديدة · ثم أردف :

ـــ لقد حان الوقت الآن الذى يحدق فيه الخطر من حولنا · غير أننا لا ندرى متى سيكون يوم وقوعه · ولكن يمكن أن تسير الأحوال على ما يرام حتى يحين هذا اليوم ، ولكن هكذا ···

وراح يضحك ، كما لو كان قد احتسى كأسا من شراب على الطوى · وعندما نهضت للانصراف ، أخذ يدى بين يديه وقال :

ـــ مع السلامة ·

ثم أردف بعدها ، عندما كان لا يزال واقفا على درج السلم :

ـــ معـــذرة لك !

ولكنى كنت قد عرفت الاثنين !

وفى طريقى الى الجامعة ، خامرنى شعور مفاجىء ، كما لو أن أحدا يقتفى أثرى · ومضى وقت طويل حتى صغت ما أشعر به فى جملة واحدة · فجعلت أتساءل : هب أن شخصا يقتفى أثرى ! ترى من سيكون عندئذ ؟ ولم أملك أخيرا الا أن أضحك على ما أشعر به · وتصورت أنه لاح لناظرى صور من ويلات الحروب النادرة « على مانشيتات » الصحف التى رأيتها فى لفافات كبيرة حول أحد بائعى الصحف · ولكن قلت فى نفسى ، ان ذلك مما يتصل بأخبار الحرب التى كانت منذ سنوات مضت الشغل الشاغل فى أماكن عـــدة من العالم ، ثم تذكرت أنى لم أقرأ منذ وقت طويل ·

وقابلت « تاتارية » فى الطابق الرابع من مبنى الجامعة ، وهى تخرج فى التو واللحظة من حجرة « انجن بك » . وكانت علامات الحمل تبدو عليها الآن أكثر من قبل . ولكن لم يطـــرأ على ملامحها أى تغيير . وسرت معها قليلا ، وكانت هى الأخرى تعرف الشاعر والكاتب اللذين اعتقلا . وقالت أن ما حدث كان لا بد أن يحدث ، وليس من شك فى أنهما لن يكونا آخر من سيزج بهم فى السجون . انهما لم يخلا بالقوانين المكتوبة ؛ وأضافت :

ـــ ليس لأن الصحيح كان هو اعتقالهما ـ فهذا بالله ليس من الحق فى شىء ، وانما كان عليهما أن يقدرا هذا لنفسيهما . لقد كانا بمقدروهما أن يعرفا هذا ؛ بل وكان يجب أن يعرفانه .

وسألتها :

ـــ أيعرف هذا كثيرون ؟

ـــ كل من يعنيهم الأمر !

ولم تكن مستعدة لمواصلة الحديث حول هذا الأمر .

وعندما وقفت الى جوارى فى الردهة الخارجية عند مصعد الســـلم قليلا من الوقت ، أخذت تقص على حكاية مجىء الحاج « بيكتاش الولى » الى الأناضول :

ـــ آنذاك لم يرد على تحيته التى أرسلها عبر أجواء الفضاء سوى « فاطمة باجى » . وعندما رأى بعد ذلك وهو فى طريق مجيئه من خراسان أن «سذج منطقة روم»(١) قد أوصدوا الطريق دونه، طار عائدا الى عرش الله ، حيث حيته الملائكة واحتفت بمقدمه ، ثم عاد من هناك على هيئة حمامة . وهبط فى الحال على صخرة فى ناحية « سولوجاكاراؤيك » . وعندما عرف « سذج روم » هذا بطريق الشفافية ، أرسلوا وراءه « طغرل » (٢) ، موعزين

---

(١) روم : هى الكلمة العربية التى استخدموها لروما عاصـــمة الامبراطورية البيزنطية ، وهى ما تعرف حاليا بمنطقة الأناضول فى تركيا .

(٢) طغرل نسبة الى أبى مؤسس الدولة العثمانية « عثمان بن طغرل » .

اليه بأن ينقض عليه فى هيئة « صقر » ويرديه قتيلا • ولكن قبل أن يلحق به « طغرل » تحول الحاج « بيكتاش » مرة ثانية الى هيئة انسان • فأمسك « طغرل » من رجليه ، وأخذ يهزه ، ويعنفه حتى خارت قواه ، وأغشى عليه • وعندما أفاق « طغرل » ـ الذى كان قد أتى أصلا من العراق ـ من غشـــاوته ، جثا لتوه بين قدمى الحاج « بيكتاش » ، وطلب منه الصفح والمغفرة • فصاح به الحاج « بيكتاش » :

— أيا طغرل ! ليس من شيمة الرجل أن ينقض على الرجل هكذا !

لو كنت قد وجدت حيوانا أضعف من الحمامة ، لأتيت فى هيئته !

فناداه « طغرل » قائلا :

— لبيك يا مولاى ! كم من الرجال والنساء سيخرجون من نسلنا ـ بالغا عـــددهم ما بلغ ـ فهم جميعهم لك قربانا ، ولـــكل من سيخلفونك !

فما كان من الحاج « بيكتاش » الا أن أرسل « طغرل » الى « سنج روم» يطلب اليهم أن يأتوه صاغرين • ولكنهم لم يستجيبوا لطلبه ، وأخـــذوا يتقاولون فيما بينهم :

— « فيم نحن والذهاب اليه عندئذ ؟ ؟ »

وانتشر السبعة والخمسون ألفا منهم فى مهب كل ريح •

ووصل خبرهم الى « الحاج بيكتاش » ؛ فنفخ فى صـــوره ، فانكفأت قدورهم ، وانطفأت مصابيحهم كلها طيلة ثلاثة أيام ـ كما تقول بعض الروايات أو أربعين يوما ـ كما يقول البعض الآخر ـ وفى الوقت عينه أطلق اشارة بأصبعه ، فتطايرت من تحتهم سجاجيد الصلاة • وبعد أن ألمت بهم هـــذه الخطوب ، أجمعوا أمرهم فيما بينهم على أن يذهبوا اليه • فلما مثلوا عنده ، أخبرهم من هو ، ومن أين أتى ، وقال لهم ان « أحمد يسوى » (١) أكبر

---

(١) من أشهر مؤسسى الأدب المعروف بأدب التكايا •

التسعة والتسعين ألف خليفة فى تركستان ـ كان مرشده · وركبهم العناد فطلبوا منه براهين على هذا · فأرسلت السماء دخانا كثيفا ، تجمع واستقر بين يديه · وأخرج لهم فرمانا أخضر مكتوب عليه بخط أبيض ـ الى جانب البسملة ـ اجازة شيخ الطريقة · فلم يبق أمامهم ما يمارون فيـــه · وعلمهم « الولاية » ، وهى أن يحبوا أولئك الذين يحبون « محمـــدا » وســـبطه ، ويصادقوا من يصادقهم · وترك له « سنج روم » ، عشرة من مرشديهم ، وأطلقوا عليه اسم « احتريمكى» (١) والذى جعلنا نخر ساجدين · ثم توسلوا اليه بأن يسمح لهم بأن يئوبوا الى بيوتهم ، ومنح كل واحد منهم هدية · فأعطى لحارس « روم » « كاراكا أحمد » الجن الذى أهداه له « أحمد يسوى » من قبل ، كى يقوم على خدمته من الآن ؛ ثم يحرس مقبرته بعد موته · وعندما فرغت « تاتارية » من حكايتها ، وقفنا سويا لهنيهة أمام البوابة الكبرى · وكان يمر بنا يمنة ويسرة أناس كتيار متدفق يبدو أنه لا ينفد من أى واحد من الاتجاهين · وكان « تورجوت » أيضا من بين الذين مروا بنا · وكان يتجمهر حوله عدد من الطلاب يصيحون فيه فى جلبة ويدفعونه الى الأمام · ولم أعرف اذا كان رآنى أم لا ! فهو لم يرن بناظره نحونا ، ولم يلبث أن اختفى فى مبنى الجامعة · وقالت لى « تاتارية » :

— ينبغى ألا تواصلى السكنى معهم ؟

وأصبت بذهول شديد من تحولها المفاجىء · ثم أضافت تقول :

— انه ليس من مصلحتك أن تبقى معهم ! فقد يأتى يوم يطلب فيه منك أن تدلى بشىء ، وعنـــدها لن تستطيعى أن تقولى « لا ! » أبـــــدا ·

ثم انصرفت مرة واحدة · وأخذت تسير دون أن تلوى على شىء · وتركتنى واقفة وحدى فى منتصف قبة البوابة ، وعندما نزلت الى الشارع ، حانت منها التفاتة الى الوراء مرة ثانية · ولوحت لى بيديها · فرددت عليها تلويحها ، فى ذهول وشدوه · ثم جعلت سمتى بعد ذلك الى مطعم المدينة الجامعية ، كى أرى ما اذا كان « تورجوت » هناك ·

---

(١) من الاحترام فى العربية ·

قبل قيام ثورات « البيكتاشيين » بوقت طويل ، كانت هنـــاك ثورات مشتعلة الأوار بين « الســــلاجقة » فى الأناضول · فـــكان منها ثورات « البابابسين » التى بلغت ذروتها فى سخط « التركمان » على عاصـــمتهم « قونية » التى نشط فيها عنصر التغريب من الناحية الحضارية · وأسرفت فى اللهو والثراء · وقبل غزو المغـــول بوقت قصير أمكن ســـحق قوات « بابا اسحاق » بمساعدة الصليبيين وأجداد العثمانيين سحقا داميا · ونادى « البابابسيون » أيضا بالمســـاواة · وتحـــول كثيرون منهم بعد ذلك الى « البيكتاشيين » ، وظلوا يعيشون فى الخفـــاء حتى مطلع القرن السادس عشر · وكان ينتشر بين « البابابسيين » العنصر التكهنى انتشارا قويا · ويقال ان « بوراق بابا » كان يهيم فى البلاد ، ونصف جسده الأعلى عاريا · وانه كان يحمل حول خاصرته مئزرا أحمر ، وان عمامته كانت حمراء هى الاخرى· وكان يثبت على كل جانب من رأسه قرن جاموسة · كما يقولون انه كان يحمل فى يديه بوقا طويلا ، واناء كبيرا أسود للتسول مصنوعا من « نبات اليقطين»· وكان هذا الرجل يقلد أصوات الحيوانات · ويقود معه ثمانية عشر رجلا ممن هم على شاكلته · يحملون فى أيديهم دفوفا مزدانة بجلاجل · وهكذا طوفوا الآفاق ، ونزحوا من مدينة الى أخرى · وكانوا يقفون فى الميادين العامة على شكل دائرة ، ويعرضون ألعابهم · وكان « بوراق بابا » يدور أثناءها كما يفعل السحرة المشعوذون ، كما كانت الحسان عند السحرة بمثابة آلهتهم ، فكان هؤلاء أيضا يتزلفون اليهن ، وكان الكثير مما هو حرام عند غيرهم حلالا عندهم · وكانوا يعتقدون فى الامام « على » ·

ومع مطلع القرن الخامس عشر ، عندما غزا « تيمورلنك » (١) البلاد ، وأتى على الحرث والنسل ، حتى بات الفقراء وليس فى حوزتهم ما يخافون على فقدانه ، انضوى « التركمان » الساخطون تحت لواء الشيخ « بدر الدين » ورفاقه · وفى هذه المرة اتسع مبدأ المساواة ، حتى شمل مجال الدين والمرأة· وكان من قولهم :

— أن اطرحوا العلماء والقديسين والسحرة جانبا ، ودعوا المسلمين

---

(١) تيمورلنك (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥) فاتح مغولى مسلم · اجتاحت جيوشه المنطقة الممتدة من منغوليا الى البحر الأبيض المتوسط ·

والمسيحيين واليهود و « الزرادشتيين » (١) يعبـــــدون ربا واحدا ٠

وكان الشيخ « بدر الدين » من مشاهير المتصوفة ٠ وقد عاش زمنا طويلا « بمصر » ؛ ثم عمل بعد ذلك على نشر الطريقة فى اقليم « أذربيجان » لفترة أخرى من الزمن ، وعاد ثانية الى « مصر » ، قبل أن يعود الى بلاده الأناضول عن طريق « قونية » ، ليعد العدة للقيام بثورة هناك ، يبدو أن لأهدافها أثرا بينا فى مواجهة تدنيس الحرمات ٠ يقودها رجل من رجال الله الذين لم يفعلوا شيئا طوال عشرات من السنين سوى زهده فى الدنيا ، حيث لقيت حكمته بعضا من التقدير بين « القاهرة » و « أدرنة » وبين « قونية » و « تبريز » ٠

وفى عام ١٤٢٢ صلب « بوركلوسيه مصطفى » ـ أحد أنصار الشيخ « بدر الدين » ـ والذى قاد ثورة « السيماويين » ـ وهو ممتطى ظهر جمل ، حيث طافوا به عبر الشوارع فى ظل سخرية نفر من الناس ممن لم يشايعوه ٠

ويزعم أن الشيخ « بدر الدين » كان يقـــدس كنبى ، بدلا من النبى « محمد » ٠ بل ويقال عنه انه كان يطلب من معتنقيه ومريديه أن يتجهوا اليه بصلواتهم ، وأعدم فى العام نفسه ، بعد أن شايعه « البوجميوليون » ٠ ويعتقد أنه رأى نفسه فى الماء الذى توضأ منه قبل اعدامه ، حيث رأى الله فى نفسه ورأى نفسه فى الله ٠

ان معظم الحركات الثورية التى قامت فى البلاد كان يحمـــل لواءها المتصوفون ٠ فيقال انه كان هناك دراويش بين أعضـــاء جمعية تركيـــا « الفتاة » ، وحول « أتاتورك » ـ فيما بعد ٠ ولكن اذا ما قورنت هذه الثورات بثورة الشيخ « بدر الدين » ، لبدت وكأنها مجرد انتفاضات وطنية شعبية لقلب نظم الحكم ٠ وقد بت أضع نفسى كثيرا أمام السؤال غير العلمى بدرجة كبيرة : كيف كان من الممكن أن يتدفق تيار الدراويش فى هذه البلاد بمثل هذه القوة ، حتى أنه مع مطلع قيام الجمهورية كان هناك بيكتاشى بين كل عشرة من السكان ، أو ممن يشايع اعتقادهم على الأقل ؟

---

(١) اللاجئون الفرس المقيمون فى « بومباى » ٠

وما انفككت أتساءل « كيف مهد الطريق ؟ وأى غاية يمكن أن يحققها ؟ ولماذا يأخذ دائما طابع دين الجماهير العريضة ؟ وكيف ذاع صيت التصوف الى هذا الحد ؟ حتى أنه هجر الدوائر الضيقة للدراويش الأصـــليين ذوى الثياب المعروفة ، ووجد أتباعا ومشايعين فى الخفاء بين طبقات وطوائف المجتمع ، يعيشون به وفيه ؟ ؟ وكيف تغلغل التصوف فى أعماق وجـــذور المجتمع ؟ ؟ ٠٠ كيف استطاع التصوف أن يؤلف بين الجانب التأملى والجانب الحربى العسكرى ؟ ؟ كيف استطاع أن يثبت قدمه فى الأعماق كى يختفى فيما بعد من على السطح بدرجة لا تثير أدنى شك فى أنه لا يزال موجودا ؟ ؟ هل غاصت قدمه فى الأعماق بمثل هذه الدرجة ؟ ؟ لم أصدق أن آثاره قـــد محقت تماما ، حتى أنها ـ ان صح ـ لم تبق معروفة الا لدى العالمين بهـــا فقط ! أم طفت كل هذه الأشياء على السطح فى ثوب آخر من الحركة ؟ ؟ هل أنها لم تغير الثوب وحده ، وانما غيرت الوجه أيضا ؟ ؟

لقد أيقنت أن هذه الأسئلة تبدو وكأنها تسخر من منهجى الخاص ، حتى أنى قد أحتاج الى أعوام طويلة ، كى أجيب عن واحد منها فقط ٠ وبعد أن قرأت ما فى حوزتى من كتب ، كان حريا بى أن ابدأ الآن منهجى وفقا لمقتضيات طبائع الأشياء : « بالقدمين أولا ، وبالانتباه ثانيا ، ثم بالتصميم على تحقيق الهدف فى نهم وشراهة كلب جائع ٠ ثم على بعد ذلك أن أحسم أمرى لاحدى الجزئيات ، أو احدى القضايا التى قد تشوقنى الاجابة عليها ، وتشبع فضولى الذى يستند دائما الى معرفة الكليات ٠ ولم يتبق لى سوى أن أعترف بأن الطريق الذى سلكته لم يقدنى الى شىء ، كنت أود أن أصل الى تحقيقه من خلاله ٠ فلقد تصورت أنى سأجد فى الماضى مفتاح الحاضر ، وحاولت من خلال البحث عن الأصول والجذور أن أتغلب على غربتى ، وأن أفهم نفسى ٠ ترى أكان ذلك بسبب أن الخوف قد تبدد فيما حدث فى الماضى ٠ وليس هناك من سبيل لتنفيـــذه رغم تقليب الأفكار جيئة وذهابا فى مخيلتى ٠ ولطالما خامرنى احساس بأنى قد تطبعت جيدا على تلك الأبنية التى أخذت أبحث عنها تباعا ، والتى أدخل وأخرج منها باطمئنان العميان الذين يتحسسون طريقهم عتبة عتبة ـ منتهجة طريق المجمل الى المفصل ـ ان الاطمئنان الشخصى الذى أشعر من خلاله بأنه لن يقابلنى هناك أحد على أن أعيش معه ، وأنه يمكننى أن أبدل وأغير فيما يتراءى لى من أشكال ، مثلما يحدث فى صور الخيال ٠ بل ان الدم نفسه ليست له رائحة كريهة بالمرة ؛ بل وان الحقيقة ، أن « جنكيز

خان » أو « تيمورلنك » أو ذلك الذى أقر باراقته ، جعلتنى أتعاطف على البعد فى شىء من الاستحياء ، ومع هذا فقد حفظ الفنانون والعلماء من ذلك ٠

ولا يمكن أن أفكر أنى شعرت بنوع غريب من السرور والراحة ، عندما أقحمت نفسى فى عالم ، ليس بالامكان أن يضاف اليه شىء آخر أكثر مما هو مدفون فيه ٠ لقد كانت روح اعادة اكتشاف ما هو موجود بالفعل ، هى التى طردت منى كل فكرة عن شىء غير موجود أو شىء سوف يقع ٠ وشعرت بميل الى أن أقارن الحاضر بالماضى الذى صار أكثر قربا الى نفسى ؛ وأن أضفى عليه نوعا من الموضوعية ، التى ربما قد تبعدنى عنه ، فى اطار قدسـيـة خادعة ، والتى لا تتطلب التزاما ما باستثناء الأمور المباشرة والشخصية ـ والتى نادرا ما كانت تقع ، حيث كنت أقف منها موقف المدافع وأنتظر أن أضع نفسى تحت تصرفها مستسلمة لها ٠

ان ما كان فى بادىء الأمر بمثابة الوسيلة المساعدة لى فى فهم الأشياء من حولى بدرجة أفضل ، أضحى رويدا بمثابة علة للفرار منها ولأجعلها من خلال مقارنة ما غير ذات تأثير ٠ ولربما قد يدوم الحال هكذا ، طالما استطعت أن أبدل الماضى بالحاضر طبقا لما يذهب اليه خيالى ٠ وأنا أعيش على الرمق الضئيل من الحقيقة الملموسة التى لا سبيل الى تجنبها ٠ والسؤال الآن هو : الى متى سأستطيع أن أفعل هذا ؟ ٠ وأحيانا كنت أباغت نفسى ، وأرى أن تلك المقارنات لا تجارى تطلعاتى ٠

وعندما كنت عند « أكسو » أعطانى خطابا ، كان قد أرسل باسمى على عنوانه ٠ وقد عثر عليه ملقيا به تحت عقب الباب ، عند عودته من المستشفى الى البيت ، وقلما كانت تأتيه خطابات على المسكن ٠ فمعظم خطاباته تصله عن طريق المستشفى ٠ وعندما بسطت يدى لألتقاط الخطـاب ، اصطدمت بالكأس ، فقلبته فانسكب ما به من شراب ٠ فباغتنى « أكسو » بقوله :

ـــ تمهلى قليلا !

ثم أسرع ودلف الى المطبخ ، وأحضر منشفة لكى يمسح بها المنضدة ،

ولم أستطع أن أضمن من يكون هذا الذى أرسل الخطاب ٠ وبالرجوع الى « الطابع والختم » وجدت أن راسله قد سلمه فى المدينة ، ولكن اسم المرسل لم يكن مكتوبا عليه ٠ وتملكنى شعور غريب ، وتمهلت لهنيهة فى فتح الخطاب٠ وانفرج ثغر « أكسو » عن ابتسامة ؛ فسرت فى جسدى موجة من الغضب ٠ وكان يلوح على محياه أنه يعرف من ذا الذى أرسل الخطاب ٠

وكان الخطاب من « سهيلة » ٠ ولم أستطع أن أستوعب الموقف فى الحال ٠ فمرت فترة من الصمت ، حتى أخذت أتفهم الموقف ٠ وكانت تكتب قائلة : انها تشعر بالأسف الشديد ، لعدم وجودها بالمدينة ٠ ومما يزيد أسفها أنها سوف تسافر مرة أخرى ؛ ومن ثم فانها لن تستطيع أن ترانى فى المستقبل القريب ٠ وأضافت تقول : انها تأمل منى أن أتحلى بقليل من الصبر ٠ وانها سوف تكون سعادتها أكبر من أن توصف ، ريثما تستقبلنى فى « شيشلى »(١)٠ لقد كتبت حقا كلمة « تستقبلنى » ، مما حدا بى أن أضحك ، عندما دار برأسى أمر الاستقبال العجيب الذى منيت به عند زيارتى بيتها فى المرة الأولى ٠ واستطردت تقول : انها على أى حال قريرة العين بمعرفتها اياى ، بعد أن أقرأها محمود « كل خطاباتى ٠ ثم سالتنى : اذا كنت قد وجدت سكنا طيبا ؟ ؟ هذا هو اعتقادها على أى حال ، ولا سيما أنى أقيم بالمدينة منذ وقت طويل ٠ وختمت خطابها بقولها من أنها لديها بالتأكيد أمورا كثيرة تريدنا أن نتحادث عنها سويا ، لو التقينا ! ٠ وكنت فى حالة غضب واستياء شديدين ٠ وكانت تلوح دلائل البشر على وجه « أكسو » ، لأننى استبدلت عنوانى بعنوانه ٠ ولم أطق فجأة أن أتحمل وأنا أرى « أكسو » وهو يبدو ، وكأنه يعرف كل شىء، وأنه على استعداد أن يتفهم كل شىء ، حتى أن الشكوك التى تساوره تظهر على هيئة تسامح غير محمود مع الآخرين ٠ وشعرت فى نفسى ميلا ، بألا أعتبر هذا التسامح بمثابة النقص فى عملية « المشاركة » ٠

فقلت :

— لقد حدث ! وأنا أعرف أنك قد عرفت هذا مسبقا ، كشأنك بمعرفة الأشياء دائما ، ولكن معرفتك هذه تجعلنى أشعر بالاعياء ٠

---

(١) أحد أحياء استانبول الراقية ٠

ورأيت من نظرته أن قولى هذا قد دهمه على حين غرة ، وأنه لم يكن ليعرف هذا ! • وكان من اضطرابه ، مما لم يدع لديه وقتا ، كى يخفى علامات الدهشة • ولاح لى فى تلكم اللحظة أنه بدا لى فى حبه الذى يجعل كل شىء ممكنا ، وكأنه يقف بلا درع تحت صليل السيوف ، مما دفعنى أن أنهض من مكانى وأعانقه ، كى أتحاشى نظراته ، ولم أستطع أن افعل شيئا سوى أن أردد دائمـــا :

ـــ لقد حدث ! لقد حدث !

وكان لنبراتى وقع ما يوحى بأنى أواسيه ، بل وأواسى نفسى أنا الأخرى بهذا ! وقال « أكسو » انه لا ذنب له فى أنه قد عرف هذا ، أو انه على علم به دائما • وعندما استعرت بنا النار ، رحنا فى عناق طويل •

ورقدنا على الأرض ونحن فى عناقنا • وأخذ كل منا يشبع صـاحبه لثما وتقبيلا ؛ ونحن تساورنا شكوك عظيمة ، حتى حدث فجأة ما لم أكن أتمنى ! وأحسست بأننا كنا على مقربة شديدة من نفسينا ، حتى كدت أسبر غـــوره •

وبقينا هكذا فى عناق حتى أفقنا من سكرتنا سويا بعد وقت متأخر • وأخذ ظهرى يؤلمنى من صلادة الأرض • وكنت من التعب والاعياء حتى أنى لم أكن لا أحرى حراكا • وكان « أكسو » يشكو أيضا مما أصابه من اجهاد • وهكذا صرنا بطريقة ما متشابهين ؛ أم أننا تقابلنا عند مستوى معين جعل منا متشابهين • وشككت للحظة فى وجودنا على الاطلاق • ربما نكون قُـــد بعدنا فى هروبنا هذا حتى وجد بيننا أمر مشترك ، قد نأى بنا عن كل مـــا يشغلنا بعيدا ، حتى لم يعد التفكير فى شىء آخر أمرا غير وارد •

كنت أود البقاء عند « أكسو » هذه الليلة أو الى الأبد ، ولدى احساس قوى عما يكنه كل منا نحو الآخر ، وأننا متقاربان بطريقة مميزة ، ونحن الاثنان جلوس بين قرنى ثور أصفر اللون سيعود الى قاع الدنيا ـ متأرجحا ذات اليمين وذات الشمال ـ ولكنى لم أجرؤ على البقاء ؛ ربما خوفا من الا يقدر « أكسو » أو لا أقدر أنا على مغادرة المسكن بعد ذلك أبدا • فلسوف

نعد أنفسنا فى هذا الأمر المشترك بيننا · ونجعله كل همنا ؛ فنتحاب وننام ؛ ثم ننام ونتحاب حتى لا تعد لدينا قوة لننهض من مكاننا ، ثم نتحلل رويدا رويدا ، وبدت لى فكرة هذا النوع من التحلل أكثر اغراء ، وأكثر جنوحا لتحقيقها ، وكأن هذا هو الذى كنا ننتظره دائما · كان يشق على أن أنصب قامتى ، وشق على أكثر أن أنفصل بعيدا عن « أكسو » ؛ فيبعد جسدانا عن بعضهما ، فلا نعود نتلامس · وفى منتصف الحجرة فى الطريق المؤدى الى الحمام ، استدرت خلفى ورأيت « أكسو » لا يزال راقدا ، دون أن يطرأ أى تغيير · وفجأة سرى فى أوصالى خوف مريع من أن يكون قد مات بغتة ؛ أو من أن يكون قد رفض أن يواصل الحياة · فهرعت الى الخلف ، وارتميت عليه ، وجعلت أهزه ، وأقبله ، وأناجيه بلغتى · وانقضت فترة من الزمن حتى فتح عينيه ، عندما كنت أعانقه ثم أبعده عنى ؛ ثم أعانقه من جديد ·

وقبل أن ينهض ، نظر الى ساعة يده · وهنا عرفت أنه كان يفكر فى أمر « حظر التجول » ، وأننا لم ننسه بالرغم مما حدث :

فســـألت :

ــ فى أى ساعة سيبدأ ؟ أمن السابعة أم الثامنة ؟ ؟

وكنت فى سؤالى اياه أبدو وكأنى قد نسيته فعلا لهنيهة ، أو وكأن هذا الأمر لا يخصنا بشىء ·

فأجاب « أكسو » ·

ــ اليوم ابتداء من الثامنة · لا يزال لدينا من الوقت متسع · فثمة وقت كاف لأن أرجعك الى المنزل !

فنهضت ؛ ثم دلفت ثانية الى الحمام ، عندما سمعته يسأل :

ــ ألا تودين البقاء معى ؟

وواصلت سيرى ، دون أن أحير جوابا · وعندما وقفت أمام المرآة ، أصلح من شعرى ، قال « أكسو » وهو يقف بالباب :

ــ لقد فرضت الأحكام العرفية فى البلاد بصورة متكررة فى الأعوام الأخيرة ، حتى صار هذا الأمر غير ذى بال ، فيفرض بادىء ذى

بدء حظر تجول يبدأ من الساعة التاسعة ؛ ثم من الساعة الثامنة؛
ثم من السابعة · وبعد فترة من الزمن يبدأ من الثامنة · ثم يلغى
مرة ثانية · وبعد هذا كله يكون ذلك اشارة لشىء لا يحدث أبدا·

ولو نظرنا الى جوهر الواقع ، لوجدنا أن هذا أمر كثير الحدوث·
فرحت أهتف فى المرآة :

مع الفـــارق أنهم ســوف يغتالونك أو يغتالوننى ، لو سولت لنـــا
انفسنا بأن نسير فى الشارع أثناء حظر التجول ، لكى نشترى ـ على سبيل
المثال ـ لفافات تبغ ·

فأجاب « أكسو » :
ـــ نعم ! مع هذا الفارق ! وأيضا مع الفارق أنك يجب أن تنصرفى
مبكرا ، ولا تستطيعين البقاء معى ؛ لأنك تخافين أن يفرض حظر
تجول غير محدود · وعندها لن تستطيعى أن تنصرفى من هنا ·
وبالتالى سوف نضطر أن نبقى هنا الى الأبد !

لم أستطع أن أحتمل رؤية « أكسو » مجرد الاحتمال · فان صورته فى
المرآة قد هيجت دموعى · وقبل أن نهم بالانصراف ، فكرت لهنيهة أن أدع
المدينة بما فيها ، وأن أعانق « أكسو » ، وألا أنصرف من هنا أبدا · وألفينا
نفسينا بالباب ، ولم أستطع أن أرى وجه « أكسو » بعد ذلك ، اللهم الا يديه
اللتين قادتانى الى السلم ·

لم يكن من السهل أن أتصور أن الشوارع والميادين العامة الغاصة
بالبشر والسيارات سوف تخلو تماما فى أقل من ساعة · ولم يسعنى أن أصدق
أن المرء لن يرى فيها بعد ذلك شيئا ، اللهم سوى القطط والكلاب الضالة ؛
ثم الجنود ورجال البوليس الذين يذرعون دركهم جيئة وذهابا ؛ وهم يحملون
معهم أسلحتهم ويصيحون من وقت لآخر : « من هناك » ؟

لقد فرضت الأحكام العرفية هذه المرة ، بعد أن سبق فرضها مسيرات
ومظاهرات واضطرابات عديدة · ولكن الأنباء تتعارض فيما بينها · وترجع
معظم الشائعات أنه سوف يئول الأمر الى تغيير فى الحكومة ؛ وربما تنتهى

الأوضاع الحالية بانقلاب عسكرى وبتحفز آخر من ناحية « اليمينيين » ٠
واتفقت معظم الشائعات على أن المرجل لم يغل بعد ، حتى تسفر الأوضاع عن
انقلاب حقيقى فى البلاد ٠

وكنت فى دهشة من أمرى ، عندما رأيت أن التعبيرات المختلفة تنزلق
من لسانى فى سهولة ويسر ، منذ أن وجدت نفسى مضطرة فى مواجهة مع
الوضع الجديد ٠ فعجبت لنفسى أنه لم يعد يشق على أن أحدد وجهتى ، وأن
أجد سمتى بسهولة فيما يتعلق بالمسميات فى أقل تقدير ، كما لو أن هـــــذا
كل ما يحدث تقريبا فى معظم أنحاء العالم الأخرى ، وينقل يوميا الى الأنظار
والأسماع عن طريق وسائل الاعلام ، حتى صار مشاعا لغويا ، يستعمله كل
امرء على هواه ٠ وعندما أنقل هذه الكلمات عن المدينة ووضعها الحالى ،
أشعر بأننى سوف أجد طريقى ، وسوف أعرف وحدى علام يتوقف الأمر ،
وماذا أفعل ٠ والأصعب من هذا هو عندما أحاول أن أدمج « سيفيم وتورجوت
وأكسو وانجن بك ؛ بل ونفسى أنا » فى هذا النسق اللغوى ، عندما أفكر فيما
هو الثابت والذى ينبغى فعله الآن ٠٠٠ وكيف يتصرف الانســـان ، وماذا
نصدق ، وفيما نعتقد ، وكيف يكون هذا ، وأى دور سنلعبه ، اذا كان لنـــا
أن نلعب دورا ٠

لقد كان الوقت متأخرا جدا ، حتى أن « أكسو » لم يستطع أن يعود بى
الى المنزل ٠ فأخذنا نجوس فى عجلة خلال الدروب الضيقة ، ونزلنا درج
السلم الحجرى من حى « الجالاتا » الى « كاراكوى » ؛ فأخذت « تاكسى »
منها ٠ وكان الناس على محطات السيارات يتزاحمون فى أسراب متراصة
كثيفة ، وأخذت أتساءل فى تعجب كيف يستطيع كل أولئك البشر أن يصلوا
الى منازلهم فى الميقات ٠ وما ان اختفى « أكسو » عن ناظرى ، حتى شعرت
بانقباضة فجائية تتسرب الى نفسى ٠ وثقلت همومى ، حتى غدوت نادمة على
أنى لم أمكث عنده ٠ ولكنى تذكرت بعد ذلك « سيفيم وتورجوت » : ماذا كانا
سيفعلان عندئذ ؟ وتذكرت ما كان يمكن أن يحدث ، لو قضيت الليلة بعيدا
عن البيت ! ربما كان سيخرج « تورجوت » للبحث عنى ؛ أو ربما كانا سيبلغان
« البوليس » بغيابى ٠ ثم تقع كارثة فى النهاية ؛ فربما كان ســـــيصيب
« تورجوت » شىء ، أو « سيفيم » التى كانت ستحاول بالطبع أن تخرج معه ٠
وفجأة شعرت بارتياح شديد ، وتنفست الصعداء لأنى لم أمكث عنده الليلة ٠

وشعرت ، وكأنى أفيق من خيوط حلم نسيت فيه شيئا هاما جدا ، ولكن يمكننى الآن فى يقظتى أن أدركه ، وألا أنساه مرة ثانية ، وأن أمنع كارثة محققة من الوقوع ٠

وعندما وصلت الى المنزل ، فتحت لى « سيفيم » الباب ٠
وألفيتها وحدها ٠ فسألتها :

ـــ وأين « تورجوت » ؟

وهزت منكبيها ، وراحت تقول :

ـــ لا أخاله يعود الليلة ٠ انه عند أصدقاء له ، اذ لـــديهم الليلة مايشبه اجتماع ، وربما يعود قبيل الصباح ٠

وكانت علامات القلق بادية عليها ٠ فكانت تأمل أن يكون « تورجوت » حذرا بما فيه الكافية ، وأن لا يلقى بنفسه فى أتون المخاطر ٠ فلسوف يكون الجنون عينه أن يدع نفسه نهبة لأولئك الصعاليك المسلحين الذين لا يتورعون عن أن يصوبوا فوهات بنادقهم الى صدور الآخرين ؛ فيسوقونه أمامهم الى السجن ، أو يضربونه بالنار ٠ ولا غرو فى هذا ؛ فهذا ما يمكن أن يلقاه المرء من هؤلاء ، اذا ما قدر له السير فى الشارع بعد الوقت المحـــدد ٠ وكانت « سيفيم » حانقة على أن أولئك الصعاليك ـ كما تسميهم دائما ـ لم يخطر ببالهم شىء آخر ، سوى أن يفرضوا الأحكام العرفية فى البلاد ٠

ثم صاحت فى امتعاض :

ـــ كم مرة كهذه ما فتئوا يفرضونها ؟

وكانت تضرب الهواء بيديها فى انفعال شديد ٠

وســـألتها :

ـــ ماذا كنت ستفعلين ، هب أنك فى مكانهم ؟

ـــ فى مكانهم ! ! !

ثم حدجتنى باستغراب شديد ٠ ولكنها تمالكت أعصابها وقالت :

ـــ كنت سألعن نفسى ، أو أشنقها ! !

وخرجنا الى الفناء ، كى تكون جلستنا هناك ٠ ولكننا لم نشعل ضوءا ، عندما أظلمت الدنيا حولنا ٠ وكان يقطع السكون المطبق الذى نشأ بسبب ضوضاء الشارع الخافتة صفير حاد ، أو أعيرة نارية متقطعة تتلاحق بين

آونة وأخرى ، وراحت « سـيفيم » تنفس عن غضبها وحنقها فى كلمات تضجر طويلة خافتة ٠

ومن بين الطرق الصوفية التى يحضرنا ذكرها طرق « الآخيين » ٠ وهى عبارة عن طريقة صوفية كونتها طوائف الحرفيين ، وان كانت فى أصل منشأها قد قامت على أساس عمالى نقابى ٠ وقد تمخضت هذه الطرق عن « طائفة الفتوة » التى خرجت من العراق فى القرن العاشر ٠ وتقول احدى الروايات أن طرق « الآخيين » هذه عاشت فى ذاك الوقت متسترة تحت اسم « الفتوة » ٠ وقام شيوخهم من خراسان بتأسيسها وجمع شملها ٠ وبهذا تجمع لديهم من الأسباب ما جعلهم يبسطون نفوذهم على مدن بأسرها فى الأناضول ، بعد انهيار سيادة المغول بصفة خاصة ٠

وقد انتقل الكثير من طقوس القبول فى « طريقة الآخيين » الى « البيكتاشيين » ـ كالعادات المتبعة فى الطريقة عند أخذ العهد ـ على سبيل المثال « التمنطق بالمنطقة » ، واختيار شيخ للطريقة ، وأب للطريقة ، واختيار أخ أيمن وأخ أيسر للطريقة يكون من واجبهما تعليم الدراويش المبتدئين ، كى يعرفوا كل ما يتعلق بالأبواب الأربع ٠ وكذلك صون الأيدى واللسان وحفظ الأعراض وطهى نبات « الحلفا » أثناء الاحتفال بقبول درويش جديد فى الطريقة ٠ كل هذه الأشياء أخذت فى الظهور عند « البيكتاشيين » مرة ثانية ٠

الا أن « الآخية » كانت طريقة خاصة بأرباب المهن ٠ وقد ذكرتها المصادر باسم « العمال » ٠ وكانت الفضائل التى تنشدها هى :

الأريحية ، واكرام مثوى الضيف ، والتسامح ، وتهذيب النفس والتضامن ٠

وكان يمتلك معتنقو هذه الطريقة فى كل مدينة دارا للندوة بها ؛ يستقبلون فيها ضيوفهم ، ويجلسون فيها للسمر مع نغم الموسيقى والرقص ٠ وما يكتسبه الأفراد طوال النهار من كدهم كانوا يوردونه فى المساء لدار الندوة ٠ فهم كانوا يسعون على ما يقيم أودهم بشكل جماعى ٠ ولم تذكر

المصادر كم من الوقت يظل الانسان من أبناء الطريقة ، كما لم تشر المصادر أيضا عما اذا كان هناك اعتبار لفوارق السن ٠

أما كل ما وقع تحت أيدينا مما يتعلق « بالفتوة » و « جوان مردان »(١) فهو أنهم كانوا فى الأصل عبارة عن مجموعة من الشباب ، تجمعوا وتكتلوا فى ظل اتحادات وروابط ؛ ثم وضعوا أيديهم على أحياء بأكملها من مـدن مختلفة ٠ وكان لمنظماتهم من مظاهر المروءة والكرم ما كان ٠ أما « الآخية » فقد كانت عبارة عن مجموعة من الفرسان خلعوا على أنفسهم هيئة أصحاب الحرف والتجار ـ وان كانوا قد نشأوا فى الأصل نشأة عسكرية ٠ وكانوا يعتبرون أيضا عاملا هاما من عوامل القوة لا يمكن أن يتغاضى عنه انسان يسعى الى الحكم ٠

من الصعب علينا أن نحدد الثورات والقلاقل والتطورات السياسية والتغييرات الاجتماعية التى اشترك فيها « الآخيون » بصورة قاطعة ٠ فقد كانوا يعيشون فى الخفاء ، وكانوا يبحثون أمورهم فى الخفاء أيضا ، أثناء القيام بالطقوس السرية للطريقة ، والتى ما كانوا ليكشفوا عنها أبدا ، وان افتدوها بحياتهم - فلقد صنعوا تاريخا فى الخفاء دون أن يظهروا فيه ٠

وقد ملك على نفسى هذا الاستنتاج : منظمة مكونة من أصحاب الحرف والعمال الذين لم يستطيعوا أن يفرضوا مطالبهم المادية فحسب عن طريق التضامن والنخوة ، وانما سعوا لتدبير شئون دنياهم بطريقة خاصة ٠ فكانوا يتعلمون داخل الطريقة كل أمور المعاش والمعاد ٠ فكان هناك معلمون للاشياء التى تتعلق بالزراعة ، وآخرون للحرفة ، ومشرفون على العمل ، ومدربون عسكريون ٠ والمبادىء الستة للتعليم عن « الآخيين » هى :

الصحبة ـ الفروسية ـ حب الآخرين ـ المساواة ـ والالتزام بمبادىء العمل ـ والطموح الى ادراك مرتبة « الآخى » ٠

وقد لعب « الآخيون » من قبل « البيكتاشيين » ؛ ثم بجانبهم ، دورا هاما فى تأسيس وبناء الأمبراطورية العثمانية ٠ ولا غرو عندئذ ، فقد كان « عثمان

---

(١) فارسية وتعنى الفتيان من الرجال الذين على درجة عالية من التعليم والثقافة٠

وأورخان » (١) نفسهما أعضاء فى طريقة « الآخيين » فكان تتويجهما عبارة عن « التمنطق بالمنطقة » (٢) ٠

ان شرب « القميس » ـ وهو لبن أنثى الفرس (الرائب) ، والاهتمام بالموسيقى والرقص يشيران الى تركستان وتقاليدها ٠ والعجيب أنه يبدو أنه لم يتبق على قيد الحياة فى البلاد الا نذر يسير من هذه الأشياء ٠ أم هل أن الطريقة قد تجاوزت مرحلة الخطر مبكرا ، ولكى يكون بامكانها أن تحفظ نفسها بالاندماج فى اطار احـدى النقابات « البروليتارية » ٠ هل كانت اتحادات الآخية ـ طبقا للمصادر ـ مرتبطة ارتباطا وثيقا بتصور للعصـور الوسطى عن العمل الحرفى ، لدرجة أنهم استطاعوا تجاوز مرحلة الخطر والاستمرار فى الحياة ؛ على الرغم من أنهم حازوا قصب السبق آنذاك ، اذا ما قورنوا بكل ما يمكن أن يقارن ؟

وما انفككت أحيد دائما عن الموضوع الأصـلى ؛ وازداد بعـدا عن الامكانيات التى تساعدنى على كتابة عمل عن شىء محدد ٠ وبت كمن أراد أن يفتح بابا ، لكى يلقى بنظرة واحدة فى اتجاه محدد تماما ؛ فانهار الجدار كله من أمام عينيه ؛ فكشف عن مناظر طبيعية عديدة تزينها أغرب الألوان ؛ فعييت عيناه عن أن تنظر الى هذه اللوحة العريضة الجميلة ـ ذات الخطوط المنمقة ، ليست كرسم الحروف ، وانما خطوط تضعنا كل صغيرة وكبيرة فيها أمام سؤال جديد ٠ وكان الشعور بالحيرة وحب المعرفة الدافق هما اللذان يدفعانى دائما الى الأمام ، وان كنت أنا نفسى لم أعد أعرف ما الذى أريده بالفعـل ٠

وأخذت أقرأ عن اتحادات « الآخيين » ٠ وكنت أثناء قراءتى أفكر فى « البيكتاشيين » ، كنت أفكر فى أمر الأبواب الأربعـة : باب الشرع ، باب التصوف ، باب الحقيقة ، باب معرفة الله ٠ وكان « البيكتاشيون » يشربون بادىء ذى بدء نبيذ العسـل المغلى ، بدلا من « القميس » الذى كان يشربه

---

(١) السلطان الثانى فى ترتيب سلاطين الدولة العثمانية ، وابن عثمان مؤسس الدولة ٠

(٢) حسب التقليد المتبع فى طريقة « الآخيين » ويعنى الباس حزام التصوف ٠

« الآخيون » ، وراحوا بعد ذلك يحتسون « العرق » ـ الشراب الأبيض الذى ساقه لهم القدر ، أو النبيذ ـ الشراب الملقب بالمجنون الأحمر ٠

ان كل ما رأيته عجيبا ـ على سبيل المثال ـ ما قيل أن «الآخيين » كانوا يقسمون موسيقاهم حسب المنازل الفلكية ، (لأنهم كانوا يعتقدون أن الموسيقى كانت تستوحى من جنيات الكواكب السبع ؛ ولذا كان من الواجب عليهم أن يعرفوا متى ستقوم كل جنية بالحراسة ؛ ولما كانت الجنيات السبع تهوين الرقص ، كانت تقام فى منازل « الآخيين » حفلات الرقص واللعب فى الليل كى ترضى عنهم الجنيات) ، كل هذه الأشياء التى بدت غريبة بالنسـبة لى كانت تنقلنى بالتالى الى آثار أجد فى نفسى استعدادا لاقتفائها لوقت معين ٠ فرأيت بعد ذلك بدوا يضعون على رؤوسهم العمائم ، ويمتطون صهوة الجياد ، تبدو منها ثلاث أرجـل بيضـــاء ، ويجوبون البوادى والبرارى بين بحيرة « أرال وبحيرة بيكال » وأحسست للحظات بمناخ المناطق المرتفعة ، وأخذت أتطلع الى البحر والبر على الخريطة ، كما لو كنت منتعلة حذاء صـغيرا لعملاق ضخم له قدرة على تحمل شـــدة الصقيع وقيظ الحر ، وقلت فى نفسى ، على أن أسير الى أبعد من هذا قبل أن أبدأ بكتابة أى سطر ، على أن أقطع السهول والقفار ، وأتعلم اللغات ، وأقرأ المخطوطات ، على أسير عن طريق « نيسابور ، ومرو وبخارى ، وسمرقند وطشقند » (١) ، على أن أعبر أنهـــار « أمودريا ، وسيرداريا ، وتيان شان وجونسنجراى » (٢) ، حتى أصل الى « كانسو » ، علنى أجد ضالتى ؟

لن أجد سوى صحارى ، وبواد ، وجبال عالية ، يقيم بها أناس قـــد أصاب حياتهم الجنسية الخمول والكسل بسبب البرودة والحياة الدائمة على متن الجياد ؛ حتى أنهم لجأوا الى الاباحة الجنسية ، وآسيا الوسطى الينبوع الأسطورى الذى يخرج منه كل شىء قد نضب ، ورياح تهب فوق الكثبان الرملية ، عبر شعاب الأودية ومنطقة نفوذ ايران والصين ، عقلية أهل الواحات ، وركود حضارى ، وتبعية سطحية لأديان عالمية متعددة ، وحضارة الفلاحين ، وحضارة الرعاة وما أكثرهم ٠

---

(١) مدن تقع فى الجزء الجنوبى من الاتحاد السوفيتى على الحدود السوفيتية التركستانية ٠

(٢) أنهار تقع بين « تركستان والاتحاد السوفيتى » ٠

وثمة تواز غريب بين « البيكتاشيين » ولاميى التبت » (١) · ويتـــم هذا التوازى عن طريق أنهم نقلوا اليهم أساليب الكهنة وطبقوها ، واستطاعوا أن يستولوا على لب وفكر البدو · وهكذا ورد هذا مكتوبا · ولكن لم تعد تضم تحت سمائها بدوا منذ وقت طويل · وأيضا لم يكن يوجد آنذاك كثير منهم ، وان بقى فكرهم حيا · فلماذا عندئذ التكتل ، والمنظمة التى تكون حياة المرء ثمنا لخيانتها » ؟

ولم الرغبة فى خلق التوازن ؟ ؟ والرغبة فى عدم جعل الأقوياء يزدادون قوة ؟ ؟ هل من أجل التغلب على انعزالية البلاد الحديثة ؟ ؟ لأن لكل وقت أوان ؟ ؟ أم كان هذا الذى يحثهم على سوق قطعانهم معا فى رباط قـــوى وكجسد واحد فى حومة الوغى ، جالسين تحت سقفواحد لخيمة مستديرة(٢) لا تفصلهم حوائط ـ أمرا مستقلا ؟ ! ان هذا ليس بالسبب الوحيد · أم كان هو الذى لم يقووا على الأقلاع عنه هو الذى دفعهم أن يأخذوا معهم ما خف حمله ، وغلا ثمنه كما فى الأساطير ؟ ؟ هل هذا هو الذى دفعهم لأن يفترشوا ـ بدلا من السجاجيد ـ أوراقا ذات رموز ونماذج غريبة ؛ وبدلا من انتاج الأشياء التى كان نقلها يسبب مشكلة ؟ ؟ ·

لقد انتج « الآخيون » أشـــياء عديدة ، كـــل الأشـــياء التى كانت ضرورية لحياة المدينة · وبدأت أدور فى حلقة ! وفى هذه الحلقة تملكنى حنين الى ما طبعت عليه ؛ حنين الى كل ما أعددناه وهيأناه لأنفسنا ، ولكنى كبحت جماح كل رغباتى ·

ولم أكن لأصدق أنها قد انتهت وووريت الثرى ، تلـكم الاتحـــادات والطرق الصوفية ! ومن يدرى ؟ فى أى شكل يعيشون اليوم فى الخفاء ؟ وأى أسماء سموا بها أنفسهم ! وأى الطقوس والشعائر التى يقيمونها ! منذ لم تعد الموسيقى والرقص ورسم الصور بالأمور المحرمة ! ومن يدرى ؟ من يشايعهم اليوم ! وظل السؤال عالقا فى رأسى ، أهو « أكسو » ؟ ؟ أم « انجن بك » أم ؟ ؟ « ارزيفير » ؟ ؟ أم من عندئذ ؟ ؟ ···· ولن أستبعد

---

(١) وهى طائفة بوذية مترهبنة فى هضاب التبت ·

(٢) خيمة سوفييتية كان يستخدمها العساكر السوفيت قديما أثناء الحروب وتسمى بالتركية « اليورتى » كما وردت فى النص الاصلى ·

كثيرا ، أن تندلع ثورة ذات يوم يقود زمامها « تورجوت » أو أى شخص آخر من الذين أعرفهم ! أم أنى أصابنى الجنون والخبل !

لقد أصبت فجأة بآلام فى الزور ، صحبه ارتفاع فى درجة الحرارة ما لبث أن امتدت عدواه الى الرئتين ، وكان ذلك مرجعه تقريبا لانخفاض عرضى مفاجىء فى درجة الحرارة ، بشكل غير معتاد فى مثل هذا الوقت من العام · والتى لم أستطع لها احتمالا ـ بسبب فترة الحرارة السابقة التى أرهقتنى ـ · وكانت « سيفيم » تشد من أزرى ، وتدعى أننى قد تجاوزت هذا الأمر ، ولكنها كانت لا تتوقع أن أصاب بالبرد الشديد فى هذا البلد ، وفى هاتيك الفصل من فصول السنة بصفة خاصة !

وفى أيام مرضى الأولى كنت أرقد فى الفراش عند « سيفيم » بالمنزل · وكانت « سيفيم » قد أخذت تتخلف عن المدرسة ، كى تسهر على خدمتى ؛ ومن أجل أن تقدم لى الشاى كل نصف ساعة أو تعطينى شيئا من الدواء · وبعد مرور يومين نقلنى « أكسو » الى المستشفى · ولا زلت أذكر من أعماق الذاكرة الخلاف الذى دب بين « سيفيم » و « أكسو » · وأذكر أنى كنت آنذاك ، كمن لا يعنيه ، لأن « سيفيم » لانت أخيـــرا أمام اصراره ، وتركته ينقلنى الى العربة ·

وأخبرنى « أكسو » فيما بعد أن « سيفيم » عارضت فكرة أن ينقلنى بعيدا عنها بشدة واصرار · وراحت تلحف عليه القول أن يبقينى عندها ؛ لأنه سوف ينقلنى فى رعاية أقل وعناية أردأ فى المستشفى · وجادلته آنذاك بقولها انه يمكنه أن يعطينى « الحقن » فى المنزل أيضا · وزاد الطين بلة ، عنـــدما احترقت يدى فى ليلتى الأولى فى المســـــتشفى ، وأنا أهم باطفاء المصباح ·

لقد كنت « مريضة » « أكسو » الخاصة · وكنت أرقد ـ بسبب نقص الأسرة ـ فى حجرته التى يستعملها فى ورديات الليل ، عندما تكون لديه خدمة ليلية · وكنت لا أرى طبيبا آخر غيره ، وكذلك المرضة كانت لا تأتى الا نادرا · ولم يكن هذا ليضيرنى بشىء ، لأن « سيفيم » كانت لا تفارقنى طوال اليوم تقريبا ·

وكنت أنام كثيرا فى الأيام الأولى من مرضى ٠ وكنت أحسها بجوارى بين الفينة والأخرى ، كلما خرجت من حلم لأدخل فى حلم جديد ٠ وذات مرة تصورتها شخصا آخر ، وأنا أرزح تحت نير الحمى والهذيان ، وهو ما جعلها تشعر ـ على الرغم من كل هذا ـ بالاهانة ٠ وما ان أخذ مؤشر الحرارة فى الانخفاض تدريجيا وكنت أقضى معظم يومى مستيقظة ، ألفيتهم يأتوننى تباعا ليعودونى ٠ ويجب أن أعترف بأنى كنت أشعر بارتياح واطمئنان شديدين ، كلما رأيتهم جميعا يلتفون حول فراشى ٠وكانت « سيفيم » تستقبلهم وتقدم لهم اماكن ؛ ثم تحمل منهم الأشياء التى أحضروها الى معهم ، بعد أن كانت تقدمها لى لألقى نظرة عليها ٠ وكان لكل هذا فى نفسى وقع كوقع احدى الفرائض الدينية ، التى تبدو قياسا لحالتى المرضية ـ وكأنها مبالغة زائدة ـ وفى بعض الأحيان كانوا ينسوننى أيضا ، عندما يجلسون حولى ، ثم يلغطون فيما بينهم بالحديث ٠ وكثيرا ما كنت أنتهز هذه الفرصة ٠ فأغلق عينى ، لأختلس غفوة قصيرة ، ترافقنى أحاديثهم ، ويصطحبنى لغطهم الذى يتسلل منه الى أحلامى كلمة أو أخرى ؛ ثم تتغير بطريقة غريبة ؛ فأربطها فى ذهنى بمعنى معين ، حتى تتكون فى شعورى صورة لا أدرى كيف أعيشها فى يقظتى ٠ وتصورت أن « آيتين » و « انجن بلك » يعرفان بعضهما منذ وقت طويل معرفة أفضل مما رمت اليه توقعاتى ٠

وبينما هما آخذان فى تبادل الحديث الى جوار فراشى ، حاولت أن أراقب « سيفيم » من تحت جفون نصف مطبقة ، كى أكتشف عما اذا كانت هى الأخرى تعرف هذا أيضا ٠ لقد بدت الصداقة التى تربط « سيفيم » و « آيتين » الآن ، وكأنها ليست الصداقة القديمة ، أم أنى تخيلت هذا ٠ ولعلهما أصلحتا ذات البين بينهما منذ وقت طويل ، دون أن ألحظ شيئا على الاطلاق ٠

وأخذت أتساءل فيما بينى وبين نفسى ، ماذا سيكون شعورى ، هب أن « أكسو » و « تورجوت » دلفا الى الحجرة فى وقت واحد ! وغرقت بعد ذلك فى بحر من الأوهام ، وأنا أتساءل من سيكون أكثر طولا من الثانى ٠ وجعلتهما يقفان فى أوهامى ظهرا لظهر ، كصبية المدرسة الصغار ؛ ثم تصورت أنى أضغط على شعر « أكسو » الكث الواقف ٠ تصورت أنى أضغط عليه بمثلث هندسى ، لئلا يدخل فى حساب طولهما ٠ وذات مرة زل لســــانى ، فسألت « سيفيم » عن « سهيلة » عما اذا كانت قد عاودت الكتابة من جديد ٠

وتفطنت لزلتى بمجرد أن أفصح لسانى عن السؤال · ولكنى ما لبثت أن نسيت هذه الواقعة ، عندما رأيت « أكسو » فى المساء على انفراد · وكان طيف « سهيلة » يراودنى فى أحلامى ، ولكنى لم أستطع أن أتعرف على معالم وجهها مرة أخرى ، بعد أن أعفى عليها كر الأيام ·

وكان « أكسو » يعودنى طوال اليوم ، كى يعطينى الحقن · وكان لا يدخل حجرتى ، الا بعد أن تنصرف « سيفيم » · وكانت الأحكام العرفية لا تزال مفروضة فى البلاد ، وكذلك حظر التجول ، وان اختلفت أوقات ابتدائه · وعندما عادنى « أكسو » ، جلس على حافة فراشى ، وأخذنا نتحدث من جديد عن الرحلة لم يكن حديثنا عن الرحلة الكبرى على طول الشاطىء ولكننا كنا نود أن نذهب الى « جيلة » (١) ونمكث هناك نأكل وننام ، ونسبح قليلا ، ونروح عن نفسينا ، وكان « أكسو » يبدو عليه الاعياء والاجهاد · وكانت عيناه ضاربتين الى الحمرة ، وتبدوان فى سوادهما كعينى حيوان أعجم · وكان يحدث منه أن يغوص فى اطراقة عميقة وهو يحملق أمامه ، حتى يدور بخلدى أنه قد راح فى سبات عميق · ولكنه كان يستمر فى وضعه هذا هكذا وقتا ، دون أن تزل يداه ؛ فتنزلق عن ذقنه ، أو دون يبيح بأنفاسه أن النوم أوقعه فى حبائله ·

لقد كان مما يثير الدهشة فى نفسى أن أرى « أكسو » فى هذا المحيط ، فى هذه البيئة التى يمارس فيها وظيفته · وأنا وان كنت قد أتيت الى المستشفى قبل هذا مرات عديدة ، الا أن هذا قد كان أمرا مغايرا لما تعودت · وشعرت بشفقة على « أكسو » ، عندما دار بخلدى أن ثمة العديد من مثل هذه الأسرة بالمستشفى ، وأنه ينحنى اليها فى نفس الوقفة وبكلمات مشابهة · وهو يلتقط يد مريض بين ابهامه وسبابته لكى يجس نبضها · ثم يضعها فى وداعة مرة ثانية على غطاء السرير ؛ بينما يأخذ بعد ذلك فى تفحص منحنى درجات الحرارة ، ثم يقارن ، معدلاتها فى شىء من التفصيل ·

وكذلك كانت « تاتارية » من بين من عاودنى فى مرضى · فقد زارتنى عدة مرات مع « انجن بك » ، وبدونه · وكانت علامات الحمل قد بدأت تغير من هيئتها ؛ فازداد وجهها اتساعا ،وغدت عيناها أكثر ضيقا ، حتى بات

---

(١) جيلة : بلدة فى الاناضول ·

الخط الأخضر المرسوم على جفنيها لا يرى الا بالكاد · وعندما عادتنى ذات مرة ، أخذت تبثنى شكواها ، من أنها تجد صعوبات من شعرها · فليس من سبيل الى تصفيفه مرة واحدة تدوم طويلا · وراحت تتحدث الى « أكسو » لوقت طويل · وأمسكت بناصيته ، عندما كان واقفا بالباب · وكانت تبدو فى طريقتها ، وكأنها تريد أن تكتشف شيئا من نظرتى ونظرة « أكسو » يؤكد لها افتراضاتها وتخميناتها ·

ورأيت فيما يرى النائم ، ما كان من أمر عجيب للابناء الأربعة : وهم ابن العصب الذى يمر من بوابة الحق ، وابن الطريقة الذى يحفظ أسرارها ، وابن البلد الذى يصل الى الحب الصوفى عن طريق المعرفة ، والابن الرابع ، وهو الابن الذى أبوه السماء وأمه الأرض ، وهو الابن الذى يقتـــرب من الجمال الكامل حتى مرحلة الاتحاد التام · ورأيت فى أحلامى أيضا قوات الفرسان الأربعة : —

القوة التى تمتطى الجياد الرمادية اللون · والقوة التى تركب الجياد الملونة ، ثم التى تركب الجياد الشهباء وأخيـــرا تلك التى تركب الجيـــاد السوداء · ويتجه أولئك جميعا صوب البحر الأسود والبحر الأبيض والبحر الأحمر ، وليس فيهم من يجعل سمته ناحية الشرق · اذ لا يوجد بالشرق سوى البرارى · وأخيرا تذكرت أننى قد قرأت كل هذه الأشياء فى أحد الكتب من قبـــل ·

ولم يكن « تورجوت » دائم المجىء ، كما كان يفعل الآخرون · وعندما يأتى كان ينتظر حتى ينصرف الجميع ولا يبقى أحد بالحجرة سوى « سيفيم » ، وبعد ذلك يأخذ فى الكلام · وكان « تورجوت » الانسان الوحيد الذى يحكى عما يقع فى المدينة من أحداث حقيقية وطفق يحكى عن المسيرات والمظاهرات وكل أعمال العنف التى لا تذكر عنها الصحف شيئا ، وأن الرصاص أطلق على الطلاب أثناء اصطدامهم برجال البوليس ؛ فأودى بحيـــاة معظمهم · وقال لى « تورجوت » فى سياق كلامه أن اثنين من هؤلاء الطـــلاب القتلى يمكننى أن أعرفهما من مظهرهما · ثم قضينا وقتا طويلا أخذت أحاول فيه أن أشخصهما فى مخيلتى ؛ لعلى أقع على شىء من أوصافهما · وحاولت

أن أصفهما لـ « تورجوت » منتظرة ، لعله يومىء ايماءة الموافقة ، ان صحت فراستى فى تحديد من يعنى · ولكن محاولاتى للتعرف عليهما باءت بالفشل · وكنت أحس فى أعماق نفسى أن كل ما يحكيه « تورجوت » انمـــا هو غير صحيح · ليس لأنى بالمكذبة فيه قولا ، ولكن كلما دنوت خارج النافذة ، كانت تبدو لى المنطقة المحيطة بالمستشفى بلا أى تغيير فيها · فكنت أرى الناس يذهبون الى أعمالهم فى وداعـــة ورباطة جأش ، كـما ألفت أن أرى منهم وبصفة خاصة هنا فى « بيرا » ، كان يبدو أنه لم يتغير أى شىء البتة · وحاولت أن أتصور علام ستكون عليه هذه الشوارع الغاصة عن آخرها بأناس يلغطون فى هرج ويتنزهون ويتبضعون ، لو دوت فيها طلقات الرصاص !

وكلما أعود بذاكرتى الى الوراء ، لا أذكر أننى سألت مرة واحدة ، لماذا توجد عندئذ مظاهرات ومسيرات · ولم يخطر ببالى قط ، أننى قد تحدثت ذات مرة مع « انجن بك » أو « سيفيم » حديثا حقيقيا حول هذه الأشياء · وكأن حتمية ولزوم التغيير أمر لا يرقى اليه شك ؛ أو وكأنهم جميعهم سيتفقون فى هذه النقطة ، من أنه لا بد من حدوث تغيير ، أو بالأحرى أنه سوف يكون ثمة تغيير ! وكانت ردود فعلهم ـ على قدر اختلافها ـ تســـتند الى حقيقة بديهية لا تقبل جدلا كثيرا · وكنت أحس من خلجات نفسى فى أحيان كثيرة أنهم يشحذون همتهم ، كى يجربوا هذه الأشياء ، ويجعلونها وراءهم ظهريا بسرعة شديدة ما استطاعوا ، حتى يمكن البدء بعد ذلك بالعمل الحقيقى · وانى لأذكر أن « انجن بك » قال ذات مرة ان الناس يعلمون كل هذه الأشياء حق العلم أكثر مما يشغل خيالهم · ولكن القضية هى ، أنه بات فى حكم اليقين ، أن الناس لا يستطيعون التعلم من زلات الأخرين · وخيـــر له أن يغمض الجفن على القذى ، من أن يرى الدنيا وقد أضحت خرابا مرة أخرى · ولكن « تاتارية » كانت ترى فيه أنه انسان قد أعيته الحيلة وغلبه أمره ، وهذا لسوء طالعه هو وطالعها هى الأخرى · ولكن بنظرة عامة يمكنها أن تتصور أن كل ما يعارض فيه « انجن بك » بجدية ، انما هو وحده الأفضل · فالبلد تعيش الآن بين فكى رحى القوتين العظميين ؛ فلن يقبل أحـــد منهما أن تتم التغييرات الضرورية بالأسلوب الوحيد الممكن ·

أما « أيتين » فلم تعلق على هذا بشىء · وان كان لها أن تتكلم بشىء ، فانما هى تتكلم عن الاجراءات الاحتياطية التى ينبغى على المرء أن يتخذها ،

لئلا يقع سهوا تحت سنابك القدر ٠ أما الأمور الأخرى ، فانها لا تفهم منها الا القليل ٠ ولكنها تعلم عن يقين أنه فى اللحظة التى سيقتتلون فيها بقوة السلاح ، سوف تحصدنا ويلات الحروب ونكباتها ، التى طالما صكت مسامعها ، كفصل الرقاب عن الجسد ، وبتر الأطراف ، وبقر بطون الحوامل ٠ وأخذت تعدد هذه الأشياء الى آخرها ٠

أما بالنسبة لـ « سيفيم » و « تورجوت » فكانت المشكلة تأخذ طابعا مختلفا تماما ـ كما كانا يرددان ـ ولكن لم يلبثا أن أقلعا عن التصريح برأيهما ازاء هذه المشكلة ٠ وكان ميلهما أكثر الى أن القضية انما هى قضية البلد بأسرها وليست المدينة مشكلة فحسب ٠ وكانا يريان أنه بمقدور المرء أن يفعل تجاه ذلك الكثير ٠

ثم ماذا عن « اكسو » ؟ !

سوف يحاول « أكسو » أن ينقذ ما يمكن انقاذه ، فهو لن يضطر أن ينتظر ـ بشكل أو بآخر ـ حتى يأتى الناس اليه هنا أم فى القرية ، قبلوه بينهم أم لفظوه ! ولكنهم سيسوقون اليه مرضاهم وجرحاهم فى أسراب وزمر ٠ وقد لا يعرف أبدا من أين عليه أن يبدأ ٠ كما أنه لن يكون لديه من الوقت لأن يسأل : أى جانب للمرء ضعف بسبب ذراع بترت ! وكان يردد دائما : ان الأمر قد بدأ بطريقة أو بأخرى ـ ولا رجعة ـ وان كان لم يدخل فى الحسبان بعد ٠ وسيظل هكذا أعواما ٠ أما أولئك الذين يزعمون أن الوقت قد حان ، فانهم موهومون ٠ فلم يبلغ السيل الزبى بعد ، ولكن الأعوام المقبلة سوف تجلب معها الكثير من الاضطرابات ، مما يجعل الفتيل يشتعل ٠ فلقد انصرمت الازمات التى تندلع فيها الثورات فى أى مكان فى البلاد ٠ فضلا عن هذا ، فان الناس قد يعلمون علم اليقين أن مثل هذا التمرد والعصيان مآله الى السحق من قبل القوة المركزية الحاكمة ، وان استمر هذا لأعوام طوال ٠ فالبلد ذات أهمية كبرى للقوى العظمى ٠ فلا اخالهم يتقاعسون عن وأد كل ثورة فى مهدها ٠ ويبدو أنه من الهراء السخيف أن يعتقد شخص ما أنه يمكن أن يتخذ قرارا ، ليحقق به أمرا معينا ، كان قد حسم واتفق عليه فى مكان آخر ٠

لابد أن هذا حدث فترة مرضى بالحمى ، لأنى لا أستطيع أن أذكر قط

أن « تاتارية » قد أعطتنى هذا الكتاب · وندت عنها ضحكة عالية ، عندما عادتنى ، وألفتنى أكب على القراءة فيه لساعتى · ولم تلبث أن أماطت عن نفسها اللثام ·لقد كان صعبا على نفسها أن تعطينى هذا الكتاب · وفى الحقيقة أنها كانت تعتزم اعطاءه اياى ، عندما أكون على أهبة الرحيل · وكان هذا الكتاب هو « كتاب الأســـاطير » ، وبه نبذة عن سيرة الحاج « بيكتاش الولى » · وكانت أعقاب المرض لا تزال تضنينى اضناء خفيفا · فكنت بجانب هذا مضطرة آسفة أن الزم نفسى بقراءة كل شىء ·

وما ان خبا أوار الحمى رويدا رويدا ، أخذت فى التماثل للشفاء بسرعة خاطفة · وشرعت « سيفيم » تنقل بعضا من حاجياتى الى المنزل · وكان لا يمر يوم دون أن تلقى على مسمع « أكسو » بالسؤال : متى سيصرح لى بالعودة الى المنزل ؟ وكل يوم يحدده لها ، كان يبدو لديها نوعا من الامتهان الشخصى الموجه لها · وعدت أقرأ من جديد وأخذت زياراتى تقل تدريجيا عن ذى قبـــل ·

وكلما أسلمت جفونى للنوم ، كانت تجوس قراءاتى عبر أحلامى فى وضوح واصرار مضطردين · فرأيت نفسى أقبل « عتبة ميدان الأربعين » ؛ ثم أخذ « بساعدى » بعد ذلك ، بينما وجب على أن أدفع « لعرق القدم » و « التمنطق بالملاعق » ، ورقدت تحت « الكفن » ، لكى أعلم السر · وكفرت عن معصيات حياتى ، واعترفت بآثامى جهارا · وأبصرت أمامى بوضوح « الشمعدان ذى الأربعين ذراعا » ، و « السلم ذى الدرج الثلاث » · فرأيت نفسى أتحسس طرفى قفطانى فى ذهول ، وأنفخ فى « صور السخرية » ، وأضع القدم اليمنى فوق ابهام القدم اليسرى ·

واستطعت قراءة كل ما هو مكتوب مرة ثانية ، وســـمعته يتردد فى جنباتى كلمة كلمة · وكان على أن أدرك أهمية هذه القراءة التى لم تعـــد عندى حلما ·

وعندما جلست مع « أكسو » فى الليلة الأخيرة ، وكنا وحيـــدين ، سألنى بغتة ، هل أجد فى نفسى هوى فأذهب معه الى مسكنه ؟ · ان الطريقة التى ألقى بها السؤال على مسامعى ، جعلتنى أدرك ، أنه لم يضع ذلك فى

حسبانه · ولم أكن على يقين من أنه اذا كان بينه وبين « سيفيم » نوع من المودة ، أو أن اهتماماتهما كانت مختلفة ، الى حـــد أنهما لا يقويان على اظهار التعاطف والمحبة بينهما ؟

فاجبت :

— لا يمكننى أن اتركها ! فلقد كانت تعودنى كـــل يوم · وأومأ « أكسو » برأسه واضاف :

— سوف نسافر الى « جيلية » فى القريب العاجل !
وكانت نغمات صوته توحى بأنه كما لو كان يصدر لنفسه أمرا ·

يزعمون أن « باليم سلطان » قد أرسل الى الأناضـــول ، لكى يخلص « البيكتاشيين » والعلويين » المتمركزين هناك من قبضة الشيعيين — وعلى وجه الأخص — من أن تتلقفهم أنياب « الصفويين » ، تحت امرة الشـــاه « اسماعيل » ، وقد تردد عنه أنه كان ابنا لاحدى أميرات الصرب · فكان كمن استجار من الرمضاء بالنار ؛ فنسب اليه التكليف بالرهبانية ، وشرب النبيذ بدلا من احتساء « الشربات » · وأحل مجموعة من المحرمات الدينية ، وأدخل « تصوف حساب الجمل » و « الأعداد » والاعتقاد فى مبدأ التثليث المكون من « الله » ومن محمد «روح الله » ، ومن على « سر الله » (١) ·

« الحروفية » (٢) طائفة دينية ، وكذلك طريقة صوفية ذات نشأة مادية ، أرجعت الوجود الى اثنين وثلاثين حرفا · وقد انتقل لواء الحروفية الى « البيكتاشيين » فى أعقاب القرن الرابع عشر وطلائع القرن الخامس عشر على يد شاعر يدعى « ناظيمى » · وقد لقى « ناظيمى » حتفه فى مـــدينة « حلب »، بعد أن سخلوا جلده عن جسده وهو حى · وتقول أسطورة أخرى أنه طرح جلده بعد ذلك فوق كتفيه ، كمن يتشح بفراء ؛ ثم دلف وهو على تلكم الحال الى بوابات المدينة الاثنتى عشرة · ولهذا لم يجد مكانا لمثواه ·

---

(١) التعبير هنا من منطلق فكر الكاتبة وقد نوهنا الى ذلك فى موضعه ·
(٢) نسبة الى « الحرف » فى العربية ·

ويحتمل أنه فى أثناء ذلك الوقت ، كان « البيكتاشيون » قد أخذوا فى تكاياهم يغضون النظر عن القول بتحريم الصـــور ، ويتحاجون فى الأمور الفكرية والعقلية ، وألا ينخرطوا فى التنظيمات الاجتماعية أو ينغمسوا فى ملذات الليل الممنوعة · وقد استتب المقام للجناح المترهبن من « البيكتاشيين » فى المدن وشبه جزيرة البلقان ، وبصفة خاصة فى ألبانيا · أما « البيكتاشيون» الأصليون فقد ازدادوا اختلاطا وانصهارا بذوى الرؤوس الحمراء الأناضوليين والعلويين ، حتى صاروا جماعة دينية ذات صفة طائفية مستقلة ·

ثم دخل نوع آخر من الانقسام ـ عندما رفض جزء من « البيكتاشيين » فكرة ضرورة وجود أخ أو أخت للطريقة · ولم تذكر المصادر ما دار حول هذا الرفض على سبيل الدقة · فمنها ما يذكر انهم كانوا يتفاوضون حول وجود زوجين لا يكون من شأنهما التزاوج ، وانما يكون كل همهما هو تأدية الخدمة طيلة الحياة · وكثير من المصادر ما يؤكد أن اختيار أخ أو أخت للطريقة ، انما يجب أن يتم على أســـاس من الجنس الواحـــد والظروف الاجتماعية والمادية الواحدة ؛ كى لا يكون « الذئب حارسا على الغنم » ، فيلعب أحدهما دور النسر ، وتلعب الأخرى دور الحمامة ، أو يكون أحدهما هو الذئب ، وتكون هى الحمل · ولا ينبغى أن تكون هناك حدود ملكية بين أخوة الطريقة · وان أصاب أحدهما الثانى بمكروه ، فلسوف يسود وجهه · وحسبهما أن تتعارف أرواحهما فتأتلف · وأما فى عرف « العلويين » فكان يختار المرء خليلته منذ أن يولد طفلا ، أو أنها تختاره ، وهذا ما أعتبره أكثر احتمالا ·

ولم تشر المصادر أيضا ، متى أخذت دعوى المجتمع المراد تخليصه فى الانتشار · وعلى أى فانها كانت تتردد دائما كدافع فى الشعر · وكان « البيكتاشيون » مقتنعين بالانضمام اليها ، وبتشكيلها بمعرفتهم · وقد نقل فى الأثر(١) أن «محمدا» قال أن أمته ستنقسم الى ثلاثة وسبعين فرقة ،سيكون

---

(١) وهو حديث صحيح ، رواه أبو داوود فى سننه ونصه : « افترقت اليهود الى احدى وسبعين فرقة كلهم فى النار الا واحدة ؛ وافترقت النصارى الى اثنتين وسبعين فرقة كلهم فى النار الا واحدة ؛ وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى النار الا واحدة » ·

اثنتان وسبعون منها هم الخاسرون · أى أن هناك متطابقات ومتشابهات ، ووشائج قربى فى البيئة ، ولكن مع ماذا ؟ ؟ لقد كانت هذه الفرق موجودة ؛ لا يحصيها عد ، مصحوبة بحركات واقتناعات ، وتنظيمات عقائدية ·

وأضحت نفسى تسأم رويدا من كل هذه التفصيلات · ولم يعد يبق لدى ما يثيرنى ، اللهم الا القصائد والصور · وقد سعيت الى أن أنظر الى الاثنين دون أن تكون فى جعبتى أية خلفية عنهما · وكنت كلما جلست من الآن مع « سيفيم » فى الفناء ، كنت لا أرى من الكتب الا الصور التى بها · فكنت أثير انتباهها الى انحناءة خط ، أو سمك شرطة · واذا سألتنى ، ماذا يعنى هذا ، وما مغزاه ، كنت أعدد لها امكانيتين ، وأدعها تختار لنفسها ما يروق لها · وجعلت أردد دائما قولى :

ـــ سوف أبدأ بالعمل فى المستقبل العاجل !

وشعرت لهنيهة أثناء نطقى بهذا القول ، وكأن ما أقوله سوف يتحقق فعلا · واستطردت :

ـــ الآن ! وقد استنارت أمام عينى السبل المؤدية للموضوع !

ولكن ما ان كدت أتلفظ بالجملة ، حتى صرت فى شك من أمرى · وأحسست بعد ذلك ، وكأنى سوف أكتب عن شىء مختلف تماما ، شىء لا علاقة له بقولى ، أو له علاقة بى ، ولكن من بعيد ، كأن يكون على سبيل المثال حول شىء حاضر » سيجبرنى على أن أشتغل بكل ما يدور حولى بشكل أشد ، يجب على عندئذ أن أعالج الأشياء بطريقة أخرى ، لأننى لا أستطيع أن أفر منها بسهولة ، وان كنت قد سألتها لقد تغير احساسى بالحياة ، لدرجة أنى خلت نفسى ، وكان بوسعى أن أسلم نفسى للامور التى تحيط بى فأضحت امارات العطف والرقة ـ التى تحملتها آنفا بغرض التأقلم ـ وان كنت فى الداخل كمن يضمد جراحه على نصل غمده ، أضحت هذه وتلك غير ذى بال عندى · فلم أقم لها وزنا · وغدوت أرد عليها بمثلها من واقع البداهة ، كما لو كانت ثمة امكانية ، لكى أزيل الحواجز بينى وبين الآخرين مع مرور الوقت ·

ان فكرة رحيلى فى وقت قريب كانت تملأ نفسى بالقلق وعدم الارتياح • ومع هذا فلم أكن لأتصور قط أننى سوف أمكث يوما واحدا بعد اليوم الذى حددته لرحيلى • وقد قمت منذ وقت بعيد بتحديد هذا اليوم فى تاريخ معين ، دون أن تكون هناك ضرورة ملحة لهذا • ربما لكى أؤكد بهذا فى نفسى على طبيعة الأمر الذى لا محيص عنه ، وهو رحيلى • وعلمت يقينا أنى أتشبث بهذا اليوم ، وأمسك بتلابيبه ، وكأنه بالنسبة لى بمثابة نقطة النضوج النهائية، وكأنه سيصرفنى عن ازالة الحواجز عن آخرها ، التى تمنعنى عن أن أظهر نفسى على علاتها • وفى هذا ما عدت أعرف ما اذا كنت قد أردت هذا •

ربما كان لمرضى دخل فى أننى لم أشعر فى داخلى بأية معارضة ، وكل ما كنت أحس به كان مجرد نوع دائم من الاثارة ، التى لا تشبه تلكم الاثارة فى شىء ، والتى كانت تتملكنا أنا و « تورجوت » و « سيفيم » أثناء أمسياتنا الطويلة المشتركة ، كلمة ، أو اشـــارة ، أو الطريقة التى يقـــدم بهـــا انسان لآخر الطعام ، كل هـــــذه الأشياء كانت كافية ، لأن تشعل فى نفسى مشـــــاعر العمق تلك ، حتى أنى كنت أغلق عينى ، وأســـمع قلبى وهـــو يرسل دقاته •

لقد أصبحت الآن لا أحتمل الحرارة • فكنت أشعر بالضـــنى ، كلما قطعت على قدمى جزءا ، مما كنت أسيره عدوا فى الماضى بغرض المتعة • فكنت أسير واجمة سابحة فى أفكارى • وازدادت قدراتى على تصور الأشياء • فكنت أتذكر تفاصيل أشياء لم أرها من قبل •• وأكثر ماكانت تنعم به نفسى ، هو أن أتصور بأنى واقفة فى الحديقة أمام منزل « انجن بك » •

وتصك مسامعى الأصوات التى تنبعث من الشاطىء وأحس بالنسيم العليل الذى يهب منه • وكنت أجلس هناك فى أوهامى وتخيلاتى . لأن الطريق كان مضنيا وطويلا •

عاد « تورجوت » الى البيت مع اشراقة الصبح • ودلف لساعته الى الحمام ؛ فأستحم وحلق ، وأضحى شكله الآن نشيطا • وتناولنا افطارنا - كالمعتاد - فى فناء المنزل • وعندما خفت « سيفيم » الى المطبخ - لهنيهة - أنشدنى « تورجوت » بقوله انه يود التحدث معى • ولم أكن لاتوقع منـــه

هذا ، لأننا كنا نتحاشى منذ تلكم الليلة أن نجلس سويا على انفراد ، كما لو كانت علاقتنا قد انتهت الى غير رجعة ٠

وسألنى « تورجوت » عما اذا كنت أستطيع ملاقاته فى نحو الثانية عشرة فوق « برج الجالاتا » ٠ وراعنى أنه يود أن يذهب الى « برج الجالاتا » بصفة خاصة ، ولكن لم يتبق لدى وقت كى أسأله عن السبب ، لأن « سيفيم » كانت قد عادت من المطبخ فى ذلك الوقت ، وأومأت اليه باشارة من يدى ، تنم عن أنى سوف آتى ٠

وخرج ثلاثتنا من المنزل ٠ ولكن ما لبثنا طويلا حتى افترقنا ٠ وقال « تورجوت » انه سيلحق بى فى محاضرة « انجن بك » ، ولكنه لم يفعل ، وعلى أى حال فلم أستطع أن أقف له على أثر ٠ وكان عدد الطلاب الموجودين بالمحاضرة أقل بكثير على غير العادة ٠ والسبب فى هذا هو قرب الامتحانات ونهاية الموسم الدراسى المرتقبة ٠ ومع هذا لاح على محيا « انجن بك » أن حبل أفكاره ينقطع عدة مرات ٠ فكان يقترب من النافذة ويرنو الى أسفل فى مسافات قصيرة ٠ ولما قربت المحاضرة من النهاية ، اشار الى « انجن بك » بأن أنتظره قليلا ٠ وراح يجيب على أسئلة بعض الطلاب ٠ ومـــا ان مضى الجميع الى حال سبيلهم ، حتى أخرج منديله ، وأخذ يمسح به على جبينه ، وقـــال :

— لقد صارت نهاية الموسم الدراسى بكل ماله وما عليه وشـــيكة قريبـــة !

ثم سألنى بعد ذلك عن موعد زيارتى المقبلة لهم ٠ واستطرد : بأننى لم أزر « بوستانجى » منذ وقت طويل ٠ فضلا عن أنى لم أتحدث معه فى شأن عملى منذ وقت مضى ٠ وضربنا موعد اللقاء ؛ ثم سرنا سويا بعد ذلك حتى محطة الحنطور ، وصعدنا فى عربة واحـــدة حملتنا الى « كاراكوى » ٠ ومن هناك أخذ « انجن بك » المعدية ، بينما جعلت أنا سمتى الى « بيرا » ٠ وكنت قبل هذا قد ضربت موعدا مع « أكسو » بأننى سوف أمر عليه فى المستشفى ، وآخذ منه الدواء الذى أعده لى ٠ وهنـــاك عرفونى ؛ ومن ثم استطعت أن أدخل الى حجرته ، دون أن يعترض سبيلى أحد ٠ ولما لم أجده

بالغرفة ، مكثت أنتظره لهنيهة ، وعندما عاد أخيرا ، ألفيت لديه وقتا كافيا ليشرح لى فيه موعد تناول الجرعات ٠

وفى البهو الطـــــويل ـ الذى سرت فيه ـ عنـــد خروجى من حجرة « اكسو » كان مرضى « العيادة الخارجية » وقوفا وقعودا ٠ وكانت الأمهات تهدهدن رضعهن المنتحبين فى حنو ، وهن يتخذن من الحائط خلفهن متكئا ٠ وكان هناك سيدان يجلسان كل منهما قبالة صاحبه ، وهما منهمكان فى لعب النرد ، وأحدهما يختلس بين الفينة والأخرى فرصة يحك فيها قشرة رأسه الجريح ٠ ورأيتهم جميعا ، كما كنت أراهم دائما ، عندما أكون فى عجلة من أمرى ٠ فأخذت أحاول المرور من أمامهم بسرعة ما استطعت ، ولكن دون أن أصرف عقلى الباطن عن أن يسجل تفاصيل على بعـــــد وقت أن أتذكرها فرأيتهم دون أن يرونى ٠ ولاحظت وجود « تورجــــوت » بينهم عنــــدما انسلخ عن الحائط ، وهب واقفا ، وراح يتتبع خطاى ، دون أن يلقى فى روع أحد أن كلا منا يعرف الآخر ، ولم ينبس ببنت شفه ، على الرغم من ركوبنا معا مصعد واحد ، حتى وصلنا الى أعلى البرج ٠ وكان جل من هناك من السائحين ٠ وكانت ثمة بضعة مناضد خالية ٠ ولكننا لم نجلس لساعتنا ، وانما عرجنا أولا الى المنصة التى تحيط البرج كله ٠ وأخذنا نرنو الى المدينة التى تقع أسفلنا ٠ ولم أكن صعدت الى هذا البرج من قبل ٠ وعندما رأيت المدينة جاثمة على الأرض تحت قدمى من على مسافة قصيرة ـ ولكن بمنأى عنها ، بدرجة تجعلنى أراها وكأنها مرسومة فوق أديم لوحة ـ عندما رأيت المدينة هكذا ، خامرنى شعور وكأنى أحلق فى أجواز الفضاء بعيدا عنها ٠ وشعرت بكدر وحزن يغشيان روحى ٠ وبادر « تورجوت » قائلا :

ـــ ان هذه المدينة ليست هى الريف !

ولاح من وقع نغماته ، وكأن الصورة لا تؤثر فيه بشىء ٠

فقلت :

بحسبى المدينة مستقرا ومقاما !

يخيل لى أننى كلما سأنطق بكلمة « مدينة » منذ الآن فصاعدا ، فلسوف

تمثل فى ذاكرتى تلكم المدينة قبل أى مدينة أخرى فى الدنيا · ودلفنا سويا الى الجزء المعد كمقهى · ولم يكن هذا المقهى من نوع تلك الحانات التى ألفنا زيارتها · وقدم لى « تورجوت » قائمة المشروبات بطريقة أثارت فى نفسى شعورا ، وكأنه سيتخذ قرارا هاما · وطلبت «جيلاتى » — وان كان لا ينبغى على أن آكل الجيلاتى لأسباب صحية — وطلب « تورجوت » هو الآخر « جيلاتى » ، ومعه زجاجة من شراب « الليكور » · وكان هذا كله يتم فى جدية بالغة ، حتى كدت أنفجر ضاحكة · وبدا لى أننا سنستغرق وقتا ، حتى نعود الى قضيتنا · وخامرنى شعور بأننا لن نصل الى غايتنا البتة ، وأننا ما أتينا الى هنا ، الا لنجلس ، ونزدرد « الجيلاتى » ببساطة ، وكأن هذا شيئا لن يتكرر أبدا ، وكأنه شيء يزداد ثقلا من لحظة لأخرى ، وسوف نذكره فيما بعد · وفجأة أوجست فى نفسى خيفة من أن يبدأ « تورجوت » ، ويضع حدا باترا لهذه الحالة ، وألا جلوس بعد اليوم هنا أبدا ، ولا ازدراد « للجيلاتى » ·

وحدج كل منا صاحبه · ولكن لم تكن هى تلكم النظرة التى كنا نتغامزها ، عندما كنا نتناوش فى دعابة متبادلة بهدف الاثارة ، وانما كانت نظرة مشهودة تحث العقل الباطن على أن يستيقظ ، ويسجل كل هذه التفصيلات التى لا يمكن للمرء أن ينساها · وأخذنا نأكل فى بطء أشد ، كما لو كان كل شيء يتعلق بدوام « الجيلاتى » التى تذوب فى أفواهنا وفى كأسينا ·
وقطع « تورجوت » حبل الصمت بقوله :

— سأرحل فى الغد ·

واذ هو يقول هذا ، راح ينحى الملعقة جانبا ، ولم أع ما قاله من أول وهلة ، ثم أردف :

— سأرحل الى بيتى ، هناك فى الشرق ·

— ولم الآن ؟ فالفصل الدراسى لم ينته بعد ؟

وحانت من « تورجوت » نظرة الى الوراء ؛ ثم اعتدل ، وأخذ يواصل :

— ان المدينة مليئة برجال المباحث · فلقد انتشروا فى كل شق من شقوقهـــا ·

وكنت فى دهشة كبيرة من الطريقة التى أخبرنى بها بأنه سوف يرحل ، كما لو كان هــذا أمرا لا ينبغى لامرىء أن يتفـــوه به ملء فيه ، فى غير ما حيطه · وأضاف :

— لست راغبا فى أن أدعهم يضربوننى ، دون أن أفعل شيئا حيال ذلك ·

— وما عساك أن تفعل ؟ !

— هذه المدينة ليست هى هذا البلد · انك تعرفين المدينة وما أخالك تعرفين البلد كلها ، والا لفهمت قولى · اننى أعيش منذ ثلاثة أعوام ؛ ومنذ وطئت قدماى المدينة ، ونحن لا نكف عن الكلام فيما عساه أن يقع لهذا البلد ، وماذا يمكن أن نفعل ، حتى تتغير الأمور وتتبدل · والثمرة الوحيدة التى جنيتها من جراء هذا ، هى أنهم وضعونى تحت مراقبتهم ، وأثاروا حولى الشكوك، ورصدوا كل تحركاتى وسكناتى · لقد سئمت كل هذا ، وضاقت نفسى به ذرعا · وليحمل هم المدينة الآن كل من لا يستطيع أن يعيش فى مكان آخر سواها · أما عنى _ فانى أستطيع الحياة فى مكان آخر · فلقد استطعته آنفا ، وأخالنى بمستطيعه مرة أخرى ·

— وماذا عن دراستك ؟
وأومأ « تورجوت »

— ما بودى أن أنتظرهم حتى يطردوننى · فلربما أجد وظيفة كمعلم فى مدرسة القرية · فقليل من الناس يرتضى هذا · ولكنى أستطيع هذا الآن ، ولو اعتقلونى فى عقر دارى ، فلسوف ينتهى كل شىء الى غير رجعة ·

ـــ ولكن فيم رحيلك فى الغد بعينه ؟ ؟

وكنت فى حيرة من أمرى ، حتى عز على نفسى أن أتخير الأسئلة المعقولة ٠

ـــ يا عزيزتى ، ان كل يوم أمكثه هنا ، انما هو يوم ضائع من عمرى٠ فبوسعهم كل يوم أن يربطوا بينى وبين شىء ، قد يؤدى بهم الى أن يعتقلونى ٠ فالموقف يزداد تفاقما ٠ وانى لأرى أن زمننا يسرع بنا الخطا عائدا الى « عهد عبد الحميد » (١) ٠

ـــ ولكنى أخال أنهم لا يستطيعون اعتقالك بمثل هذه البساطة لمجرد أنك تلتقى بأصدقاء لك !

ـــ لا ! انهم لا ينتظرون حتى يفعل المرء شيئا حقيقيا ٠ وحسبهم أن يتبادر الى ذهنهم أن انسانا ما بوسعه أن يفعل شيئا ٠ ولا أريد أن أدعهم يعتقلوننى لمجرد أمر بسيط ؛ طالما أنى أستطيع أن أفعل شيئا فى مكان آخر لا يفعله الا قليلون ٠

ودارت فى ذهنى صورة لـ « تورجوت » ، وهو فى احدى القرى التى تعرفت عليها من الصور ، ومن خلال النزهات القصيرة ٠ لقد رضيت لنفسى أن أعيش طوال هذه الشهور فى الأوهام ٠ وقد جد وقت ، كنت أود فيه أن أفر من « سيفيم » ، لئلا أعيش بجانب « تورجوت » ٠ ولكنى لم أسأل عن شىء ، وبقيت ٠ وعرفت أن هذا النوع الغريب من التوتر ، هو الذى أعاقنى عن أن أتخذ قرارا ٠ وعندما تعلمت أن أعيش مع هذا التوتر وأعايشه ، لم أجد فى نفسى رغبة فى القرار ٠ وشعرت بأنه من ضروريات حياتى أن أعيش مع « سيفيم » و « تورجوت » ٠

ولكن ! هل من الضرورى لهما أيضا أن يعيشا معى ؟ وحدثتنى نفسى فجأة بأن أصرف « تورجوت » عما هو مقدم عليه ، وأن أتضرع اليه ببساطة

---

(١) تقصد الكاتبة هنا « السلطان عبد الحميد الثانى » (١٩١٨/١٨٤٢) الذى تولى حكم البلاد من (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) ٠ وكان حكمه استبداديا ٠

ـ لو لم يجد معه الجدل ـ بأن يبقى بعض الوقت ، بأن يبقى على الأقل حتى أرحل أنانفسى ٠ ولكنى خجلت من نفسى ٠ فكم كنت أتمنى أن أرحـــل عن « سيفيم » و « تورجوت » اللذين يودعانى على المحطة ، ويلوحان لى ـ واللذان يستحلفانى فى اللحظة الأخيرة أن أبقى معهما أسبوعا آخر ، واللذان يقطعان على عهدا ، أثناء رحيلى الى بلد آخر حزينة ولكنى مصـــــممة ؛ ولن أقول لـ « تورجوت » كيف أنه قد فاجأنى برحيله ! وكم أتمنى ألا أنفصل عنه ٠ وقال « تورجوت » :

ـــ يؤسفنى عميق الأسف ٠٠٠

وكان يضع ذراعه بالقرب من ذراعى ـ كدأبه ـ حتى تعانق مابهما من زغب ؛ ثم استطرد :

ـــ أشعر بالأسف الشديد ، لأننى لا أستطيع أن أسألك المجىء معى ٠

ـــ ثم ماذا عن « سيفيم » ؟

ولم أكن لأتصور أنى ملقية اليه بسؤال كهذا ٠ ولم تتغير تقاطيع وجه « تورجوت » ٠ وكنت أتوقع أنه سوف يرفع حاجبيه على الأقل تعبيرا عن الدهشـــة ٠

ـــ تسألييننى : ثم ماذا عن « سيفيم » ؟

واشعل « تورجوت » لفافة تبغ ؛ ثم استطرد :

ـــ ربما تلحق بى بعد رحيلى ٠ ولكنى لا أدرى اذا كانت ستستطيع على هذا الأمر صبرا ٠ فلقد عاشت هنا وقتا طويلا ٠

ـــ وهل ستلحق بك الى حيث أنت ذاهب ؟

وعجبت من أمرى لاصرارى ، وطول نفسى ، والحاحى الشديد فى أن أصل الى القرار فى هذه النقطة بالذات ٠ وكذلك الآن ، فى الوقت الذى لم يعد فيه لاصرارى من جدوى ، اللهم ، سوى أن نرجع الماضى فى ظل ضوء آخر ٠

وأجاب « تورجوت » :

ـــ من المحتمل ! ولكن على أى حال سوف تستغرق الترتيبات وقتا

طويلا · فلزاما على أن أبحث أولا عن وظيفة ؛ ثم آخذ بعد ذلك في اجراء اتصالات مع الرفاق الآخرين المبعثرين في كل شق في الشرق · وبعد أن تتم هذه الأشياء جميعها ،سوف أناشد « سيفيم » اللحاق بي ·

وقال هذه الجملة الأخيرة بطريقة توحي للسامع بأن هذه الفكرة لم تخطر على باله الا الآن

وشعرت بمرارة شديدة تجتاح جوانبي على حين غـــرة · ودفعتني مرارتي الى أن أفعـــل شـــيئا فيه نوع من الجنون والعبث ، شيئا غير لائق ، ضـــد كل الجراح التي أحسست بهـا في تلك اللحظة ؛ فصرخت في « تورجوت » قائلة :

ـــ أحبك ! وكأني أقول : أمقتك من كل قلبي !

وبدا عليه أنه لم يسمع هذا القول ، ولكن نظرته المريرة الى أوحت لي العكس · وكان خليقا بي أن آسى على نفسي ، لقولتي هذه ، ولكني لم أشعر من نفسي تبكيتا أو تعنيفا · لم أحس بهذا حتى الآن · وأخذت المرارة في الاندثار رويدا رويدا · وكلما زادت اندثارا ، صرت أنا أكثر حزنا ·

ولم يحر « تورجوت » قولا حتى ذلك الوقت · ورحت أنتظر ، لعله يصيح في وجهي ، أو يسبني ، أو يرميني بالكذب في أقل تقدير · ولما لم يقل شيئا ، اضطررت أنا للمبادرة · فقلت :

ـــ لقد كذبت عليك ! ان ما قلته ليس بصحيح · وكل ما في الأمر أني لا أريدك تغادر المدينة أمام عيني · وما أسعدني عندما أراك تقف بجانب قطاري وتلوح لي !

فقال « تورجوت » متسرعا :

ـــ هلم بنا ! لننصرف الآن !

وألقى بقطعتين من الأوراق المالية على المنضدة ، ونهضنا معا في وقت واحد · وجعلنا سمتنا الى المصعد ·

وعندما أخذ المصعد فى الهبوط ، طوقنى « تورجوت » بذراعيه وهـو يشد على ساعدى ٠ ولا زال قابضا عليه ، الى أن دلفنا الى الشارع ٠

وأخذنا نسير فى الشارع ٠٠ وسرنا دون أن ينبس أحدنا ببنت شـــفه ٠ وأحسست بشىء غريب فى هذا السير ٠ وما فتىء الناس يتفادوننا عـلى الأرصفة ٠

وكان « تورجوت » لا يزال شادا على ساعدى ، وكأننا قد جبلنا على هذا الوضع ، أو كأن لم تكن ثمة امكانية أخرى سوى أن نســـير هكذا ، وكأن يد « تورجوت » جمدت وتصلدت على ساعدى ٠ ومع هذا ، فقد كان شـعور مختلفا عن ذى قبل ، يوم أن كانت أقل لمسة منه تولد فى نفسى الاثارة ٠ ولما أضنانى السير ، وأخذت أجر قدماى من التعب ، أوقف « تورجوت » لنـــا تاكسى ٠

وفتحت لنا « سيفيم » الباب ، وكان وجهها شاحبا ومنقبض الأســارير، وكأنما قد سكبت دموعها أنهارا فى نحيب متصل ٠ والآن فقط ، رفع «تورجوت» يده من على ذراعى ٠

وعندما دلفت الى حجرتى ، وحجـــرة « سيفيم » المشتركة ، سمعت «تورجوت » ينمى اليها ما معناه بأنه قد أحاطنى بكل شىء علما ٠ وأضاف يقول انه رأى أنه من الأصوب أن يبلغنى بكل شىء ٠ فلقد أزفت الآزفة ٠

ووضعت الكتب التى كنت أحملها معى طوال هذا الوقت المنصرم الى الكتب الأخرى ٠ وخيل لى لهنيهة أن أحدا قد نكش فى حاجياتى ٠

ولم أستطع أن أفهم بم ردت « ســـيفيم » عليه ٠ ولكن لاح لى من نغمات صوتها ما أفهمنى بأنها لا تزال غير موافقة على اخباره اياى بكل شىء ٠

وأخذت أساعد « سيفيم » بعد ذلك فى طهى الطعام ٠ وتركتنى أساعدها، دون أن تبدى احتجاجا ٠ وفى هذه الأثناء راح « تورجوت » يحزم أمتعتـه، ويشد رحاله ٠ وأصبت بدوار ، حتى أنى خلت أن كل ما يدور حولى انما هو

غير حقيقى · وعلى الرغم من هذا ، شعرت ، وكأننى استيقظت فجأة من سبات ران على لوقت طويل ·· أو وكأننى سأستوعب كل خطوة أخطوها ، وكل حركة أقوم بها في هذه الحجرة ، التى طالما انست بها روحى ، بطريقة جديدة · فأخذت أراقب يدى وهى تمتد فى حرية لتلتقط السكاكين والشوك، أو وهى تخلص الخضر من قشورها ، أو وهى تضع شيئا تحت صنبور الماء · وكانت يدى تؤدى عملها بلا تباطؤ أو ارتباك ، وكأنها قد تعودت كثيرا أن تفعل هذا من قبل ·

وشعرت بدهشة كبرى ، لأنى أحسست أن يدى تعلمت شيئا فى الحلم عبر كل هذه المراقبة التي لم اشعر بها ، وهى تنفذه الآن، حسب ما يتطلبه الموقف منها ·

وتساءلت : ماذا أرانى سأتصرف ككل ، لو كان « تورجوت » سألنى الذهاب معه · ترى : هل كنت سألقى نفس المصير ، فأشعر فجأة باليقظة ، فأرى نفسى أنى قد تصرفت تماما ، حسبما يقتضى الموقف !!

لقد تملكتنى رغبة جامحة فى السؤال عن كل صغيرة وكبيرة · على سبيل المثال فى السؤال عن : لماذا لم يعد أبوا « سيفيم » من « بورصة » الى الآن ؟·· وشعرت كذلك برغبة نفسى ان تسأل : أين كانت « سيفيم » و « تورجوت » منذ فترة قصيرة — في كل مساء ؟ وماذا يفعلان عندما لا أكون معهما ؟ ومع من يلتقى « تورجوت » ؟ ؟ ·· وأين يلتقون ؟ وعم يتحدثون بالتفصيل ؟ وما الذى ينوون فعله على وجه التحديد ؟ وبأى الوسائل سيحاولون تحقيق ما يريدون تحقيقه ؟ ؟

لقد أردت أن أتأكد من كل ما حسبته افتراضا ووهما · وأردت أن أعرف كل شيء عن « تورجوت » — أو عن الوقت الذى رأيته فيه فى أقل تقدير — وان كنت لن أراه بعد اليوم ثانية ، لقد أردت أن أعيد تركيب كل الأيام كرة أخرى ، ليست الأيام التى تربطنى بهم وحدها ، وانما كل الأيام · كل لحظة يمكن استعادتها · وطالما بدأت أعلم شيئا ، أردت أن يكون علمى به علما دقيقا · وسوف أسأل « سيفيم » فى كل يوم من الأيام التى سأمكثها هنا ، سوف ألقى اليها بسؤال أو بأسئلة كثيرة سأظل أسأل ، حتى أجد أن ليس المسئول بأعلم من السائل ·

وعندما جلسنا لنتناول الطعام ، أنشدت « سيفيم » :

ـ فى الحقيقة أننى لم أكن أود أن يقول له « تورجوت » شيئا ٠

ونظرت أمامى فى وجوم ، وعيناى تغالبان الدمع ٠ وقد أهاننى ما رأيته منهما ، من أنهما يستبعداننى من دائرتهما من جديد ٠ وبدا لى منهما أنهما لم يفكرا قط فى امكانية ادخالى الى عالمهما الذى يعيشانه وأخذت أفهم رويدا رويدا أن جهلى التام بحياتهما كان نوعا من الحماية لهما ٠ ومن يدرى ! ربما كان الناس سيسألوننى عن شىء ما ٠ ومن يدرى أيضا ؟ كم كانوا سيلحون على بالسؤال ، دون أن الاحظ ما يريدون منى ٠ كان من الممكن الا تخوننى نفسى بنظرة أو باشارة ٠ فالأشياء التى اهتم بها لا تثير الشبهة بأى طريق ٠ انها مجرد أشياء تاريخية ، أشياء غريبة ، وأمور خاصة ، أما كونى أعرف كاتبين ، لم يكن هذا فى حد ذاته دليلا على انى أعلم شيئا عما يدور فى المدينة ٠

وأخذت تداعب رأسى لفترة من الزمن فكرة أن « سيفيم » قد أخذت تهتم بى من جانبها ، لأنها تقدرنى حسن التقدير ٠ ربما لم يكن ليهمها أن تتعلم الألمانية بالسرعة الممكنة ٠ أو أنها قد نصبتنى فى هذه الوظيفة ، بعد أن وثقت وشائج المعرفة بينى وبينها ٠٠٠ وهذا هو الذى بدا لى أكثر احتمالا٠ ولعبت دورى حسب رغبتى تماما ، ولم ألق بأسئلة ، وتأقلمت ، وقبلت أن أكون تحت امرة قواعد السلوك اليومى ، والتى عرفتها حقيقة كما هى ، ولكنى لم أعرف الى أى لعبة تنتمى ٠ وقلت :

ـ عندما أعود مرة أخرى ، سوف أزوركما !

فردت « سيفيم » :

ـ أجل ! هذا واجب عليك !

وعقب « تورجوت » أيضا :

ـ بلا شك يجب أن تزورينا ! فسوف تتعرفين على الريف أيضا !

ولم نشعر نحن الثلاثة بشهية كبرى للطعام · وسرعان ما أخذنا ندخن ثم نهضت من مكانى ، ورفعت ما على المائدة من أطباق · وشرعت فى صنع القهوة ، وأشـــعرتنى « سيفيم » الآن بأننى أنتمى اليهما الآن فى الوقت الذى أخذنا فيه فى الانفصال · وشعرت فجأة بفيض من السعادة يغمرنى ، لأننى عرفت « سيفيم » و « تورجوت » ·

وكنت أعلم أن كلا منا يحب صاحبه بطريقته الخاصة · وندت عنى ضحكة ، وأخرجت لعبة الورق ، وضحك كذلك كل من « سيفيم وتورجوت » · ثم أخذنا نلعب لعبة الورق · واذا بشخص يتسلق جدار الدار ، ويقفز الى الفناء · ثم يهمس الى « تورجوت » بشىء · ونهضنا جميعا فى وقت واحد · ونحينا لعبـــة الورق جانبا · ووقفنـــا فى تراص فى هيئة حلقة · وعانق «تورجوت» «سيفيم» أولا ، ثم لثمها وقبلها ؛ ثم عانقنى أنا الأخرى ، وطبع على قبلة الوداع · وكانت امتعته توجد خلف الباب · وقلنا له فى نفس واحد، عندما استدار وراءه ، وودعنا بصيغة السلام المعهودة :

ــ اذهب ضاحكا الى حيث أنت ذاهب !!

ان الثورات التى انضم اليها «البيكتاشيون» ــ أو بالأحرى ــ التى دبرها وحاكها « البيكتاشيون » ــ فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانت قائمة على أساس اجتماعى ، وكانت ذات صلة بالتحـــالف ضد « التركمـــان الأناضوليين » · وفى القرن التاسع عشر دارت عليهم الدائرة لأول مرة فى تاريخهم ، عندما أثاروا حمية الانكشاريين ــ الذين ما انفكوا يقلبون قدر الحساء ــ فى ثورتهم العظيمة الأخيرة · ولم يلبث السلطان المصلح « محمود الثانى » أن اشتد ساعده ، مما أعانه على دك معاقل الانكشاريين · وأقصى البيكتاشيون عن المدينة ، وخربت كل ديارهم التى شيدوها منذ ستين عاما خلت · واستبدل بخلفاء الحاج « بيكتاش » مشايخ « النقشبندية » ، وهم أتباع الطريقة السنية · ولكن بعد وفاة « السلطان محمود » ، أسست فى المدينة تكايا جديدة « للبيكتاشيين » ·

وفى عام ١٩١٩ التقى مؤسس الجمهورية (١) مع « جلبى » ـ زعيم العلويين الأناضوليين وذوى الرؤوس الحمر ـ الذى احتفىبمقدمه ، وقابله على الدرجات الخمس · ويقال ان هناك مفاوضات أجريت بينه ، وبين الزعيم ، وبين أمير « البيكتاشيين المترهبنين » · وبعد ذلك بعام واحد دخل الزعيم البرلمان نائبا عن الدائرة التى يتبعها · ولكن سرعان ما أجبره المرض على التخلى عن هذا العمل · ولم تمض بعد ذلك خمسة أعوام حتى صدر «فرمان» بحل كل الطرق الصوفية فى البلاد · وكان الشعار السائد آنذاك هو أن ليس ثمة ضرورة تدعو الى وجود الطرق الصوفية فى بلد ينفصل فيه الدين عن السياسة ؛ فضلا عن أن هذا الفرمان يعتبر خطوة نحو تدعيم الوحدة الوطنية، والتى ليس من صالحها خروج مجموعات مختلفة وطبقات وطوائف متعددة عن نظام الدولة · وبهذا انتهت « البيكتاشية » رسميا فى البلاد · وأما ما حدث بعد ذلك ، فانه من الصعب أن يتوصل اليه أحد · وفكرت بعض الوقت فى متابعة هذه الآثار الشائكة التى تفرقت بها السبل ، وان أكتب عملا مستقلا حولها · وأن أرحل الى بلد آخر · وأن أبحث هناك عما لم يكشف عنه النقاب· ربما يعلمون فى مصر أو فى ألبانيا أكثر مما نعلم نحن عن الحياة « فى الخفاء » · ولكنى أقلعت ، فلماذا أنفق جهدى وعصارة كدى فى البحث عن منظمة يبدو من أمرها أنه قد ذهب ريحها ؟ أم يجب على حقيقة أن أبحث عنها تحت اسم آخر ، وفى دوائر أخرى ؟·· سوف أجوب المادة التى جمعتها كلها مرة ثانية ، وربما أكتب عملا عن الأدب ·

افتحـــوا الأبواب ·
قبل أن يشنقنى (حيدر باشا)
افتحـوا الأبواب ،
سنذهبالى الشـــاه
قبل أن يحين يوم الاعـدام
افتحـوا الأبواب ،
سنذهب الى الشـــاه ·

لقد عادت تلكم القصائد تعجبنى من جديد · وكلما تعمقت فى قراءتها،

---

(١) ويقصد به هنا مصطفى كمال أتاتورك ·

ازدادت حسنا فى ناظرى ، وان كانت قد نبتت أفكارها بادىء ذى بدء تحت حبل المقصلة ٠

أما عن « سهيلة » ، فلم يصلنى عنها أى خبر الى الآن ٠ ولا شك فى أنه شىء يدعو للسخرية ، أن نعيش طيلة هذا الوقت فى مدينة واحدة ، دون أن نلتقى ! أجل ! انه لشىء مضحك ٠ لأنه كان من الممكن أن تتجه الأمور وجهة أخرى تماما ٠

لسوف أصحو من غفوتى يوما ، وأرى أن كل هـذا لم يعد يعنينى فى شىء بطريقة غير مباشرة — على الأقل — ولسوف أذكر «تورجوت» الذى يعيش فى مكان ما فى أعماق الأناضول ، ولقد يتملكنى شعور مثير ٠

فسوف أتحرق شوقا اليها ، وأقول فى نفسى ، لقد كان حريا بى أن أعود اليهم مرة أخرى منذ زمن طويل ، وكم من السنين انقضت منذ أن ودعتهم حتى اليوم ؟ وسأقول فى نفسى أن الأمر برمته مسألة وقت ، طالما أنى أردت ألا أنسى التحدث باللغة ٠ وربما لا أستطيع أن أعود اليهم مرة ثانية ! ربما تغلق الحدود ، وتتورط البلاد فى حرب أهلية !٠ وحقيقة الأمر انه لم يرد على تصورى أن أفكر فقط فى أنه بالامكان تغيير كل شىء مرة واحدة ، وأنه قد لا يكون بامكانى التعرف على البلاد مرة أخرى ٠

وربما يأتى « أكسو » ليزورنى ذات مرة ! وحاولت أن أتصور ترى ما سيكون انطباعه عن هذا البلد الآخر الذى سأعود اليه فى القريب ، وندا جبينى خجلا لأننى مدركة أنهم قد يستقبلونه بنصف مروءة وترحاب ، ما استقبلونى به يوم وطئت قدماى هذه المدينة ٠

لم أستطع أن أحتمل التفكير فى أن كل ما حدث لى لم يعد الا سرابا ٠ فالفراق الوشيك قد أفلت منى عقالى ، حتى بدأت أشعر بالغربة من جديد ٠ وان كان شعورى اتخذ طابعا من نوع آخر ، كما لو أن الأشياء تتفتت تحت قبضة يدى ٠

لقد أتيت الى هنا لكى أنهى دراستى ، ولكى أتمرن فيما تعلمت آنفـا ،

وكلما سألت نفسى ما الذى انجلى عنه هذا الأمر ، لا أجد الا النذر اليسير ٠ لقد قرأت كتبا كثيرة ، وتعلمت التحدث باللغة ، وتأملت معالم آثار قديمة ، وتعرفت على المدينة ، وعشت مع أناسها ، وكونت معارف وعلاقات ٠ لقد نظرت حولى ، ولم أبد أية معارضة ، وواريت ملكة النقد لدى ، سائرة على درب التأقلم ، وكانت لى خبراتى التى باءت بالفشل ٠

لقد تركت نفسى للظروف ، وأسلمت نفسى لعنان الهوى ، وأهملت أن أعرف ما حولى حق المعرفة ، لقد أمعنت النظر فى الظواهر وحدها ، ولم أفكر قط فى جواهر الأشياء ، لقد تعلمت التعبير عن المشاعر بوضوح ، ولم أعارض قط فى أن أعيش حياة الآخرين ٠

لقد أحببت « أكسو » ، وأحببت « تورجوت » ، وأحببت « سيفيم » ، و « أيتين » ، و « تاتارية » ، وأحببت كذلك « انجن بك » ٠

لقد كانت هذه تجربة حسية عشتها بنفسى ٠ سوف أستنشق أريجهم الطيب ، وأعيش على ذكراهم العطرة ، وان شق على أن أحدد معالم وجوههم ، اننى لم أتعود على أى حال أن أنكأ الجروح ، وأشكو الآلام ٠ اننى أخمد نار جروحى وآلامى فى غضبى واستيائى وتقززى ، واعتلال مزاجى ٠ واستهوتنى نفسى الى أن أنسج كل ما مضى فى ثوب الأقاصيص والحكايات ٠ بحقك يارب : لو قال لى انسان أنى بلغت من المحبة لهم ما يجعلنى أجهش بالبكاء ، ما كنت عرفت يارب ، عما يتحدث ٠

وما انفككت أتساءل الى أى مدى يستطيع المرء هنا أن يبلغ الكثير بأقل القليل ، عندما أتذكر البوادى والبرارى الممتدة فى قلب البلاد ، كلما تذكرت الجبن الأبيض والزيتون والخبز ٠ وما عدا هذا كله ، فلم أكن لأتذكره الا عند الضرورة ، ولكن متى أحس المرء بهذه الضرورة ٠ وفى مثل هذه اللحظات فان ضرورة الحصول على تذكرة سفر بالأوتوبيس تغرقنى فى بحر من الاضطراب ٠ وقلت : هذه المدينة ؟ وعرفت أن المرء لن ينتهى بالرحيل عنها الى القرى ٠

وكان لزاما على أن أفكر فى الكثيرين الذين عاشوا بها ، والذين

لم يستطيعوا أن يعيشوا فى أى مكان آخر سواها ، ولن يستطيعوا هذا كما يزعمون • وقلت لنفسى انهم ربما على صواب فيما زعموا ، ولن ينتهى العالم برحيل امرىء منها •

تواري الظلال فى الشمس ••• الفنــاء •••

بعد أن وصلت الطيور بقيادة « طائر الهدهد » الى الطريق المؤدى الى طائر « السيمورج » عبر وادى الطلب ، وادى العشق ، وادى المعرفة ، وادى الاستغناء ، وادى التوحيد ، وادى الحيرة ، وادى الزهد ، وادى النسيان ، وادى الصم والبكم والفنــاء ، والذى تورات فيه مئات الآلاف من الظلال أمام شمس واحدة • لقد وصلوا الى عرش السيمورج » • ولقى كثير منهم حتفه فى الطريق ، ولم يدرك الهدف الا ثلاثون منهم • ولما أذن لهم بالمثول بين يديه ، وجلسوا على وسادة القرب ، تعرفوا من خلال انعكاس ضوئهم على أنفسهم ، أنهم هم السيمورج ذاته الذى تمثل فى ثلاثين طائرا • فكلما أبصروا « السيمورج » أبصروا أنفسهم • وكلما أبصروا أنفسهم ، أبصروا « السيمورج » • واذا أبصر كل منهما الآخر فى نفس الوقت ، فلا يرى الا « سيمورجا » واحدا ، حيث تواروا فيه واتحدوا به • وهكذا توارى الظل فى الشمس ، وقضى الأمر • ولكن الموت أصاب كلا الفريقين : من أدركتهم المنية فى الطريق ، وكذلك من وصلوا الى الهدف • ولو بعثت الطيور التى فنيت هى نفسها بعد مئات الآلاف من الأجيال ، لكى تعود الى الحياة بعد الفناء فلن يكون هذا الا بمثابة تأكيد لأمور غيبية مبهمة • لأن تلك أمور تعلو قدرة التصور ، ولأن اللغة تعجز عن وصف هذا الحدث •

لقد خرج « تورجوت » لقضاء أمر ما ، وانى أنا الأخرى أشعر بالحاجة لأن أفعل شيئا • أود أن أحدد موضوع دراستى ، وأن أبدأ عملى بصــورة قاطعة • فأخذت أراجع كل الاحتمالات الممكنة مرة أخرى • ثم فكرت فى بحث العلاقة بين « الصاحب والقــرين » ، وكذلك الثــراء الذى وجد فى أدب « البيكتاشيين » ، ثم أخذت أقرأ بعد ذلك لشعراء البيكتاشيين السبعة العظام• وخططت أسماءهم بقلم جاف على صفحات الكتاب الذى معى ذى الورق الخشن، لقد كرسوا كل جهدهم من أجل فكرتهم عن « السيمورج » ، وربمــا قد أحسوا دوما كأنهم هو ، وأنه قد يكون فى هذا الأمر خير لهم • ولكن

هل كان فى هذا الأمر خيرهم حقيقة ؟؟ هل أصابوا شيئا من المعرفة ؟ عندما أوشك الأمر على النهاية لقد أصبت بدوار من كثرة التفاسير التى أوردتها هذه الرواية ٠

أوه ! يا « سيمورج » أنت فى كل ذات ، وأنت نفسك لا صورة لك : أم أن لك اسما دون أن تكون لك هيئة ؟ شأنك فى هذا شأن العنقاء الزمردية ٠ أم أنت ضوء روحى بلا جسد وهو ما اهتدى اليه فكرهم أنفسهم ، وسموا به الى العلا ، ساجدين أمام عظمة شأنك لكى يموتوا ٠

لقد كان « السيمورج » لدى « البير سلطان أبدال » أكثر تجسيما ٠ وكان الشاه « تاه ماسب » ابن « الشاه اسماعيل الصفوى » هو الذى أراد أن يذهب اليه ، هناك فى الشرق ، هناك بعيدا جدا فى الشرق ، أبعد مما ذهب اليه « تورجوت » وورد فى احدى قصائد « أبدال » هذا ، أنهم كانوا ثلاثة وسبعين ، ثلاثة وسبعون هم الذين جاهدوا من أجل الشاه ، والذين يمموا وجههم شطره ٠ وربما لم يتبق منهم أيضا سوى ثلاثين ٠ غير أنهم لم يدركوا هدفهم ٠

وشنق « البير سلطان أبدال » فى « سيواز » بايعاز من « حيدر باشا » ، بعد أن أنشد أغانيه وترانيمه ـ هذا لو سلمنا بصحة الأسطورة التى تقول أنه نزل من على حبل المقصلة مرة أخرى ، وسمح له بالرحيل الى خراسان ٠ ويبدو أنه روع مطارديه عندما قال للقنطرة الممدودة عبر نهر « قيزليرماك » : أقدمى ! فما لبثت القنطرة أن سقطت فى النهر ٠ ويقال أن سلطان « أبدال » دفن « بأردبيل » (١) ـ وهى مقر الشاه ، وهذا ما يتطابق مع اقامة نصب لأحد الفرسان ، لو كان للمرء أن يشيد مثل هذه النصب فى هذا المكان وفى ذلك الوقت ٠ كما يقال ان « حيدر باشا » أطلق سراح « بير سلطان » ، الذى كان تلميذه يوما ، عندما يفرغ من نظم ثلاث قصائد على الأقل ، دون أن يذكر فيهم اسم الشاه ٠

وغنى عن البيان أن اسم الشاه ورد فى كل مقطوعة من أبيات هذه القصائد الثلاث :

---

(١) مدينة فى ايران ٠

قلبى يهفو الى التحليق الى قصر الشاه
وروحى ترنو التطيب من مسك « على »
ان « عليـــا » هـــو أمامى
فبحق الاثنى عشر اماما !
افتحوا الأبواب لندلف الى الشاه !

ركبت الناقلة ، وكانت سمتى الى « بوسطانجى » (١) ، كى أبحث أمورى مع « انجن بك » مرة أخرى · وكان عليه أن يحسم الأمر هذه المرة ، وألا يرفض ما يستقر عليه اختيارى من موضوع ، بل عليه أن يعضدنى ، ويشحذ همتى فى هذا القرار الذى اتخذته · ولكنه لم يعلق على أى واحد من اقتراحاتى على وجه الدقة · وكانت تعليقاته قليلة كليلة · وكان كثيرا ما يصرفنا الى موضوع آخر ، كأن يقول أثناء حديثى ، اننا ننتظر صيفا قائظا · وكنت آمل أن أعجل باختيارى الموضوع فى وجوده ، وأن أتفق معه على خطة الرسالة ، وطريقة تنفيذها ·

وخرجت « تاتارية » لوقت قصير من المنزل · ولم يعوقها الحمل عن هذا ـ على خلاف ما توقعت · ولكنها كانت تشكو من دوار يصيبها ، وضعف مستمر لم تضعه فى حسبانها · وسرعان ما استأذنتنى لتدخل ، كى تتمدد قليلا قبل الطعام · وقالت لى من تحت عينيها المتورمتين أننى يمكننى أن أدخل اليها دون ما حرج ، عندما أفرغ من الحديث مع « انجن بك » ·

وتحدثت مع « انجن بك » حول « البير سلطان أبدال » · ولفت نظرى الى أن أضع فى الاعتبار قصائده التربوية ·

ـ وهل تعتقد أن عملا حول « البير سلطان أبدال » يمكن أن يكون هنا له أهميتـــه ؟ ·

ولم أبغ من وراء هذا السؤال شيئا سوى أن أستدرجه الى الموافقة ـ ولو بغتة ـ فأجـــاب :

---

(١) أحد أحياء استانبول الأسيوية ·

_ هذا يتوقف قبل كل شىء على الطريقة التى ستعالجين بها الموضوع. فلدينا هنا بضعة أعمال تدور جميعها حول « البير سلطان ابدال » . كما أن شهرته بدأت تنفذ الى مدارك الناس ، فاشتغلوا به . واذا ما وفقت الى الاهتداء الى كشف جوانب جديدة فيه ...

ومسح « انجن بك » على جبينه بمنديله المطبق . وقد لفحته الشمس ؛ فأخذ يزحزح مقعده قليلا ناحية الظل . ولم يكن الشاطىء يبعث الينا بلغطه وضوضائه كالمعتاد . ويبدو أن الحرارة القائظة قد منعت الأطفال ومعهم أمهاتهم وحاضناتهم من البقاء ، وقالت لى « تاتارية » :

_ « ان ابننا مع السيدة العجوز فى المطبخ . وهو الآن يمر بمرحلة نمو صعبة . وليس من السهل أن نثنيه عن هذا . وبعد قليل عندما ينسى عناده ، سوف نراه » .

وعقبت على قول « انجن بك » :

_ حسنا ! اكتشف جوانب جديدة فيه ؟ ألم يمت كغيره ؟

وحدجنى « انجن بك » فى استغراب ، وبحاجبين مشدودين الى أعلى وسفهت نفسى لما بدا على محياى من سمات الغضب . وتدارك « انجن بك » الموقف بقوله :

_ حمدا لله أن أوشك الفصل الدراسى على الانتهاء !

انى لجد سعيد . فالقلاقل تزداد من يوم الى يوم . وقدم لى لفافة تبغ. وأخذنا ندخن فترة من الوقت ، فننفث الدخان فى فراغ أمامنا ، وقد لفنا الصمت .

وقطع « انجن بك » هذا السكوت بقوله :

_ ما عليك الا أن تضعى اللبنة الأولى ، وسترين بعد ذلك أن كل شىء يسير بين يديك فى يسر وسهولة ، بمجرد أن تكتبى الجمل الأولى . ستجدين

نفسك تكتبين وتكتبين ؛ حتى تملئى أكواما بأكملها من الورق · ولســوف تعجبين من أمر نفسك · وتقولين : من أين يأتينى كل هذا الوحى ؟

ووقعت نغمات صوته على مسامعى وقع من يريد أن يواسينى ، ويطيب خاطرى من أجل شيء جلل · فقلت فى انكسار وذلة :

ـ أرجو هذا ! أرجو أن تأتينى هذه الحالة التى تتحدث عنها فى وقت قريب · فلم أعد أطيق على نفسى صبرا ·

وانتصبت واقفة لأدخل الى المنزل · وباغتنى « انجن بك » :

ـ ألا تبقين معنا حتى الطعام ؟!

وكان قد أخذ يقلب صفحات جريدة معه · وهززت منكبى ، وكنت قد نويت حقيقة أن أعود أدراجى ·

وعندما دلفت الى الحجرة التى تتمدد فيها « تاتارية » فوق الأريكة ، جعلت أنشــد :

أتصيرين حقــا حفنــة من ذرة بيضــاء
تنتثرين عــلى الأرض حبــة حبــة !
فمــا بالك ان صــــرت دجــاجة
تلتقطك من على الأرض حبــة حبــة ؟

وكانت مستلقية بنصفها العلوى ، ورأسها فى وضع مائل ، كطائر يرهف بأذنيه ، كى يسترق سمع طائر آخر ·

ثم أنشدت مجيبة :

أتصــيرين دجــاجة وديعــة حــلوة
تلتقط من على الأرض حبــة حبــة
فمــا بالك ان صــرت صــقرا
يحزمك بين مخلبيــه محلقــا فى السماء ·

وأفسحت لى مكانا للجلوس بجانبها ، وجلست اليها على الأريكة ، ثم سألتنى :

ـ هل استقر رأيك على « البير سلطان أبدال » ؟

فأجبت « بنعم » مرات متتابعة ، لكى أؤكد هذا لنفسى ، وأشحذ همتى أنا الأخرى ٠

ثم راحت تقـــول :

اننى لجد سعيدة بك ، أن عدت لقراءة القصائد ولكن عليك أن تحفظى ديوانه عن ظهر قلب ٠

ـ وهل حفظى لديوانه عن ظهر قلب ، ســوف يعود على بالنفع ؟

ـ بكل تأكيـــد !

وشدت على يدى ٠ وشرعت كعادتها تتحدث عن « أكسو » وأخذت تقول عنه أنه زوج صالح ٠ وأغربت أنا فى الضحك ، لأنى أدركت المعنى البعيد الذى ترمى اليــه « تاتارية » ٠ ولكنى تذكرت أنه كان من المستحيل عند « العلويين » أن يتزوج المرء صاحبته المختارة ـ حسب عاداتهم ـ ٠ وأضافت تقول :

ـ ان السعادة سوف تورفك بظلالها ، لو أقدمت على هذه الخطوة ٠

وأحسست بأن العرق ينضح من يديها ٠ ثم أخذت أنشد :

أتصـــــيرين حقـــا عاصـــفة ومطـــرا
وتعــــــــــوقين مســـــــيرتى
فمـــا بالك لو صـــرت أنا عـــزرائيل
فأقبض روحـــك الى !

وأطلقت « تاتارية » يدى ٠ ثم اعتــــدلت فى جلستها ٠ وأجابت :

أســــتصيرين حقـــا ملك المـــوت
وتودين قبض روحى اليـــــك

فمـــا بالك لو صـــرت أنا عبـدا من
عبـــــاد الله الصــــــالحين
تواقــــا لرؤيـــــة جنـــــاته

وانحنيت فى تكلف مصطنع ، وقلت أخيـــرا :

أستصيرين عبدا من عبـــاد الله الصالحين
تواقـــا لرؤيـــة جنـــــــاته
فلتـدع « البير سلطان » يعثر على أستاذه ،
ثـــم ندخـــل فى صــــحبة ســـويا !

وما كان منى الا أن بقيت انتظارا للطعام ٠ ولم نكن نشعر بجـــوع حقيقى ٠ وأخذ كل منا يؤكد أمام صاحبه ، كيف أنه يشعر بالتعب والاجهاد ٠ وكان « انجن بك » « وتاتارية » يحاولان منعى من الانصراف ٠ وتلك كانت رغبتى فى الواقع ٠ وأخيرا رحلت مع شمس الأصيل ٠

وعندما أقبلت نحو المدينة « بالمعدية » التى تمخر عباب الماء ، لاحت لى فى الأفق بجمالها الأخاذ ، حتى ملكت على لبى ٠ فكانت شمس الأصيل ترسل اليها ألسنة من اللهيب ، تنبعث من زجاج النوافذ ، وأسقف المساجد المعدنية ٠ وكانت صفحة المياه تتلوى وتتململ بألوان دائمة الانكسار حول المســـاحات السوداء الراكدة التى تتركها السفن خلفها ٠

وقرأت على وجوه المارة تلكم الاثارة التى تسوق الرجال الى منازلهم بعد الفراغ من أعمالهم ، حيث يجدون فى أزواجهم سكنا ومودة ٠ انها الاثارة التى تجعل الفتيات الصغيرات يغضضن من أبصارهن للحظة ، وهن يسرن سويا فى زرافات ، يتأبطن أذرعهن ٠

وانتشر شذى المياه الليمونية المنبعث من الأيدى والجباه التى دعكت بها ، لكى تطرد رائحة العرق العالقة بهم بعد كد يومهم ٠ ولاح لى كما لو أن الجميع يحاولون التقرب خلسة بعضهم من بعض ، على أن المدينة ، التى كانت الشمس قابعة من ورائها ، بدت ككواليس أحد مسرحيات الطــــلال الضخمة ، تلك الكواليس التى لا يظهر من خلفهـــا لاعبـــو « الأراجـــوز

والبهلوانات ، وانما الاستياء من تجاوز معالم حدود الحكاية · ويزداد هذا الأمر وضوحا ، كلما تأخـــــر بنا الوقت · وكانت تجلس سيدتان يونانيتان عجوزتان فوق أحـد المقاعـد الزوجية على ظهـر السفينة المسقوف · وكانتـا ترتديان سترات سوداء ، « وبلوزات » حالكة السواد ، وينسدل عليها الشعر الأبيض المتموج · وأخذت السيدتان فى الثرثرة والتوجع بلا انقطاع ، كما لو أن الأمر لا يعنى ميتا قد تحدثوا اليه بالأمس وأتوا اليــوم مظهرين عليه الحزن ، كانتا تجهشان بالبكاء ، وكأنهما تبكيان مدينتهما عبر قرون طوال ، كانتا تبكيانها بسبب مجدها البائد وجمالها الذابل ·

وأخذ أحد الحمالين يصدح بالغناء · وكانت أسماله المصنوعة من الخيش تتطاير فوق كتفيه · وكانت عربته تقف خالية بجواره · وراح الرجل ينشد بشىء من قصة « يوسف وزليخة » · وكان صوته يميل الى التجـويد فى نغمات طويلة ، ومصحوب بكثير من صيحات الأمان التى تعنى طلب المغفرة من منشدها · ومع هذا فقد كانت نغمة صوته مملوءة بالتهديد ، مما حـدا بالسيدتين الاغريقيتين أن تكفا عن النحيب للحظة ·

ورأيت « أكسو » أول ما رأيت ، عندما وطئت قدماى المرسى ، وكان يقف متكئا على السور الخشبى للمكان الذى تباع فيه التذاكر ·

ووجدت صعوبة فى اختراق هـــــذا السيل من البشر الذى ينهمر من السفينة حتى وصلت اليه ·

ـ اتنتظروننى ؟

ولم أعرف فيم مجيئه هذه المرة · اذ كانت ترتسم على محياه علامات الشرود ، وكأنه يجد مشقة بالغة فى أن يحمل نفسه على أن يصوب بصره اتجاه شىء محدد · وبعد ذلك بقليل فهمت أن هذا الوجه لا علاقة له بالشرود البتـــة ·

وأجاب :

ـ أجل ! انى أنتظر هنـا منذ وقت طويل ·

وأمسكنى من ذراعى لئلا يدفعنى الناس معهم ، وهم يمرون بنا فى ازدحـــــام ٠

ـ هـل حـدث شىء ؟

لقد أردت أن أكون على يقين من أن شيئا لم يحدث البتة ، وأن «أكسو» انما جاء ينتظرنى لمجرد أنه يريد أن يرانى ، أم لأنه فرغ من عمله مبكرا وينوى أن يأخذنى معه للطعام ٠

وأوجست فى نفسى خيفة ، ورأيت خطابا يبرز من جيب سترته العلوى ، وتعرفت على خط « سهيلة » على حافته العليا ٠ فقلت فى نفسى ، لقد أخذتها النخوة أخيرا ، ثم رفعت يدى لألتقط الخطاب ٠ ولكن « أكسو » فاجأنى بقوله:

ـ لقد أطلقوا الرصاص على « تورجوت » !
وانخفضت يدى مرة ثانية ، ماذا ؟ « تورجوت » ؟
ولم أدرك ما عناه بقوله :

ان « تورجوت » قد رحل بعيدا الى الشرق ، وربمـــا يجلس الآن فى ساعتنا هذه مع والديه فى الشرفة الخشبية لمنزلهم القاطنين به ، ويرنو ببصره على الشارع ٠ فلقد حدثنى ذات مرة عن منزل كهذا ، وربما يحـــاول الآن أن يشرح لأبيه السبب الذى حدا به الى المجىء فى هذا الوقت ٠

ثم تساءلت مرة ثانية :
ـ تقول « تورجوت » ؟؟ هذا مستحيل !!
لقد غادر « تورجوت » المدينة منذ أمد طويل !!
فرد « أكسو » :

ـ هذا هو ما يبدو لك وللآخرين ٠ ولكنه فى الحقيقة لم يبرح المدينة ٠ وعلى الرغم من هذا ، فان قتله جاء عن ســـوء فهم ٠ انه لم يشـــترك مع المتظاهرين ، وانما كان يقف على نهاية الشارع ، عندما انقض عليه أحـــد المتظاهرين ، وطوقه من كتفيه ٠ ويبدو أن هذا قد تعرف عليه ، بالرغم من حلقة شعره المغايرة والنظارة ، التى لم يألفه الناس بها من قبل ؛ وقد بدا

للآخرين أن المتظاهرين سيقعون فى شجار مع المارة · وسرعان ما تدخل البوليس · ويقال انه استخدمت قنابل الغاز المسيلة للدموع ، وهراوات المطاط لفض المتظاهرين ، ولكن عندما انقشعت سحب الدخان ، بقى « تورجوت » ، واثنان آخران طريحين فى الشارع · فأما « تورجوت » وأحد الاثنين فلقد لقيا حتفهما فى الحال · وأما الثالث ، فربما تكتب له النجاة ·

ولم أستطع الى الآن أن أفهم ما حدث · لقد سافر « تورجوت » الى مسقط رأسه · هناك فى الشرق · وقد رأيته وهو يغادر المدينة · وهو الذى قال لى هذا بعظمة لسانه · ترى ما الذى دعاه الى أن يكذب على ؟ وهل أن «سيفيم» تعرف أنه بقى فى المدينة متخفيا ؟ وكلما غضضت الطرف عن « أكسو » استطعت أن أتوصل الى الاعتقاد بوجود خلط ما · لكن سرعان ما اتضح لى أن خلطا من هذا النوع لا وجود له ، حتى بالنسبة « لاكسو » ، الذى لم يكن سوى صورة طبق الأصل من « تورجوت » · وشــــعرت لهنيهة بغضب كل المخدوعين حتى أصابتنى غصة سرت فى حلقى ، بعدها استطعت أن أجتر ريقى وأتنفس ·

وقال « اكسو » :

ـ هلم بنا ! يجب أن نذهب الى « سيفيم » ·

وساقنى فى اتجاه موقف « التاكسى » · وشققنا طريقنا عبر التيار المتجدد من البشر ، الذى يصعد الآن الى « المعدية » ، لكى يصلوا الى الشاطىء الآخر ، وقد تركوا المدينة وراءهم · وبينما أخذت هذه الأجساد البشرية تمر بنا ، تواردت فى مخيلتى صور تروح وتجىء ، صور قــد رأيتها من قبل فى مكان ما ! فى أحد الأفلام ، أو فى احدى المجلات المصورة · تلك الصـــور التى يجمع بينها عامل واحد مشترك ، وهو ثقب أسود ، يمثل اختراق طلقة نارية فى جسد أبيض لرجل ما ، وموضع للجرح ذو الوان غريبة ، ينسال منه خط متعرج خفيف ، خيط رفيع من الدم ·

المراجـــع

١ ـ المراجـــع العربية :

ـ القرآن الكريم

ـ الحديث الشريف

ـ ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل) : لسان العرب ، القاهرة ١٩٧٩ ·

ـ أبو نصر (السراج الطوسى) : اللمع ، القاهرة ١٩٦٠

ـ أحمد معوض : شاعر الصوفية فريد الدين العطار وقصتاه شـــيخ صنعان ورابعة وبكتاش ، القاهرة ١٩٧٦

ـ الكلا بادى : التعرف لمذهب أهل التصوف ، القاهرة ١٩٦٠

ـ جامى : نفحات الأنس ، تعريب النقشبندى ، مخطوط ، القاهرة (١٠٠٠ هـ)

ـ فريد الدين العطار النيسابورى : منطق الطير ، ترجمة : بديع محمد جمعة ، القاهرة ١٩٧٥ ·

ـ محمد بن المنور : أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد ، ترجمة : اسعاد قنديل ، القاهرة ١٩٦٦

ـ الغزالى (أبو حامد) : الجواهر الغوالى من رسائل الامام حجة الاسلام الغزالى (رسالة الطير) ، القاهرة ١٩٣٤

ـ يوسف صلاح الدين عبد السلام : ليلى والمجنون ، مجلة كلية اللغات والترجمة ـ جامعة الأزهر ، القاهرة ، العدد ١٩٨١/٥

(2) : Fremdsprachige Literaturquellen

Abu-Hattab, Mohammad : Das Orientbild in Barbara Frischmuths Roman "Das Verschwinden des Schattens in der Sonne", in : Oesterreischische Literatur in Aegypten, Kairo 1977.

Abu-Hattab, Mohammad : Versuch einer kritischen Analyse zum Bild der islamischen Mystik in Barbara Frischmuths Roman "Das Verschwinden des Schattens in der Sonne", in : Faculty of Languages & Translation Studies, Kairo 3/1978.

Daviau, G. Donald :Neure Entwicklungen in der modernen österreichischen Prosa — Die Werke von Barbara Frischmuth, in : Modern Austrian Literature, Vol. 13 Nr. 1/1980. California.

Frischmuth, Barbara : Die Klosterschule, Salzburg 1968.
Frischmuth, Barbara : Amoralische Kinderklapper, Frankfurt/M 1969.
Frischmuth, Barbara : Geschichten für Stanek Berlin 1969.
Frischmuth, Barbara : Tage und Iahre, Salzburg 1971.
Frischmuth, Barbara : Ida und Ob, Wien/Müchen 1972.

Frischmuth, Barbara : Rückkehr zum vorläufigen Ausgangspunkt, Salzburg 1973.

Frischmuth, Barbara : Das Verschwinden des Schattens in der Sonne, Frankfurt/M 1973.

Frischmuth, Barbara : Haschen nach Wind, Salzburg 1974.

Frischmuth, Barbara : Die Mystifikationen der Sophie Silber, Salzburg 1976.

Frischmuth, Barbara : Amy oder die Methamorphose, Salzburg 1978.

Frischmuth, Barbara : Kai und die Liebe zu den Modellen, Salzburg 1979.

Frischmuth, Barbara : Entzug — Menetekel der zärtlichen Art, Pfaffenweiler 1979.

Frischmuth, Barbara : Bindungen, Salzburg 1980.

Frischmuth Barbara : Die Frau im Mond, Salzburg 1982.

Frischmuth Barbara : Als die Wünsche noch an den Bäumen hingen, in Die Zeit, Wien vom 4.6.1979.

Fühmann, Franz : Gedanken beim Lesen — Gespräch über Barbara Frischmuth, in : Sinn und Form, Berlin H. 2/1976.

Gstrein, Heinz : Islamische Sufi — Medititíon für Christen, Wien 1977.

Gstrein, Heinz : Das Verschwinden des Schattens in der Sonne — Religionssoziologische Einsichten und Anliegen im poetischen Werk von Barbara Frischmuth, in : Oesterreichische Literatur in Aegypten, Kairo 1977.

Jorun, B. Johns : Laut Brief an den Verfasser vom 12.9.1980 betr. "Frischmuths Biographie".

Köcka Türk/Mahir Vasi : Türk Edebiyati, tarihi, Ankara 1964.

Kraus, Karl : Sprüche und Widersprüche, München 1955.

Ritter, Helmuth : Das Meer der Seele — Mensch, Welt und Gott in den Geschichten des Fariddin Attar, Leiden, Brill 1955.

Schick, Paul : Karl Kraus in Selbestzeugnissen und Bilddokumenten, Hamburg 1965.

Spiel, Hilde : (Hrg.) : Die Zeitgenössische Literatur Oesterreichs, Zürich, München 1976.

Weigel, Hans : Karl Kraus oder die Macht der Ohnmacht, München 1972.

Wittgenstein, Ludwig : Philosophische Untersuchungen, Oxford 1958, Frankfurt/M 1975.

Wittgenstein, Ludwig : Tractatus logico philosophicus, Oxford 1959, Frankfurt/M 1975.

Wittgenstein, Ludwig : Philosophische Grammatik, Oxford 1969, Frankfurt/M 1973.

